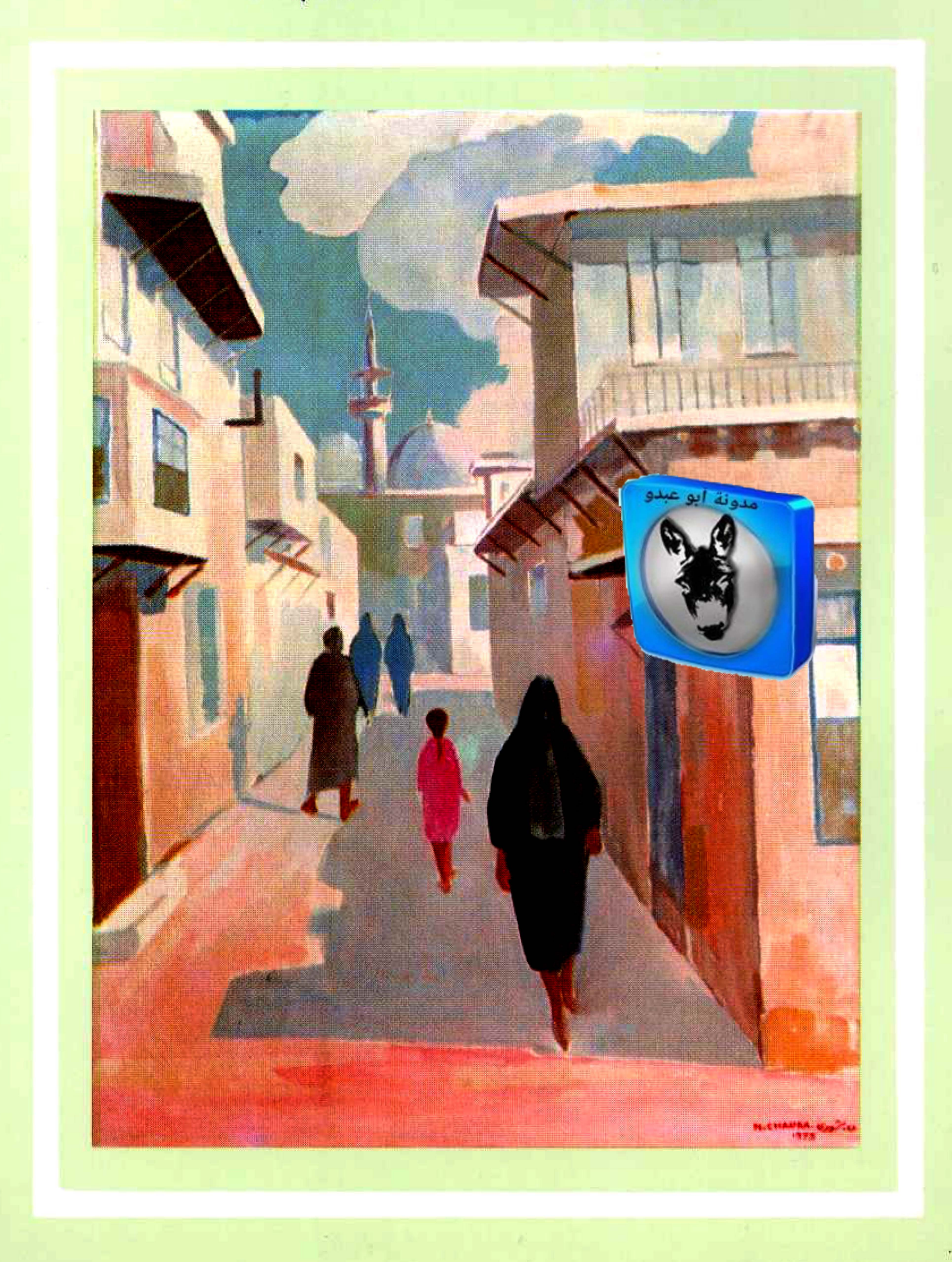
المذكرات «١»

نجاة قصّاب حسن

حديث دمشقي

١٨٨٤ — ١٩٨٣



نجاة قصاب حسن

المذكرات «١»



١٨٨٤ — ١٩٨٣

الغلاف من تصميم الفنان عبدالقادر أرناؤوط
واللوحـة التي فيـه للفنـان نصـير شورى
وخط الغـلاف للفنـان عبدالرزاق قصيباتي

الطبعة الأولى ـ ١٩٨٨
الطبعة الثانية ـ ١٩٩٠
الطبعة الثالثة ـ ١٩٩٢
الطبعة الرابعة ـ ١٩٩٣
الطبعة الخامسة ـ ١٩٩٥

مقدمة الطبعة الثالثة

لقي هذا الكتاب منذ صدوره عناية خاصة وكبيرة عند القراء ونظمت ندوات لقراءته وتقييمه وكُتبت مقالات كثيرة كما وردتني رسائل عديدة • ومن قبيل الشكر اخترت مقاطع صغيرة من بعضها متجنباً التكرار متوقفاً عند الرأي الجديد المتميز. معتذراً للاخوة الآخرين الكثيرين الذين شجعوني وضاق المكان عن نشر آرائهم ورسائلهم • وقد رتبتها حسب حروف المعجم من أسماء كاتبيها الأكارم •

نجاة

فقد كتبت الأديبة السيدة إلفت الادلبي من وحي الأسلوب الدمشقي الوارد في الكتاب ، رسالة مطوّلة أجتزىء منها مقاطع صغيرة جداً ، قالت :

أخي نجاة ، استعنت عليك بالله !! فحديثك الدمشقي الطريف الممتع سرق النوم من عيني ليلة كاملة ، فلم أستطع أن أتخلى عنه حتى فرغت منه •••

•• فقد استطاع قلمك المطواع ، الفكِه ، الجادّ ، الصياد الماهر، اللاذع أحياناً والحنون دائماً أبداً ، أن يعيد اليَّ صباي وطفولتي في الكلام عن أحياء الصالحية وبين المدارس والمهاجرين ، وهذا ليس بقليل لمن كانت في عمري ••• فقد ولدت في الصالحية على ضفاف

نهر يزيد الذي كان يشطر حديقتنا الواسعة الى شطرين ، ويوم كانت مياهه صافية كدمع العين ...

ودرست في مدرسة العفيف ثم انتقلت الى دار المعلمات في طريق الصالحية وكانت الثانوية الوحيدة للاناث في سورية ، ولمّا تزوجت سكنت في حي المهاجرين في بيت يطل على دمشقنا الحبيبة فكنت أكحل عيني بها كيفما تلفتّ في بيتي . فأنا كما ترى أعرف حارات دمشق وكل ركن فيها ، ولكن لمّا قرأت وصفك لها قلت في نفسي : يا كحلا من فمك أحلى !.

ثم خدعتك بالله أن تصدقني القول : فان تكون عددت أسماء الأكلات الدمشقية شيء طبيعي ، أما أن تصف كيف تطبخ كل أكلة بدقة فهذا يدل على ممارسة ، فهل عملت طباخاً في فترة ما في حياتك ؟ وأنا التي نسيت الطبخ على الكبر سأعود الى كتابك كلما عنّت لي أكلة دمشقية .

ولا أخفيك بعد بأنني تمنيت لو أكثرت من هذه النُهف والطرف أو القصص الباسمة كما تسميها ففيها كل ما اتصف به الدماشقة من كياسة ولباقة . وقد ذكر لي خالي الدكتور كاظم الداغستاني حكايات ضاحكة جرت بينك وبينه ، فلا تنس أن تذكرها في الأجزاء القادمة . وأخيراً فمهما شكرناك نحن الدماشقة فلن نفيك حقك ، ومن أجدر من نجاة الدمشقي الأصيل بأن يكتب عن دمشقنا الأصيلة العريقة ؟.

●

وكتب الأديب الناقد الأستاذ وليد اخلاصي ـ تشرين ـ ١٩٨٨/٤/٢٦:

... ونجاة قصاب حسن كقانوني ينظر الى دمشق على أنها ملكية مقدسة يجب أن تصان ، وكفنان ينظر اليها كأنها (موديل) لا مانع من أن يقبّلها قبل أن يرسمها ، وكأديب يخلط الحلم بالواقع حين يتعامل مع (شامه) ..

في شبابي الأول كنت أتساءل : لو أنه تفرغ للمسرح لكان الأهم، أو للرواية لكان روائياً من طراز خاص ، ثم مع الأيام رأيت أنه وهب نفسه لكل الرياح يعصف بهـا ويسيِّرها كما يشاء ، فبات يتقن لعبـة المعرفـة والامتـاع ٠

وأخيراً أبرز لنـا أوراق اعتباده التي أدخلته نادي عشاق المدن القديمة ليصبح عضواً بامتياز بكتابه الجديد (حـديث دمشـقي) ٠٠

منـذ فترة تحـدثت في هـذه الزاوية عـن كتـاب العـلاَّمـة خيرالدين الأسدي (موسوعة حلب المقارنة) وبظني أن نجاة قصاب حسن بتوثيقه لحياة دمشق قد ساهم في شيئين : التأكيد على خصوصية المدن القديمة والاعلان عـن حبها ثم تقديم وثائق يظـن من يقرؤها أنـه يعرفها مـن قبل وانهـا مألوفة ، الا أن القدرة على جمعها وتصنيفها وتحليلها تحتـاج الى مهارة ودأب وشجاعـة ٠

●

من رسالة مطوَّلة كتبتها الأديبة السيدة سلمى الحفار الكزبري :

★ تحيـة اعجـاب لقلمك المجنَّـح الذي حمـل قراء مذكراتك الدمشقية فنهلوا منها المعرفة والمتعة ٠

مـع كتابك ودعت سنة ١٩٨٨ واستقبلت العـام الجديد وأنا أتعرف الى معالم كنت أجهلها من مدينتي الحبيبة ٠ طفت معك البيوت القديمة والأسواق وعلى ضفاف بردى الذي حكمنـا عليـه بالموت ثم تعرَّفت الى أهلك وأحسست بهم يستضيفونني بحرارة ٠

ان مذكراتك لوحة حية لتاريخ دمشق وتقاليدها ومآثرها ومجتمعها في السنين الخاليات ، وكنت أقرأ وكأنني أصغي اليك ٠ فصلتني هذه القراءة عـن الحاضر كليـاً وأنستني هرولة الساعة التي في يـدي ٠ وعدت بالفكر الى مسقط رأسي ـ الشاغور البراني ـ والى كتَّاب

الشيخة عائشة والى أبي وأصدقائه من الزعماء الوطنيين الذين كنت في طفولتي أتطلع اليهم وأنهل مـن أحاديثهم · كنت أنت الحافز على هذه الرحلة الشيِّقة الى الماضي فشكراً لك ·

●

الأستاذ نصرالدين البحـرة ـ صحيفة الثـورة :

★ ··· ان أجمـل ما في هـذا الكتاب أن مؤلفـه يضع قارئـه باستمرار في حسبانه ، ولذلك يمتعه حتى لا يتسرب الى نفسه شيء من الملل ·· فهو من حياة الأحياء الدمشقية والعائلات القاطنة فيها والمهن والأسماء ومحاكم تلك الأيام يقفز دفعـة واحدة ليحدثنا عـن مقتـل فوزي الغزي باله م على يـد زوجته ، ثم يروي ما كان يوم حاول شاب حمصي اغتيال صبحي بركات فقتله الحرس وتألم الناس لمصـيره ···

في هـذا الكتاب أهم ما يجب أن يتوافر في المـذكرات ، فالذاتي يندمج في الموضوعي · انه لم يقتصر على سـرد ذكرياته في دمشق ، بل قدم دمشق ـ ويمكن أن نقول سورية ـ عبر تلك الذكريات في حقبة مـن أجمل أيامها وأصعبها وأكثرها تغيُّراً ·

●

الدكتور عمر الدقاق ـ مجلة الكفاح العربي :

★ لعل أهم سمات العمل الفني المميز قابلية الاستعادة واستمرارية التـأثير فهو كما النهر يتجدد ، وتنكشف جمالياته كأنمـا يملك النص قدرة فائقـة على تحريك السواكن والكوامن ··· ولولا هـذه السمة لكان شيئاً موقوتاً سرعان ما يبهت أو يزول ·

في (حديثدمشقي) يتداخل الاجتماعي والأدبي ويتمازج التاريخي مع الواقعي ويتعانق التراثي والعصري ·· ولأن مؤلفه مواطن شديد اللصوق بأرومته وتراثه قوي الانتماء الى مجتمعه وعصره ، فقد غـدا مؤهلاً لأن يبوح بهـذا الحديث الشائق · فهو بحكم نشأتـه وتكوينه

وتربيته قد عاش منفتحاً على الناس واسع الاختلاط دمث الطبع ، وهكذا عرف البسطاء من سوقة وباعة وكَسَبة وعَمَلة ، كما عرف كبراء القوم وسراة المجتمع من ساسة وقضاة وقادة ووزراء وفنانين وأدباء ، وكان له بصدد كل هؤلاء نظرات نافذة ·

●

وكتبت الأديبة السيدة غادة السمان في مجلة الحوادث :

★ أظرف ما في الكتاب أن مؤلفه يبدؤه بالاعتذار عن أجمل ما فيه : ذاتيته ·· تلك الشرارة الداخلية التي تشعل فحم اللغة فتحوله الى ماس وهَّاج حين يكون الكاتب موهوباً ، والابداع ينبع من داخل الفنان في لحظة محبة كونية شفافة !..

● يتميز هذا الحديث الحميم عن كل ما سبقه من كتب عن المدينة المعشوقة ، بتلك الذاتية الحميمة التي نقلته من خانة التسجيل الى مرتبة النسيج اللغوي الحي لذاكرة مدينة بأكملها عبر مذكرات شخصية· مفارقة أدركها الأدباء الكبار حين لم ينجح أحد في تخويفهم من صدقهم الداخلي ؟.

● في كتاب الحنان والحنين يمتزج صوت المدينة بأصوات المؤلف بأصوات الناس الذين عرفهم وكانت وجوههم مرايا شعبية من الفسيفساء تنعكس عليها ملامح تلك السيدة الدهرية التي صمدت في وجه الفاتحين والغزاة : دمشق التي ينبض قلبها بحق في ملايين البسطاء الذين يصورهم عبر أمه وعمه ووالده ورفاقه ومعارفه ، في أسلوب هو الوريث الشرعي لألف ليلة وليلة ، والعطاء المجدد الذي يرتفع بنا الى قمم ايجابية تذكر بعض اللحظات بالواقعية السحرية لدى كتَّاب أميركا اللاتينية أمثال ماركيز ·

● طفولة نجاة خلابة وهو الذي يخطو الى شبابه السبعيني : روح دمشق الصبية الى الأبد ، العجوز منذ لحظة ولادتها ، المثقلة

بالنضج والتجارب والمباهج والأهوال . يؤرخ لها أبناؤها وعشاقها فتأتي كتبهم شكلاً من محاربة الموت باعتقال الزمن الهارب والتقاط التفاصيل من بين أصابع الزوال المحتوم ·

ذاتية الكاتب جعلته يتميز حين التقط روح الدعابة والمرح و (الأنكلة) في دمشق · انه مرح حي متحرك يتراوح بين السخرية السوداء والضحك البريء ، في تدفق كنبع الفيجة ونسيم بردى ·

ليس المرء بحاجة الى ان يكون دمشقياً عتيقاً يأكله الحنين وتطحنه عربات (النوستالجيا) كي يستمتع بهذا الكتاب الزاخر بطرائف أهل الشام (العتق) ، ونوادرهم تذكر بأعمق نوادر الاعراب وأعذبها ···

●

وكتب الأستاذ مأمون ضويحي في صحيفة الثورة :

★ قرأت (حديث دمشقي) للمرة الثانية ، وهذا في زمن القراءة السريعة دليل على أنه يأخذنا عبر رحلة لطيفة بقطارين : العمر الذي حفظت الذاكرة تفاصيله ، ودمشق القديمة التي يخترق حاراتها ويذهب الى مصايفها وقراها حاملاً معه الفرح والحزن والطفولة والصبا ·

ليس سهلاً أن تكتب عن مدينة تحبها ، فالمدن تتغير مع الزمن كالانسان ، ويبقى أن تستطيع الاحتفاظ بذاكرتي الزمان والمكان وترحل في شوارعها القديمة والجديدة وفي خيالك مئات الألوف من الأشخاص وعشرات الألوف من المنازل والأشجار وما تحتضنه من حكايات وذكريات غالية ··

هذه المذكرات ليست أدباً وحسب ، ولكنها توظيف اجتماعي لكل حكاية ·· ثم ان لكل مقطع فيها لغته : فهي في تاريخ دمشق أعمق منها في الحديث عن العادات ·· كتاب عذب يستحق أن يقرأ بجدارة كبيرة !.

وكتب الدكتور عبدالسلام العجيلي رسالة جاء فيها :

★ (حديثك الدمشقي) لطيف طريف آسر للعين والسمع والقلب · المتعة بقراءة ما أثبتَه للتاريخ وللفائدة الذهنية والفكرية والقيم الوجدانية متعة رائعة ولا سيما بطريقتك العفوية ··

أحببت كثيراً ما كتبته عن أبيك وأحببت أباك أيضاً ··· ليت كل الناس يكتبون عن أنفسهم وما حولهم مثلك ، ولا أظنني مستطيعاً أن أفعل . فقد اخترت أن أحوِّل معلوماتي وتأثراتي الى قصص أو أحاديث قصصية · لم يتح لأمي في أي مرة أن تقبلني عند توديعها لي قبل ذهابي الى أحد معاهد دراستي ، وظلت تبكي ثلاثة أشهر حتى عدت، ولكنني لم أكتب الحكاية في مذكرات وانما تحدثت عنها في احدى قصصي ونسبتها الى بطل القصة ·· وكذلك قسوة والدي عليَّ قسوة في صالحي ، نسبتها الى أحد ابطالي ···

كل شيخ وله طريقته ، على أنني أحببت طريقتك في تحدثك عن أهل بيتك ···

●

وكتب الأستاذ علي القيِّم في صحيفة تشرين :

★ في هذا الكتاب يدون المؤلف ذكرياته ورؤيته لدمشق عبر قرن كامل ، ويصور أحداثها بطريقة جميلة ممتعة من خلال وعي ذاكرته ، ونراه في كل هذا يعبر عن مواقف في الحياة والمبادىء والعلم والفن بأسلوب المحدث أحياناً ، وأسلوب الدراسة أحياناً ، وأسلوب القصاص الشعبي أحياناً أخرى ··

يذكرنا (حديث دمشقي) بيوميات البديري الحلاق ويتفوق عليها بالأسلوب الأنيس السلس الساخر الممتع والحديث المرسل على السجية·

وتبرز أهميـة الحديث مـن أنه مـن رجل عاش الحياة وعرفها وخبرها من كل جوانبها وهـذا ما جعله أكثر حميمية وقرباً من الواقع الذي صوّره ٠ انه وثيقة هامـة تنبض بالحياة والرونق عن دمشـق التي أفقـدتها الحيـاة الحديثـة الكثير مـن خصوصيتهـا وأصالتهـا وشعبيتهـا ٠٠٠

●

وكتب القانوني الكبير الأستاذ أسعد الكوراني رسالة منها :

★ ٠٠٠ وبعد ، فقـد تلقيت كتابكم وعكفت على قراءته فشدّني اليه بالطلاوة والحيـاة النابضة ٠ وانني لأميـل الى ضرورة تسجيل الحاضر لنضعه تحت اطلاع الآتين من الأجيال ، وحسبنا أن نتأمـل في انجذابنا الى ما كتبـه البديري الحلاق عـن دمشـق ومعلم الكتّـاب نعـوم بخـاش عن حلب ، على سذاجة ما كتباه ٠

ولقد حاول الكاتب الأستاذ حبيب زيات في مجلة المشرق أن يتحدث عن ألوان الطعام التي كانت تقـدم على موائد الخلفاء والأمراء فكبا بـه البحث بسبب فقدان المصادر اذ لم يعثر الا على شذرات بسيطة ، ومن هنا يقرّ المطالع بأهمية ما يكتبه أديب محقق باحث لأجيالنا القادمة مـن وجوه الحياة وعـن تكوين مدينته في أيامه ٠٠٠ فاذا هنأتكم على ما أصبتم مـن توفيق فأرجو أن تكونوا على يقـين مـن صدق فكري وشعوري في هذه التهنئة الحارة ٠٠٠

●

وكتب الفنان الأستاذ رفيق اللحام في صحيفة الرأي الأردنية :

★ ٠٠٠ وبشكل عام جاء أسلوب الكتاب من السهل الممتنع بكلمات ومعانٍ بسيطة ، لصدق الكاتب وحسّه المرهف ٠

وما من شخص عرف دمشق الا وأرجعته ذكريات الكتاب الى تلك

الصور التي انقرضت أو كادت ، وأعادته الى العادات الدمشقية بصورها الشعبية التي كانت ذات طابع خاص بها لا ينافسها فيه منافس.

والكتاب تخللته حكايات باسمة وطرف ضاحكة وتجارب للكاتب أو أقاربه تجعل القارىء يحيط بكل صغيرة وكبيرة عن تاريخ هذه المدينة العريقة .

●

وكتبت مجلة النهضة في ١٩٨٨/٣/٢٢ :

★ ... كتاب بالغ التشويق يشدّ القارىء فيرى فيه نفسه ... كتاب موسوعي ظريف فريد في موضوعاته ونقداته وسخريته ومرح مؤلفه الذي عرفناه مبدعا منتجاً متألقاً في المحاماة والصحافة والأدب والنقد الساخر والحديث الاذاعي ، فجاء الكتاب مرآة لجيل كامل ...

... وانه ليذكي الحنين والمحبة والوفاء ويلتصق بذاكرتك ووجدانك ومشاعرك ، ومن خلال الذكريات والحكايات والتعليقات الساخرة أو المريرة يطرح قضايا ومشكلات كثيرة ..

والمؤلف ذو (أستاذية) في مجالاته ، وهو في حد ذاته موسوعة نمشي على قدمين ، وكتابه فيه التاريخ والاخوانيات والمطارحات والمفارقات والدعابات التي تدخل في أدب الذات أعني أدب الحياة والحب والجمال الذي يتدفق كما الينبوع ، كما نهر يفيض ، كأنه الدانوب الأزرق الموشّى بالموسيقا .



المقدمة

قبـل مئتين وسبعين سنة مـن أيامنا هـذه ، خطر لحلاق دمشقي اسمه أحمد البديري أن يسجل يوماً بعد يوم أو كلما وقع حادث ذو بال، صفحة أو صفحات عما حدث فرآه أو سمع به في ذلك اليوم ، فكان لنـا من ذلك كتاب من أطرف ما وضع عن تاريخ دمشق(١) ، يصوّر حوادثها بطريقة أنيسة تسحر قارئها ٠ بـل ان قارىء اليوم يجـد فيها أحياناً ما يحمله عنـد المقارنة مع بعض أحوال الأمس القريب على أن يتأمل ويعتبر ، ولا يخـلو في بعض الأحيـان مـن أن يقول مـع المثـل ما أشـبه الليلة بالبـارحـة ٠

ومثل ذلك فعل نعوم البخّاش وهو معلم كتاب حلبي ترك عـن النصف الثاني من القرن التاسع عشر مذكرات لا أمتع منها ولا أطرف ، ولا سيما في تسجيلها بعض الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والأمنيـة في تلـك الفترة ، وفي علاقـة الوسط الشعبي بسواه(٢) ٠

---

١ ـ هذا الكتاب صدر باسم (حوادث دمشق اليومية) بعد أن حوله الشيخ جمال الدين القاسمي من العامية الى الفصحى . وطبع طبعـات ٠ ويا ليت النسخة الأصلية بقيت بلغتها الدارجة ، اذن لكان لنا منها صورة عن لغة تلك الأيام تزيد الموضوع حرارة وأصالة ٠

٢ ـ نشرتهـا مجـلة (المشـرق) اللبنانية تباعاً ثم صـدرت في السنوات الأخـيرة في كتـاب مستقل ، وهي ما زالت بلغتها الحلبية الأصيلة ، وكـم يطربنـي اذا قابلت صديقاً حلبياً أن أسأله : ما هـو الـ (ضوبو) ؟ نقلا عمـا أكله نعوم البخاش ذات يوم !!٠

قلت في نفسي ، وأنا رجل واسع الاختلاط بالناس ولا سيما أهل دمشق ، عرفت صغارهم وكبارهم ، بسطاءهم وأذكياءهم ، نساءهم ورجالهم ، ظرفاءهم وسواهم ، حتى مجاذيبهم والشحاذين واللصوص والعيارين ... ، وعرفتهم في الحياة الاجتماعية وفي العمل السياسي ومن خلال الممارسة في مهنة التعليم لسنوات ثم في المحاماة لثلاثين سنة ، ثم تلقيت منهم عشرات ألوف الرسائل الى برنامج المواطن والقانون(٣) وهي رسائل تكشف بصدق عن دخائل القلوب وخلفيات الحياة ...

قلت في نفسي : لماذا لا أسجل هذه الصور التي علقت في ذاكرة وعيي خلال فترة تزيد على خمسة وخمسين عاماً حتى الآن ؟ أليس يكون فيها ما يفيد وما يطرف وما ينقذ من النسيان والضياع أموراً كثيرة وملامح عديدة تفيد في توضيح صورة هذا البلد وشعبه الطيب المكافح ؟

وما التاريخ ان لم يكن مجموعة شهادات أبناء عصر من العصور رأى كل منهم جانباً من الأحداث فسجلها أو رواها فتناقلتها الأخبار ، ثم يأتي اليها بعد ذلك المؤرخون بأساليبهم العلمية ليكملوا فسيفساء الصور المجتمعة ؟.

وقد كنت بدأت هذا التدوين لذكرياتي ونشرت احدى وعشرين حلقة منها في صحيفة (الرأيالعام) الدمشقية ابتداءً من أيار /١٩٥٥/، ثم نشرت منها حلقات أخرى مستقلة في صحف ومجلات أخرى ، ثم جعلت من صورها بعد ذلك وخلال السنوات الأخيرة بوجه خاص مواضيع لمحاضرات وأحاديث في الاذاعة وفي المنتديات ، وصار يمكن لي أن أجمع بعضها الى بعض ، وأكتب الباقي فتكمل الصورة .

---

٣ ـ برنامج اذاعي كنت اجيب فيه خلال ثلاثين عاماً بدات في ١٩٥٢ على رسائل المستمعين التي تحتوي استفسارات قانونية وانسانية واجتماعية .

غير انني أبادر الى القول ، قطعاً للطريق على نفسي وعلى من يقرأ سطوري الأولى هذه : انني في حياة وطني لا شريان أنا ولا وريد ، وانما وعاء شعري ، ومسنن صغير في هذه الآلة الوطنية الكبيرة التي تدور · واذا كتبت هذه الصفحات بضمير المتكلم وعلى أنها متصلة بحياتي فان حياتي ليست هي المحور الأساسي ولن تكون · انها مجرد مناسبة منها أنطلق الى الأحداث والى الأشخاص · شخصي هنا لا يعنيني ولا يعني الآخرين الا بمقدار ما يكون كالسلك الذي ينتظم حبات السبحة · أي انني أضع (الأنا) في خدمة الهدف ، فيصبح (الشخصي) تكأة (للموضوعي) ·

انني شاهد من شهود ما يزيد على نصف قرن صاحب وعيي منذ أواخر العشرينات حتى العام الذي أسجل فيه هذه الذكريات ، أي عام ١٩٨٣ . ولذلك فما حديثي عن نفسي وأهلي الا حديث الشاهد، وبوصفنا من النماذج الدمشقية الأصيلة الجديرة بأن تصور بقدر ما يمكن من الصدق والدقة · واذا رأيتموني أتكلم هنا وهناك عن شخصي ، فلن يكون هذا الا بقدر ما أستطيع من التجرد ، وأرى أنني قد أكون أقدر من سواي على وصف نفسي على اعتبار أنني واحد من جيل دمشقي نشأ في بيئة شعبية ، فلم يولد وفي فمه ملعقة الذهب ، ولكنه شقَّ طريقه بالعلم والعمل . وهو جيل فيه حسنات الدمشقيين وعيوبهم · واذا كنت ساتحدث عن مئات الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي فما ينبغي لي ـ موضوعياً ـ أن أهمل الحديث عن نفسي ، ويكون أقرب الى الصدق لأنه من الداخل ، كما انني حين أتحدث عن بعض أهلي فذلك حين يكونون شخصيات شعبية طيبة وطريفة . وهل أذهب فأبحث عن هذه النماذج بين الغرباء اذا كانت تلك تعيش حولي ولي بها صلة حميمة ودائمة تمكنني من الوصف الصادق ؟

وبلا فخار ولا تواضع كاذب ، أقول انني تعلمت كثيراً وفاتني كثير ، واغتبطت كثيراً وأسفت على كثير ، وعملت كثيراً وأهملت

الكثير ، وانني اتخذت مواقف شجاعة وجبنت في مجالات أخرى . وانني عرفت في أعماقي مغالبة عنيفة بين الطموح والرضوخ ، وانني أخيراً أعدكم في هذه المذكرات أن أقول الحقيقة لا شيء غير الحقيقة ، ولكن ليس الحقيقة كلها ، فبعضها أكله النسيان ، وبعضها قد يؤذي ، وأنا أحرص على أن أتجنب الأذى ، ولا يضير الحقيقة أن تنقص قليلا وغيري يكملها ، ولكن يضيرها أن تحرف ·

وبعد ، فقد قرأت أن رجلاً اسمه (كلبنكيان) عرف باسم (المستر خمسة بالمئة) لأنه توسط في أخذ امتياز بترول العراق للشركة المعروفة بهذا الاسم على أن تكون له هذه النسبة من أرباح الشركة الصافية ، فصار بذلك أغنى أغنياء العالم · وقد قنعت أنا في الميادين التي عملت فيها من سياسة وصحافة وتعليم ومحاماة وادارة وفن ، أن يكون لي في أي مجال منها مثل هذه النسبة من التأثير ، بل يكون شيئا عظيماً لو أتيح لي أن أحقق واحداً بالمئة من المساهمة في التقدم العام لوطني ، فأكون أنا أيضاً أغنى الأغنياء – في نظري على الأقل – بما وفقت اليه ! وأرجع اليوم ببصري الى الوراء فأشعر بكثير من الرضا لأنني لم أمر عبثاً في أي مجال كنت فيه ، ولا مضت أيامي بلا أثر وجدوى·

أسلوب هذه المذكرات

في هذه المذكرات كما ستلمحون فوراً أكثر من أسلوب ، فقد كتبت في أوقات مختلفة ولأغراض ودوافع مختلفة · فبعضها كان مما نشرت فيما مضى وتركته على حاله لتبقى له حرارة اللحظة التي رافقت الكتابة ، وقد يكون أقرب الى الأدب منه الى الحديث المرسل على السجية · والبعض الآخر كتب ليعبر من مواقف من الحياة والمبادىء والعلم والفن ، فينبغي أن يكون بأسلوب دقيق التعبير · ونوع ثالث كان حديثاً وجدانياً أو وصفياً كالموقف من الناس والأحداث ، ومن

الحب ومن الحياة والموت . فاخترت له أسلوب المحدث الذي عرفت به من الاذاعة والتلفزيون والمحاضرات مع الحرص على الطرافة والامتاع. وهو أسلوب مرسل مليء بالاستطرادات ، وقد يخرج من موضوع الى موضوع . فيفقد الترابط الذي تتميز به الدراسة ، ولكنه يكسب حميمية أكثر ويكون كحديث الناس حول الموقد في الشتاء . وقد تجدون أنني أعلو الى أسلوب الرافعي في مكان وأغادره الى أسلوب المازني في مكان اخر وقد أحببت الاثنين ، وفي مجال ثالث أتحول الى قصاص شعبي . وفي مجال رابع أرص الكلمات كالفقهاء ... ثم انني سلكت في كتابتها الطريقة التالية : كتبت على السجية كما خطر لي وكل شيء في ذاكرتي حتى أفرغتها كما يفرغون المسجلة . ثم بعد ذلك بدأت أتنخل فأحذف بعض ما لا جدوى منه ، وما تكرر ، أضيف ملاحظة هنا وهناك ، وكنت حتى ذلك الوقت أعتمد على الذاكرة وحدها .

فلما اكتمل العمل عند هذا الحد بدأت أرجع الى الكتب التي كتبت عن دمشق في المواضيع المماثلة أقرأ منها لأجد هل تذكرني بشيء ؟ واستفدت كثيرا جدا منها اذ حركت ذاكرتي وأنقذت من النسيان أشياء كثيرة ، ولكنني ما نقلت منها الا ما كنت أعرف ، حتى تبقى لهذا الكتاب قيمة الشهادة الشخصية لا التأليف والجمع . وقد يكون هذا سبباً لاهمال بعض الأمور والملامح من حياة دمشق ، ولكنه يظل أفضل في نظري من حيث الأصالة .



تقسيم الكتاب

ولما كثرت المادة التي بين يدي ، ورأيت أن التأريخ لدمشق يقتضي التأريخ ـ سياسيا ـ لسورية، على اعتبار أن دمشق هي العاصمة واختلط نشاطي السياسي ـ كغيري من الشباب ـ بقصة النشاط العام ، فقد أسهبت بعض الشيء في التاريخ السياسي منذ الاحتلال الفرنسي وحتى آذار ١٩٦٣ ، ثم كان لا بد أن يقسم الكتاب الى كتب ثلاثة ليسهل طبعه واقتناؤه وتناوله وقراءته · فجعلت هذا القسم الأول لتاريخ دمشق وجغرافيتها وحياتها الانسانية والاجتماعية والعامة حتى آخر العشرينات ، بما في ذلك الحديث عن أسرتي وعن طفولتي · وجعلت القسم الثاني لتاريخ دمشق السياسي منذ الاحتلال الفرنسي حتى الجلاء ، ولتاريخ دمشق الأدبي والصحفي والفني والرياضي والكشفي والتعليمي ولتجاربي في السجن حتى عام ١٩٤٦ ، أما القسم الثالث والأخير فيتناول ، عدا السياسة تاريخ الحياة الآدبية والصحافة والاذاعة والتلفزيون وعملي في المحاماة وفي ميدان الفنون حتى عام ١٩٦٣ ·

وبعد ، فقصارى أملي اذن أن تحاولوا ، بعيونكم التي تقرأ هذه الصفحات ، أن تروني بين السطور محدثاً بحرارة ، باسماً ضاحكاً غاضباً عاتباً هادئاً ، وقد أعود طفلاً اذا كان الحديث عن الطفولة ثم تتجعد قسمات وجهي حين أفلسف القرب من النهاية · فاذا عشت في عيونكم مدى القراءة فهذا أبهى ما أطمح اليه ، موجوداً وحين أغيب ، وهذه جنّة خلدي في الدنيا ، وأحسن الله الخاتمة ·

الفصل الأول

دمشق وتيمورلنك

قبل نحو عشرة أعوام ألقيت محاضرة عن دمشق وتيمورلنك بدأتها بالجملة التالية : كنت حين يسألني أحدهم عما إذا كنت دمشقياً أجيبه نعم ولكن من بعد تيمور ، وأحسب أن جوابي ذكي وخفيف دم ، وأنني أتبرأ بذلك من صفة ألصقها من لا يحبون دمشق أو من يداعبوننا اذ يقولون عن أهلها (بناديق تيمورلنك) . ثم قرأت تاريخ دخول تيمورلنك إلى دمشق عند اثنين من المؤرخين المعاصرين لهذه الحادثة هما (ابن تغري بردي) و(ابن عربشاه) وفي عدد من المراجع الأخرى . وبعد أن قرأت القصة وجدتني استحي أن أجيب على سائلي بالجواب القديم وأقول : نعم ، أنا دمشقي ، وفخور بانتمائي إلى مدينة ماركعت أمام الغزاة ، ولا فتحت أبوابها أمام الاجانب سلماً ، والحرب كر وفر .

من هو تيمورلنك؟

وقصــة تيمـورلنـك ـ التي كنت أجهلهـا كواقـع تاريخي مفصل، ويجهلها الكثير ون لقدم العهد ، تستحق أن تروى . ان (تيمور) تعني بلغـة المغـول الحـديـد و (لنـك) تعني الأعـرج ، لأن هذا اللعين كان أصيب بسهم في فخـذه فصـار أعـرج . ومن العجب أن دمشق ابتليت مرتـين بذوي عاهتـين : تيمـور (الأعـرج) والجنـرال غورو (الأبتر) الذي فقد ذراعه اليمنى في الحرب ، وفي الحديث ان (كل ذي عاهة جبار) .

وقد بلغ من حقد تيمورلنك وجبر وته أن قيل عنه أنه قتل زوجته بيـده ، ثم قتـل عشـرات الألـوف ممن لا يخضعـون لسلطانه ، ولكنه ـ ويــاللتنــاقض ـ كان يقــرب منــه العلماء والمســامــرين والشجعــان والاشراف ، ثم من خالفه منهم أدنى مخالفة قتله . وقد خربت جيوشه في أيـامـه روسيـا وبولونيا والهند وافغانستان، ولكنه لم ينس أن يأخذ منها إلى بلاده المهنـدسـين والنقـاشـين، فقـد كان هذا شأنـه حيثـما ذهب، يستصفي أحسن العلماء ومهــرة الصنــاع فيأخـذهم إلى بلاده أسـرى وعبيداً من أجل أن يعمروها . ثم حارب السلطان بايزيد العثماني (بعد موقعـة دمشق بسنتـين) فغلبه ووضعه في قفص من حديد وأخذ يعرضه على الناس فهلك قهراً .

وقيـل في تفسـير حقـده على الشـام أنـه كان أرسـل أحد اقاربه ويـدعى (أطلمش) الى البـلاد الشـاميـة فقبض عليـه (قرا يوسف)

التركماني صاحب تبريز وأرسله إلى الملك الظاهر فاعتقله .

ولما أرسل عسكراً إلى بلاد الشام في سنة ٧٩٠ هجرية كسر الشاميون عسكره فازداد حقداً فلما كانت سنة ٨٠١ هجرية (الموافقة لسنة ١٤٠٠ ميلادية تقريباً) وكان أهل الشام متفرقين والحرب مستعرة بين القيسيين واليمنيين والامراء المماليك يتقاتلون ، ومات الملك الظاهر برقوق وتولى بعده ابنه الناصر فرج ، كانت الحال في بلاد الشام على أشد ما يكون من الفوضى والاضطراب . وقد جاء تيمورلنك يهاجمها ولكنه انكسر أول الأمر ، فأعد عدته لحملة جديدة . وكانت له عيون وجواسيس في بلادنا يخبرونه عن أحوالها ، وكان يستعمل الخدعة فيعلن عن التوجه إلى مكان ليسمع الناس ويحتشدوا فيه بينما هو يقصد مفاجئاً إلى مكان آخر والناس غافلون .

موقعة حلب

وفي سنة ٨٠٢ هجرية وصل تيمورلنك إلى أبواب حلب ، وأرسل إلى نائب الملك فيها رسالة تهديد خشنة ، فكان جواب النائب الحلبي أن أمر بضرب أعناق رسل تيمورلنك ، وحصن مدينته . ورد تيمور بمهاجمة حلب بعد أن أحاطها ونهب ما حولها ، فخرج لقتاله كل أهل حلب حتى النساء والصبيان . ودامت الموقعة أياماً ولكن جيش تيمورلنك كان جراراً فداست حوافر خيله الناس ودخل عسكره المدينة واسرفوا في القتل والسبي والنهب، لا يرعون من احتمى بجامع ولا

يشفقـون على حامـل ولا أم ولد . وجاء في (كنوز الذهب) ان عسكر تيمـور صاروا يأخـذون المـرأة ومعهـا ولـدهـا الصغـير فيلقونه من يدها ويفعلون بها ما لا يليق ذكـره ، فلجأت النسـاء عندئذ الى جامعها ظنا أنـه ينجيهن ، وصـارت المرأة منهن تطلي وجهها بطين أو بشيء حتى لا ترى بشـرتهـا من حسنهـا فيأتي عدو الله اليها ويغسل وجهها ثم يعتدي عليهـا في الجـامـع . . فلما رأي دمـرداش نائب حلب ما يصنـع تيمـور بالنـاس نزل مع بقية النواب وتوجهوا الى تيمور يطلبون الأمان، فأرسل معهم من يستلم القلعة ومافيها من أموال وذخائر وحلي وسلاح وتعجب من كثرته ، ثم خرب القلعة وأحرق المدينة واستمر عسكره شهرا يحرقون القـرى والمـدن ويقطعون الاشجار حتى قيل انه بنى من رؤ وس القتلى عشـرة مآذن دائـرة كل منهـا نحـو عشـرين ذراعاً وارتفاعها مثل ذلك ، والـوجـوه فيهـا بارزة تسفـو عليهـا الـرياح ، والأجساد التي بلا رؤ وس متر وكة في الفلاة تنهشها الوحوش وبلغ القتلى عشرين ألف انسان عدا من هلك تحت أرجل الخيل (١) .

حماة وحمص

ثم سار إلى حماة ففعـل بها مثـل ما فعـل بحلب ، ودخـل حمص وقيل أن أهلها استخدموا ذكاءهم المعروف فاستقبلوه بالدفوف ، وقال لهم : وهبتهـا لخالـد بن الـوليد . ثم سار الى دمشق وهو على عجل من أمره ليبلغها .

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي .

تيمور أمام دمشق

ذكـر ابن تغـري بردي أنـه لما قـدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب ، نودي في النـاس بالـرحيـل من ظاهـرهـا إلى داخـل المدينة ـ فأخذوا في ذلك . وكان قد أتاها اثنان كانا شهدا ما جرى في حلب وفرا منهـا وحـدثـا الدمشقيين عما فعل تيمورلنك ، فهمّ أهل دمشق بالجلاء ولكنهم منعـوا من ذلـك ونـودي فيهم : من سافر نُهب ، فعاد إليها من كان خرج منهـا . وحصنت دمشق ونصبت المنجنيقـات على قلعتهـا والمكاحل (٢) على أسوار المدينة واستعد أهلها للقتال .

وجـاء تيمـور فجعـل عسكـره بين قطنـا وداريـا فملأت الأرض كثـرة . وركب طائفـة منهم لكشف الخـبر فوجدوا السلطان (الناصر) والامـراء قد تهيأوا للقتـال ، وصفت العسـاكـر السلطـانيـة فبرز اليهم التيموريون وصدموهـم صدمة هائلة ، وثبت كل من العسكريين ساعة فكـانت بينهم وقعـة انكسـرت فيهـا ميسـرة السلطان ، وانهزم العسكر الغـزاوي وغـيرهـم إلى ناحيـة حوران وحمـل تيمـور بنفسه حملة عظيمة شديـدة ليأخـذ دمشق فدفعتـه ميمنـة الـدمشقيين بأسنان الرماح حتى أعادوه إلى موقفه ، وعاد كل من العسكرين فنزل بمعسكره . . .

---

(٢) ادوات حربية تلقي الزيت المحمي على المهاجين .

هرب السلطان

وكـان اجتمـع في دمشق خلائق كثـيرة من الحلبيـين والحمـويين والحمصيين وأهل القرى ممن خرج جافلا من تيمور ، فيما عدا العساكر من أهـل دمشق الـذين اصبحوا فوجدوا (الملك الناصر) قد هرب لأنه بلغــه ان جماعتــه في مصـر يسلطنـون غيره . وعـرفـوا أنهم صاروا بلا رئيس ، فأغلقوا أبواب دمشق .

وركبوا اسوار البلد ونادوا بالجهاد ، وقاتلوا جيش تيمور من أعلى السور أشد قتال، وردوه عن السور والخندق، وأسروا جماعة ممن اقتحموا باب دمشق وأخذوا خيولهم وقتلوا منهم نحو ألف ادخلوا رؤوسهم إلى المدينة .

ولمـا أعيى تيمـور أمـر الـدمشقيـين جعل يخادعهم فأرسل يطلب الصلح ، على أن يرسلوا اليـه وفـداً من علماء دمشق ، فنـزل إليه وفد من العلماء كان بين أعضائه المؤرخ المشهور ابن خلدون الذي تصادف وجوده في دمشق ، وقد انزل العلماء اليه بالحبال من على السور في أوعية كالسـلال . ناظـر تيمـورلنـك العلماء وأظهر رغبته في الصلح واحترامه لدمشق وقال: انني ارجــع عن حصــارهــا ولكن على أن تعطــوني (الطقزات) على عادة ملوك المغول. قالواله : وماهي الطقزات؟ قال: تسعـة افـراد من كل شيء لأن (طقـوز) في التركية تعني تسعة . تسعة خيـول وتسـع افـراس ومثلهـا من الأكبـاش والشيـاه والمـاعـز والدنانير والأقمشـة والاطعمـة والآنيـة والاسلحـة والحـلي إلى آخر ما هنالك من الأنواع والأعراض . فقالوا بسيطة قبلنا . وعادوا مسرورين لا يكادون

يصـدقـون انهم سيخلصـون من هذا الملعون ، وجمعوها فبلغت قيمتها مليـون دينـار وذهبـوا يقدمونها ، فقال لهم لا ، هذه في طريقة حسابكم أمـا نحن فنحسبهـاعلى طريقة أخرى ، وحسبهـا لهم فبلغت عشـرة ملايين (١) .

قالـوا قبلنـا ورجعـوا فزادوا في ما جمعـوا والنـاس فرحـون لانهم سيخلصـون . فقـال تيمور بعد أن أخذ الاشياء الثمينة كلها بقي شيء واحد هو أن يدخل عسكري إلى المدينة مئة بعد مئة وبلا سلاح ليصلوا في جامعها ويتبركوا باماكنها المقدسة .

قصة الغدر

قال المفـاوضـون الدمشقيون قبلنا ذلك أيضاً ، وفعلا في أول يوم والنـاس حذرون ويـراقبون من على الأسوار ، جاء مئة فقط بلا سلاح ففتح لهم الباب مواربة ودخلوا إلى دمشق وأغلق وراءهم ، وزاروا بكل أدب ورجعـوا ، وفي الأيـام التـالية صار جند تيمور يدخلون مئة في كل يوم . وأحد الجنود تغالظ فشنقه رئيسه أمام أهل دمشق فاطمأنوا ، ونام الحذر ، وفي اليوم الأخير دخل المئة كالمعتاد ولكنهم فتحوا الباب وقاتلوا عنـده بأسلحـة مخبأة ، وجـاء وراءهم عسكـر تيمـور المتأهبـون ودخلوا دمشق غدراً .

---

(١) - (وهذا يذكر بأسعار العملات المختلفة في ايامنا كما يسعرها المصرف المركزي للسوق الرسمية والحرة والموازية ! . . . .) .

كيف أبيحت دمشق

وأباح تيمور دمشق في اليوم الأول للأمراء في جيشه فأخذوا الجواهر والحلي والأشياء الثمينة ، وكان جندهم يدخلون إلى الدار فيعلقون الرجل من قدميه ورأسه إلى تحت حتى يقر هو وأهله أين خبأ الأموال ، ويقتلون الرجل أمام أطفاله ، والاولاد أمام أهلهم ويعتدون على النساء أمام محارمهم إذا هم لم يدلوا الغزاة على مخابىء الثروة .

ومما جاء في كتاب «عجائب المقدور في أخبار تيمور»(١)«أنه حين ملأ تيمور جراب طمعه من نفائس الأموال حتى صفاها بقطنة أمر بتعذيب الذين سلبهم من الأمراء الكبار فعذبوهم بالماء والملح وسقوهم الرماد والكلس وكووهم بالنار ، واستخرجوا جني الأموال منهم استخراج الزيت بالمعصار ، ثم أطلق عنان الاذن لعسكره بالنهب العام ، والسبي الطام ، والفتك والقتل والاحراق ، والتقييد بالاسر على الاطلاق ، فهجم اولئك الكفرة الفجرة على ذلك أشد الهجوم ، وانقضوا على الناس بالتعذيب والتثريب والتخريب انقضاض النجوم ، واهتزوا وربوا وفتكوا وسبوا ، وصالوا على المسلمين وأهل الذمم صولة الذئاب الضواري على ضواني الغنم ، وفعلوا ما لايليق فعله ولا يجمل ذكره ونقله ، وأسروا المخدرات وكشفوا غطاء المسترات ، واستنزلوا شموس الخدور من أفلاك القصور ، وبدور الجمال من سماء الدلال ، . . . واستمر هذا البلاء العام نحوا من ثلاثة أيام . . . ثم أرسلوا في حرم المدينة شواظا من نار واطلقوها في جامع بني

---

(١) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء لنعمان القساطلي ص ٧٥

أميـة ، وسـاعدتها الريح بهبوبها فتسابقا في محو الآثار ريحا ونارا ، واستمر على ذلــك ليــلا ونهـاراً ، فاحـتر ق ما بقي من النفـائس والنفـوس ، وانمحى بلسـان النـار ما سطـر على لوح وجـود المـدينة من الدروس ، وأمست تلك المغاني لاتسمع فيها لاغية ولا همس ، وأصبحت حصيداً كأن لم تغن بالأمس . . . وبعـد أن أمست النـار تلعب بانحـاء المـدينـة وتهلك ابنيتهـا الحسنـة الجميلة سار تيمـور عنهـا وقـد أجـلا معه بعض الأعيـان وأصحـاب الفضـل وأهـل الصنائع وكل ماهر بفن كالنساجين والخياطين والذين يصنعون السيوف البواتر ممن اشتهرت بهم دمشق . . ومـــذ أجلى تيمــور عملة (أي عمال) السيــوف خسـرت دمشق هذه الصنـاعـة التي اشتهـرت بها ولم ترجـع اليهـا ، ولـولا اضطرار الاهلين للمنسوجات ما رجعت صنعتها للمدينة أيضاً » .

ويقول المؤرخون أيضاً أن جيش تيمور بدأ يترك منهوباته الثقيلة (كالقـدور ومـا صنـع من الحـديـد والنحـاس الغليـظ) على الطريق الـذاهب شمالا فكـانت ترى على أطـرافه . أما المدينة فقد غدت قاعا صفصفا وتفطر رخام الجامع الأموي وسُوِّي سقفه بأرضه ومات من كان في المدينة قتلا أو حرقا الا بضع مئات كانوا فروا إلى البساتين البعيدة .

قلت في المحـاضـرة بعـد أن حكيت الحكـاية بتفصيل أكبر ونقلا وقـراءة عن المـراجـع التـاريخيـة المـوثـوق بها ، ان دمشق تكون اذن قد اغتصبت غدرا وما ركعت حربا ، فهي تستحق أن تقف بشرف بعد كبوتها .

وأضفت ان تاريـخ المـدن قديمهـا وحـديثها حتى الحرب العالمية الثـانيـة عرف ما يفعله الفاتحون بالمدنيين في الأرض المحتلة ، وكان من

جملة ما عاناه الروس أثناء دخول الالمان الى بلادهم ما تعرضت له نساؤهم من مهانة واغتصاب على يد الالمان ، ثم انتهى الادب الحربي في العالم الى اعتبار انه مامن امرأة يمس شرفها إذا هي قسرت على ما لا ترغب ، فالجسد يغسله الصابون والروح وحدها هي التي تدنس . فلئن أصاب دمشق من الغزاة مثل هذا فما من مدينة غيرها سلمت وهذا أيسر الخطب ، أما أفدح الخطب فان يستقبل الغازي ويحتفل به ويدعى وينال ما يريد بالرضا والقبول .

ثم قلت أخيراً : اذا كان من بقي من دمشق بضع مئات كانوا فروا إلى خارجها والباقون قتلوا فلم يكن هناك من (بقايا) الغزاة لدمشق ومن نسلهم بقية . وإذا كان من يتحدثون عن (البندقة) يشير ون إلى تهجين النسل فان سورية ملتقى الحضارات والغزوات منذ آلاف السنين ، والذين جاؤ وا فسرّوا وأقاموا وتزوجوا وانجبوا ، تركوا من الاولاد في عشرات القرون أكثر مما يمكن أن يترك الغصب في ثلاثة أيام ، بآلاف المرات ، وشمل هذا كل طرق الغزوات لا مدينة واحدة .

اذن فليس علينا ان نخجل إذا داعبنا أحد بموضوع هذه (البندقة) ، وأصلا لا يقولها غير الدمشقي للدمشقي الا للضحك . ولكن علينا أن نرد بذكر الحقيقة عن هذا التاريخ المجهول . ثم نضحك فعلا ونعتبرها دعابة لا تصدق علينا مثلما لا تصدق الدعابات عن حمص ، فقد رأيتم ان ذكاء اهلها كان بأن تشاطروا على تيمورلنك فحسبهم معه ، وما يزال أهل حمص يستخدمون سمعتهم الضاحكة

حتى يحققوا من مطالبهم ما يشاؤ ون ، والمدن كالبشر ، لها ناسوت قد يستمد عناصره من مناخها على أن هذا حديث يطول .

معجزة دمشق

وليست معجزة دمشق في برداها ولا في غوطتها بقدر ما هي في شيء آخر ، هو قدرتها على (هضم) الاعداء الذين يتسلطون عليها لفترة من الزمن ، والبقاء رغما منهم . فقد رجعت الى كتاب ابن طولون الصالحي المسمى (اعلام الورى بمن ولي نائبا عن الاتراك بدمشق الشام الكبرى) فرأيت فيه ما يلي : ان أول من ملك دمشق من ملوك الترك بعد الايوبيين هو الملك المظفر قطز الذي حكمها بعد أن هزم هولاكو في عين جالوت ، وقد توفي سنة ٦٥٨ ، وبعده تولى دمشق عدد من الحكام وهاكم اسماءهم على التوالي بلا فاصل بينهم :

قطز ، سنجر الحلبي ، طيبرس الوزيري ، اقوش النجيبي ، ايدمر الظاهري ، سنقرالاشقر ، حسام الدين لاجين ، سنجر الشجاعي ، ايبك الحموي ، غرلو العادلي ، آقوش الأفرم ، قرا سنقر كراي ، آقوش الاشرفي ، تنكز ، الطنبغا ، قطلوبغا ، ايدغمش ، طقزدمر ، يلبغا ، ارغون شاه ايتمش ، ارغون الكاملي ، امير علي ، منجك ، اسندمر ، بيدمر ، طشتمر ، اقطمر ، كمشتبغا ، اشقتمر ، الطنبغا الجوباني ، طرنطاي ، بزلار ، جردمر ، يلبغا الناصري ، يطا ، سودون ، كمشتبغا الخاسكي ، تنبك ، سودون الدوادار ، تغري بردي ، اقبغا ، شيخ الخاصكي ، نوروز ، بيغوت ، قابناي ،

الطنبغا العثماني ، اقباي الدوادار ، تنبك مين ، جقمق الدوادار ، تنبك البجاسي ، سودون الدوادار ، قصروه الظاهري ، اينال الجكمي ، آقبغا التمرازي ، جلبان المؤيدي ، قابناي ، جانم الجركسي ، تنم المحتسب ، برسباي . البجاسي ، يردبك الظاهري ، آزبك ، برقوق ، جاني بك فلقسيس ، قانصوه اليحياوي ، قجماس ، اينال الفقيه . . إلى آخره ولن أكمل .

ومع كل هؤلاء الذين لا تعرف كيف تلفظ اسماءهم ـ ولو كان بعضهم بنى في دمشق وخدمها وقدمها ـ ومع ان بين الحكام رجلا اسمه لولو الارمني وآخر كان زبالا في المدينة ، ومع كل التعسف على العباد فقد بقيت جذور العربية في دمشق حية ، بل ناشطة حتى أقول شرسة ، ومن دمشق هذه انبعثت الحركة العربية من جديد ، ودمشق هذه هي التي يجمع العرب على تسميتها قلب العروبة . أليست معجزة ؟ .

ومن حبي لدمشق تلك التي اسميتها مرة (حبيبتي ذات الزنار الأخضر) انني أحب أن أجلو لكم وجهها في مئة عام ، من خلال السماع والعيان ، وهاكم الحديث ! . .

في دمشق هذه ولدت وقضيت طفولتي وشبابي وعمري كله الا فترات قليلة مما يعرض للانسان من سفر او هجرة مؤقتة . وحتى أصف لكم دمشق ، أظن انني احسن صنعا إذا بدأت بأقدم اصدقائي فيها والذي اعتبره الدمشقي الأول دون ريب ـ بل ربما كانت دمشق على عراقتها أجدر بأن تنتسب هي اليه .

الفصل الثاني

قصة الصديق القديم

فذات يوم وكنت مدعوا للحديث في التلفزيون العربي السوري في برنـامـج المحطـات التلفزيونية ، فاجأت المستمعين بانني عند دخولي المبنى ـ وكـان اسم المـوقـع الـذي فيه مبنى التلفزيون في دمشق يسمى قديما (صدر الباز) ـ رأيت صديقا قديما لي اعرفه منذ فتحت عيني على النــور وعلى الجــمال . وكـان هذا الصـديق فيـما مضى يحب الأزهـار والـرياحين والاشجار يستظل بها و«السيارين» تجمع الناس ، وكان يحيط نفسـه دائـما بالشعـراء والموسيقيين والحسناوات فيسمع الشعر والغناء ، ويشهد الرقص ، وكان من جمال طبعه تكاد تشربه كما نقول في دمشق ، فاذا بي أشهده عند باب المبنى وقد اصبح عجوزا قذرا قميئاً رخوا لا قوة فيـه ولا عزيمـة ، وجهـه كالـح ورائحتـه مزعجة ويجر قدميه متثاقلا ثم سألت المشـاهـدين ، هل تعـرفـون من هو هذا الصـديق القديم الذي اخنى عليـه الـزمـان بعد عز وازدهار ؟ وأجبت انه بردى . واضفت بعد هذه المقـدمـة إننا نحن في دمشق شعب ينتحر صحيا ومناخيا حين يقتل نهرا كان في الماضي من أشهر الانهار بعذوبته فقال فيه البحتري :

العيش في ليـــل داريـا إذا بردا   والـراح تمزجـه بالمـاء من بردى

فأصبـح اليـوم من سوء الاستعـمال وتحويله إلى مصب للنفايات وكثرة الكيماويات يقتل الزرع بدل أن يسمده ، وكم رأيت على سواقيه من أشجار ماتت ومن طين كأنه القطران .

دمشق ابنة بردى

ان دمشق هي البنت البكر لبردى . انتزعها بردى من الصحراء وأحـاطهـا بواحـة نضـرة هي الغوطة التي تسقى ـ بعد المدينة ـ من انهار دمشق السبعة .

فمنـذ الهـامـة ثم بعـدهـا تبـاعـا حتى الشاذروان يبدأ نهر بردى انقسـامـه في نظـام ري عجيب الى نهرين يذهبـان أحـدهما فوق الآخر على يسار الوادي ، وهما ثورا وفوقه يزيد ، والى أربعة أنهار على يمين الـوادي هي بانياس والقنوات والمزاوي والديراني ، ويبقى النهر الأوسط بردى يسير مخترقا المدينة حتى الغوطة ويفيح فيها الخضرة والنضارة .

ولكن ليس هذا كل شيء في نظام المياه . فانها تسيل الى المنازل بقسمـة عادلـة وكـل منـزل كان له نصيبه من الماء الذي يصب في بحرة الدار وينظم ذلك كله مختص اسمه (الشاوي) .

عين الفيجة

ان بردى ينبع من السفح الشرقي لسلسلة جبال لبنان الشرقية ، وينساب في السهل حتى يبلغ موقع التكية حيث أقيم سد لبحيرة صغيرة جداً تنتهي بشلال يولد الكهرباء وهو أول مسقط للمياه استغل في سورية منذ عهد بعيد .

ثم يتابع بردى سيره في الوادي وعلى جنبيه بساتين وقرى كان يقصدها الدمشقيون للنزهة إضافة الى ما تنتجه من أنواع الفواكه والخضار ، حتى يبلغ عين الفيجة .

وهنا في عين الفيجة تبدأ معجزة المياه الحقيقية . فان بردى يبدو صغيراً ولا يزيد على جدول مياه أمام الكمية الضخمة من المياه التي ترفده من عين الفيجة وتزيد في مقدارها على بردى الأصلي وربما أضعافاً .

الأبن والأب

جلست من أيام قريبة في عين الفيجة في مقهى مطل على النبع مباشرة فرأيت الماء يتدفق موجات قوية فيها كل العزم والجبروت ويأتي في صخب وهدير فيغمر بردى الآخر الذي كان يتقدم هادئا بل أقول خجولا من الجانب الأيسر . كان بردى هنا أيضاً كشيخ عجوز هادىء الخطا متجعد القسمات ، وعين الفيجة كأنها فتى في رونق العمر

وعنفوان القوة يأتي فيحتاطه ويمنحه العزم، ولكنه مثل كل الفتيان، فمهما بلغت قوتهم فانهم ينتسبون إلى الأب وهو الذي يعطيهم الاسم . ولو كان هناك مجريان أحدهما لبردى والآخر للفيجة لكانت عين الفيجة هي الأقوى والغالبة وصاحبة الاسم ، ولكن الأصل يحكم ويستأثر . . .

ثم تساءلت وأنا أرمق الماء في شيء من الرهبة وكثير من الأعجاب عن هذه المعجزة التي يصنعها الماء ، فحيثما سار كانت الحياة وكان النماء ، ثم ذكرت قول الحق (وجعلنا من الماء كل شيء حي) الذي هو شعار مؤسسة المياه عندنا وحمدت الله على أننا في بلد يشرب أهله من (الحنفية) أي الصنبور في الدار مباشرة ماء سائغا نظيفا وبارداً طول العام وهذه من مزايا دمشق .

مؤسسة مياه الفيجة

في دراسة ممتازة عن دمشق ، لعلها الأفضل من نوعها ، كتبها الدكتور صفوح خير ونشرتها وزارة الثقافة والارشاد القومي عام ١٩٦٩ بعنوان (دمشق) وجدت ان مياه عين الفيجة وهي مياه شروب ممتازة ، كانت قد جرت إلى دمشق منذ زمن طويل إذ وجدت آثار قناة قديمة محفورة على سفوح الجبال المشرفة على بردى تصل ما بين نبع الفيجة ومنطقة الصالحية في دمشق تشاهد آثارها بوضوح عند رأس نبع العين ، ويعود تاريخها في الغالب الى العهد الروماني أو ما قبله ولكن الاهمال

والـزمـان أديـا إلى تخريب هذه القنـاة وانـدثـار قسم كبـير منها ، إذ أن صيـانتهـا واصلاحها كانت تقوم بهما على الأغلب لجان من أهل المدينة والقرى على طريقة تطهير الانهار المتبعة الان في غوطة دمشق . . .

ثم على أثـر انتشـار وبـاء الكـولـيرا بين سكـان دمشق في أواخر القـرن التـاسـع عشر اتجهت انظار الحكومة في زمن الوالي التركي ناظم باشا الى سحب مياه الفيجة إلى دمشق ، وفعلا تم ذلك في عام ١٩٠٨ بواسطـة قسـاطـل حديـدية قطر /٢٥/ سنتمتر وطولها /٢٣/ كيلومتر وهـذه القسـاطـل تصب في خزاني العفيف (وقـد اهمل الآن) وظبيـان (الــذي يعـلوعن الأول أربعــين مترا ومــا يزال قائـــما حتى تاريــخ الدراسة) ، ومنهما وزعت المياه على دمشق .

وكـان أول توزيعهـا أن انشئت مناهل في الشوارع العامة يستقي منها الناس ماء الشرب مجانا ويعبئونه في الجرار ، وكانت الجرة التي تعبأ فيهـا الميـاه تسمى في أيـامنـا (الحق) بضم الحـاء (١) ، وأصغـر منهـا الابريق ذو الفوهة الصغيرة التي تسمى «الزنبوعة» ، وكان الحق والابريق يصنعـان من الغضـار ويـبردان المـاء فيطيب بهما ، وبعض الجرار كانت تأتينا من جنوب لبنان وهي أكثر بياضاً وأفعل في تبريد الماء من الغضار الـدمشقي المـائـل الى الحمرة . وهناك ما هو أحلى من جرار لبنان وهي الجرار البغدادية التي لها طاسة من فخار فوقها .

ثم قامت في عام /١٩٢٢/ لجنـة وطنيـة برئاسة الوطني المعروف المـرحـوم لطفي الحفـار (الذي تولى الوزارة ورئاستها مرات عديدة فيما

---

(١) - وهي فصيحة فالحق هو الوعاء .

بعد) لاستغلال هذا المرفق الحيوي في البلاد واستطاعت الحصول على امتيـاز اسـالـة ميـاه الفيجـة الى بيـوت دمشق من المفـوض السـامي (ويغـانـد) في أوائـل عام ١٩٢٤ . . ثم اجـرت مناقصة عالمية لتنفيذ اعمال المشروع وفيه انشاء خزان في نبع مياه عين الفيجة لحماية المياه من التلوث وانشـاء قنـاة لسحب المياه ، وانشاء شلال مائي لتوليد الكهرباء في منطقـة الهـامـة وانشـاء خزانـين في دمشق أحـدهما في أرض الـوالي (المهاجرين) وسمي خزان الورود وهو يتسع لالفي متر مكعب والثاني خزان الفواخير وهو يتسع لالف وخمسمائة متر (٢) وانشاء شبكة توزيع في المـدينـة بطـول ٢٥٠ كم تقـريبـاً لتزويد المنازل والمناهل العامة ، وبدأ العمل في نهاية عام ١٩٢٥ وتوقف قليلاً اثناء الثورة ثم انتهى تنفيذه عام ١٩٣٢ .

المناهل العامة

وكـان الـذين اشـتركوا بمياه الفيجة لمنازلهم في أول الأمر قلة من النـاس ويشـترون متر المياه المكعب أو نصف المتر أو ربع المتر فيأتي الى بيتهم عن طريق التمـديـدات ، ولم يكن العداد معروفا ولا مستعملا في البـدايـة . وأذكـر أن تعبئة المياه كانت عمل الاولاد يرسلهم أهلهم الى المنهـل الـذي صار اسمـه (الفيجـة) فنقـول عن الـولـد أنه ذهب الى (الفيجـة) ليعبىء . والميسـورون الـذين عنـدهم خادمـات يرسلون

(٢) ـ الدكتور صفوح خير ـ ص ٥٠٣/ وما يليها .

الخـادمـة الصغـيرة أو (الصـانعـة) كما كان اسمهـا في دمشق الى (الفيجـة) لتعبىء (الحُق) ، وصـارت (الفيجـة) بذلـك ملتقى الصـانعات، ومكان تبادل الاحاديث بينهن كما كانت (العين) في القرية والحكـايـات القـروية وفي قصص المحبة . ولم تكن تخلو مناسبات تعبئة الميـاه من قصص غراميـة في بعض الاحيـان . وللطـرافة (التي جعلت تتبعهـا والحـديث عنهـا واحـدا من أهدافي في هذا الكتاب) أروي لكم هذه القصـة الـواقعية . فقد كان أحد الوجهاء القدامى من عائلة كبيرة ومعـروفـة مغـرمـا بالصـانعـات . وحـدث أن زار قريبا له (وأنا أعرف القـريب ومنـه سمعت الحكـايـة) فجـاءت الصـانعـة تحمـل القهـوة وتقـدمهـا ، ورآها حلوة فاستحسنها وماتمالك أن سألها وهي تعود لتأخذ الفناجين الفارغة : من على أي فيجة تعبئين ياعمو ؟ .

اذن فمؤسسة مياه عين الفيجة فتحت (عيونا) كثيرة في دمشق للماء الطيب وللملتقى اللطيف . وكانت كمية المياه كافية وتفيض لأنها تستخـدم للشـرب فقـط في حين كانت ميـاه بردى التي تسيل في البيوت تستخـدم لبقيـة الاستعمالات من غسيل واستحمام وسواه ، ذلك أن نهر بردى لم يكن قد تلوث بعـد ، وميـاهـه تصـل الى كل بيت عن طريق (الطـالـع) وهـو مدخـل المـاء الى المنزل ، أوعن طريق السواقي التي كانت نظيفـة نوعـا . ثم بدأ التلويث مع الحضـارة ، أي مع المعـامـل والمصـانـع التي تقـام على الانهـار وترسل اليها نفاياتها ومع الكيماويات المستخدمة في البيوت ، وكلها تنتهي فتصب في هذا النهر الكريم .

هذه المناهل حلت مشكلة صحيـة كبـيرة اذ كانت الـزنطارية

وغـيرهـا من الامـراض المستـوطنة في هذه المدينة وفي الغوطة ، بل كان أهـل دمشق قد اعتـادوا بعض الشيء على هذه الامراض المعوية حتى صاروا يتعـايشـون معهـا ولاتقتـل النـاس دائـما في حين أن الفـرنسيين والغـربـاءالـذين يأتـون ويصـابـون بها نتيجة أكل الخضار النيئة تصبح اصـابـاتهم قاتلة ، وكـان هذا شيئا معروفا في دمشق . ومما يشار اليه أن عبـارة (فيجـة) أصبحت تعني بالنسبـة لأهـل دمشق المـاء الشروب ، فحتى اذا كان الـدمشقي في أوروبـا وأراد أن يستفهم عن صلاحية مياه للشرب فإنه يسأل : هل هي فيجة ؟ .

توسيع قناة الفيجة

وقد تم في السنوات الأخيرة توسيع قناة الفيجة بحفر قناة ضخمة أسعفت فيها الآلات الجبارة ، وساعدت في ذلك شركة فرنسية .

ذلك أن مدينة دمشق ازداد عدد سكانها في نصف قرن الى عشرة أضعـافهم واستحـال شرب ماء النهر ، واشتد الضغط على مياه الفيجة لكـل الاستعـمالات ، ولم يعف أهـل هذه المدينة عن استخدام الفيجة حتى لغسل السيارات مما استدعى قيام حملة لترشيد الاستهلاك وتوفير كل قطرة ماء ، بعد أن أصبح ليتر الماء المعبأ في مدينة المياه يباع بسعرليتر البنزين المستورد الممتاز ، أويكاد ، وقد أقامت الدولة كما سيأتي حديث ذلك آبارا احتياطية لتوفير المياه خشية ألا تكفي ذات يوم .

ومما يذكر أن مدخل النفق الجديد لمياه الفيجة يحوي لوحة ضخمة ورائعة صورها الفنان البارع احسان عنتابي الاستاذ في كلية الفنون الجميلة وهذه سنة لو اتبعتها كل المؤسسات ـ وقد بدأت بذلك ـ لصارت بلادنا تحفل بالكثير من آيات الجمال لأن العمران ليس كتلا ضخمة فقط ، وانما هو جمال أيضا وفي الدرجة الاولى ، وسأعود الى حديث ذلك .

الوادي بدأ يسكن

ان وادي بردى الذي كان قرى يقصدها الناس (للسيران) أو للاصطياف أحيانا ، بدأ الان يسكن من قبل أهل المدينة تحت ضغط الحاجة الى السكنى والهجرة المعاكسة من المدينة الى القرية . وقد بدأ هذه السنة استخدام جسر معلق ضخم هائل عند أول جديدة الشيباني وصار الوصول الى الوادي بذلك أسهل وأيسر . وليس بعيدا أن نرى دمشق وصلت ذات يوم الى سهل الزبداني ، لاسيما بعد أن بدأت سكنى المنطقة التي تقع غربها حتى قدسيا بل صارت صحراء الديماس مدينة كاملة عامرة بالمنازل المسبقة الصنع وسواها .

مشروع سد ضخم لبردى

وهنـاك مشـروع ضخم سمعت به وهـو سد على بردى قد يغمـر الوادي من عين الفيجة الى الجديدة ولكنه يحدث بحيرة صناعية هائلة تحفـظ كميـات ضخمـة من المياه تنظم الري والسقاية طول العام ونرجو أن تستطيـع بلادنـا تحقيقه لأن من شأنه أن يغير مناخ دمشق الى أفضل وأن ينظم منطقة سياحية عظيمة فضلا عن مردوده الاقتصادي لأن البشر يقاتلون اليوم من أجل كل نقطة ماء وبدأوا يجلبون مياه البحار أو يجلبون جبال الجليد من المناطق القطبية الجنوبية ليذيبوها ويرتفقوا بها .

الوادي والنزهات

كل الـوادي مكـان للنزهة . نهر لطيف وأشجار حور وصفصاف وبسـاتـين مثمـرة ورطـوبـة وندى . عين الفيجة مقصد الناس . العين الخضراء ، بعد الفيجة على طريق دمشق نبعة لطيفة تجاور النهر ومكان مؤنس (للسيـارين) . قريـة بسيمـة أيضـاً مصيف جميـل وقـد سكنـه الآن كثير من الدمشقيين ويمتد حتى الجديدة . والجديدة فيها مرجة خضراء حلوة الى جانب الطاحون ، والآن تشرف عليها فيلات أنيقة جدا . والهامة مشـرفـة من مرتفـع عال على واد ظليل ممرع ، والى جانبها جمرايا وهي مناظر خلابة وزيتون ليس مثله في كل المنطقة وفيها بحيرة شهيرة باسم بحـرة ورديشـان نسبـة الى الطبيب المعـروف قديـما وهو صاحبها . دمر

كانت فيما مضى أعجوبة الاعاجيب حتى بني فيها معمل الاسمنت فقتل الشجر من حيث أنعش الحجر ، وقد قيل أنه سينقل ولكن الموعد المضروب مضى ولم ينقل . وأذكر في دمر قصر شمعايا وهو مقهى ومطعم على النهر الى أيمن الطريق للذاهب الى دمشق ، وكان في زمانه اسطورة جمال ، واليه كنا نقصد في بداية الثلاثينات حين كنا أولادا نقضي نهار العيد فيه . والى الايسر حديقة البلدية ومقهى عرف عزا لامثيل له . ثم نمشي الى دمشق فنمر بقصر الامير سعيد الجزائري يطل علينا من جوار يزيد وثورا ، حتى نصل الى الشاذروان ودير مران والربوة والنير بين . ولكن قبل أن نصل اليها نجد ضاحية دمر السكنية الجديدة التي تنتصب كتلها الاسمنتية شامخة وتبشر بأن تتحول الى مدينة صغيرة منتظمة وجميلة . .

الشاذروان ومقهى (خود عليك)

يقع الشاذروان بين الحاجزين اللذين يوقفان الناس من أجل أن يمر القطار ملاصقا الجبل بين الاشجار . وكانت توجد على ضفة نهر تورا حافة للنهر طويلة اشتهرت في دمشق باسم قهوة خود عليك (أي خذ عليك أو أوسع لي مكانا) على هذه الحافة يلتقي (وما يزال) - عشرات من محبي النزهة ليصنعوا الشاي ويشربوه على مقربة من الماء ، وهو تقليد شامي أصيل .

كل واحد يذهب إلى هذا المكان تكون معه معدات الشاي

كاملة على دراجته : (ببور) الكاز ، (براد) الشاي أي الابريق ، الابريق الصغير الذي يوضع اعلاه ويخمر فيه الشاي ، وقد يكون هناك سماور ثم الكؤوس وباقي الالة . في أي وقت تمر من هناك تلقاهم ، اولئك الذين يوسع بعضهم لبعض في مقهى خود عليك . مقهى مجاني لطيف ، والناس الجالسون فيه (يتفرعون) أي يخلعون الثياب الخارجية المرهقة فكأنهم في منازلهم ، وينعمون بالرطوبة .

هذا (سيران) صحيح ، وليس ذلك الذي ذهبنا فيه وكنا أربعة : الدكتور صباح قباني ، رجاء النقاش من أدباء مصر ، عبد اللطيف فتحي ، وكاتب هذه السطور ، حين اتجهنا نحو سعسع في جنوبي دمشق . كنا نبحث عن بقعة ظليلة ولو بمقدار ما يستر رأسا أو بالأحرى صلعة من الشمس فلا نجد ، وأوينا على ضفة نهر الاعوج الى بعض العواسج لنشوي لحما ونضحك من سوء اختيارنا . هل يترك الانسان الشاذروان ويذهب إلى حيث لا ظل يحمي ؟ ولم يكن النهر وحده أعوج ، وانما قبله عقل من قاد القافلة وقد نسيت من هو وربما كنت أنا .

فاذا عدنا بعد هذا إلى الشاذروان ، قلنا ان ما بينه وبين الربوة مكان يقع بين تورا ويزيد يسمى النير بين . والنيرب بالسير يانية هو الوادي . وفوق يزيد على سفح الجبل المكان المعروف قديما باسم دير مرّان .

دير مران

كان دير مران فيما مضى محلة عامرة بالسكان ومحلها في السفح الواقع أسفل قبة السيار وأعلى بستان الدواسة ، ويطل منها الانسان على الربوة وحدائقها ذات البهجة التي كان يزرع فيها قديما الزعفران . وقد عرفت بهذا الاسم لوجود دير فيها ذكره أبو الفرج الاصفهاني في الاغاني فقال انه دير على تلعة مشرفة عالية تحتها مروج ومياه حسنة ، ووصفه ابن فضل الله العمري في (مسالك الامصار) فقال هو تل في سفح قاسيون وبناؤه بالجص الابيض وأكثر فرشه بالبلاط الملون . . .

وقال ياقوت مثل ذلك ، وذكره الطبري وابن عساكر وقد اختاره العباسيون مقراً لهم إذ لم يطمئنوا الى سكنى دمشق المدينة فاصطنعوه مكانا لاقامتهم لحصانته وجمال موقعه وطيب هوائه ، ونزل فيه هرون الرشيد وجعله المأمون مقره وأجرى اليه الماء بقناة من قرية منين . وفي عصر المأمون اقيم فيه مرصد فلكي ، ومما قاله فيه أحد الشعراء القدامى الملقب (بالببغاء) .

يا صباحا بدير مران راقا ... هجت منا القلوب والاحداقا
ومشت نسمة تؤمك حتى ... رفعت بالعبير فيك رواقا
واتينا اليك نقطع أرضا ... ملأتنا الى اللقا اشواقا
وصبا قاسيون تنفخ فينا ... سكبت من هبوبها رقراقا
فجلسنا في مجلس مستطاب ... فيه كأس السرور كان دهاقا
ونظرنا من ربوة الشام مرأى ... قلبنا لم يزل له مشتاقا

الربوة و(اذكريني دائماً)

وصف ابن بطوطة الربوة قائلاً هي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها . وهي واد مرتفع (ولذلك سميت بالربوة) عن سطح دمشق ، وآخره فيه صخرة عالية إلى أيسر القادم إلى دمشق اسمها المنشار لأنها تشبه المنشار ، وصارت لها منذ نحو أربعين سنة في ذهن الناس صورة عاطفية رومانسية ، فالداخل إلى دمشق يرى قبل دخوله إليها كتابة تصافح عينيه في أعلى مدخل الربوة إلى اليسار ، وقد كتبت بأحرف كبيرة ودهان لا يزول وكلما غسله المطر يتجدد لمعانه ، وهذه الكتابة من جملتين أولاهما (اذكريني دائماً) والثانية (لا أنساك) .

نسجت أساطير حول كاتب هذه الكلمات ، واجمعت كلها على انها من صنع عاشق مجهول فشلٍ في حبه وقيل انتحر . وقد تحريت الأمر بلطف فعلمت أنه عاشق فعلاً ، ومن ابناء تلك المنطقة وأحب فتاة فلسطينية لم يزوجه أهلها إياها ، ففي ليلة عقد قرانها كتب الكلمتين الأوليين ، وفي ليلة زفافها بعثت إليه بأنها لن تنساه فكتب العبارة الجوابية ، ولكنه لم ينتحر ، ومن يعرفونه يتكتمون حول اسمه ، وهذا أفضل لتبقى القضية خيالا حلواً .

الكلمات سطرت منذ نحو أربعين عاما كما قلت ، وقد يكون كاتبها من جيلي على الأقل فيكون قد جاوز الستين الآن ، وقاربتها تلك المعشوقة الاسطورية التي ألهمت عاشقها ان يخاطر ويصعد إلى هذا المكان العالي ويخط هذه الكلمات .

على كل حال ، ومع ان كلا العاشقين مجهول ، فان هذه الجملة توحي بالكثير من الرقة والحنين .

منتزهات الربوة

والـربـوة لغـة هي المكان العالي ، ولكن الاسم يطلق الآن على الـوادي ، وقـد أقيمت فيهـا مُتنـزهـات بين الأنهر . فعلى نهر (تورا) الـربـوة العـاليـة تحتهـا تمتد جسور أو (تخوت) من خشب يجلس فوقها الـــرواد ، ومن (يزيـــد) فوقهـــا تأتي الميـاه إليهـا شلالات تنثـر المـاء والـرطـوبـة ، وكـذلك الشأن في الضفة الأخرى من الربوة بين الديراني والمزاوي ، ويأتيها الزوار من أهل دمشق ومعهم مآكلهم أو يشترون منها المآكل الشامية المعروفة .

والذين يقصدون الربوة من أجل النزهة و(السيران) كثيرون وفي كل يوم ، فان فيها شيئاً من وصف الجنة التي تجري من تحتها الأنهار .

وقديما قيل انه كان فيها أفران وأسواق ومقاصف وحمامات ومنازل وأمـاكن لأصطيـاف الاغنيـاء وأخرى مجانية للفقراء . ويقول الاثريون أيضـاً ان في اعـلاهـا من ناحيـة الجبل كتابة تدل على قدم العهد وكثرة الابنيـة أمـا في أرض الـربـوة فكانت هناك قرية اسمها النيرب ، وفيها مسـاجـد ومـزارات لبعض الصـالحين ، وقبران يسمى أحدهما العاشق والآخر المعشوق كانا في بستان المادنة ، كما كانت لها أوقاف كثيرة ينفق منهـا على الزائرين والقاصدين ، وتقام فيها مواسم يأتيها عدا الزائرين

الحكـواتيـة والمشعبذون والكركوزاتية وليس هذا مستغربا بالنسبة لموقعها الجميل . وقد قرأت كتابا للرحلات ألفه من يدعى بشيخ الربوة وهو من منشـورات وزارة الثقـافـة ، وهذا دليل على أن هذا المكان الجميل أقام فيـه العلماء كسـواهم ولـه منـزلـة تاريخية مثل ماله منزلة في أيامنا كمكان للأصطياف والنزهات .

معلومات عامة عن بردى والوادي

وقبـل أن انتهي من حديث بردى ووادیـه لا بد من تقـديم بعض المعلومـات المفيـدة عنـه التي أخـذتهـا من الـدراسة المفيدة التي وضعها الـدكتـور صفـوح خير . ان كمية المياه التي يقدمها نبع الفيجة في أيام الجفاف (وهو أقل ما يعطيه) خمسة أمتار مكعبة في الثانية ويتلقى بردى على طول مجراه روافد من ينابيع صغيرة فتكون مياهه في أقصى كميتها عند دخولها إلى دمشق .

ان نبـع بردى يعلو عن سطـح البحر بألف ومئتي متر تقريباً ، ثم يكـون ارتفـاعـه عن البحـر عند الربوة ٦٨٠ متراً تقريباً ، يضاف إليها نحو عشرين لنهر يزيد في قناته المحفورة في الجبل .

أما طريقة توزيع مياه النهر وقسمتها بين فروعه فتكون بأن يوضع في المكـان المطلوب سد من أخشـاب على شكـل ركائز مغروسة في الماء تسمى (الكبـاشـات) وأمـامهـا شوك وبـلان يسمح بمرور الماء ولكن بمنسوب أقل فيذهب القسم الباقي إلى القناة الأعلى .

١ ـ ومما يذكر أن نهر (يزيد) يأخذ ثلاثة أرباع مياه بردى عندما يتفرع عنه عند الهامة ولكنه يعود فيعطي (تورا) وهذا يعطي بردى بعض الماء مما يتدفق منه على الطريق عن طريق الشلالات الصغيرة .

فأما (يزيد) فيروي الصالحية وبساتينها وبساتين حي الاكراد حتى يصل الى القابون وطول رحلته (١٦) كيلومتر ، وهناك يتفرع عنه قسم يذهب إلى قرية حرستا وينتهي فيها . وقناة (يزيد) تعود إلى العهد الروماني .

٢ ـ أما نهر (تورا) وهو أقدم ويعود إلى العهد الآرامي فنصيبه من المياه أقل وهو يروي القسم الأدنى من سفح قاسيون . والجسر الأبيض مارا بمنطقة أبي جرش ، ثم ينزل قسم منه الى الحبوبي والشعلان وسوق ساروجة ، وقسم إلى بستان الكركه وحارة شرف ثم حارة المفتي وجامع يلبغا وكامل سوق ساروجة . ويذهب قسم ثالث إلى الديوانية والقزازين ومسجد الأقصاب وينتهي ببردى .

٣ ـ ويذهب نهر الديراني ، على الضفة اليمنى ليروي داريا ، والمزاوي ويروي القسم الأدنى من المزة .

٤ ـ والقنوات يسير إلى قرب جامعة دمشق فينقسم إلى قسمين أحدهما يروي كفرسوسة والقدم وبعض أحياء دمشق الجنوبية مثل باب سريجة وقبر عاتكة وباب المصلا والميدان ، والثاني يروي الحلبوني والحجاز وحي القنوات حيث يتوزع على /٩١/ طالعا توزعه على البيوت والحمامات والمساجد .

٥ ـ أما بانياس فير وي بقية المدينة .

وكـــل فوائض الأنهـار تعـود فتصب في بردى الـذي يسمى في آخـره (قليط) ويكون غاية في الوساخة وسوء الرائحة .



صل الثالث

المدينة

قبة السيّار

منـذ يفتـح الدمشقي عينه على ما يحيط به ، أينما كان حيه ، إذا نظـر إلى أقصى جبـل قاسيـون مما يحاذي الـربوة وفوق صخرة المنشار ، يلمـح قبـة على أعمـدة معـروفـة لدى الـدمشقيـين بان اسمهـا (قبـة السيـار) . هذه القبـة حيرت المؤرخـين ولكنهم لم يجزمـوا فيـما يبـدو في تاريخهـا . بعضهم نسبهـا إلى (نصـربن سيـار) أحـد القادة القدامى وبعضهم حسب انهـا هي القبـة التي أقـام فيها المأمون مرصده الفلكي (وقـد وردت الاشـارة إليـه قبـل قليـل) وقد تحدثت في أمرها منذ وقت قريب مع العـالم الـدمشقي الشيـخ محمـد أحمـد دهمان فقـال انهـا على الأرجــح من العصـر المملوكي وهي أشبـه بـ(مخفـر) يقيم فيـه العسس ورجـال الحكـومـة ليراقبوا الطريق . ذلك ان الطريق الى لبنان كان يمر قديـما من الجبـل من جانبهـا ، وفي الايام المتأخرة عن ذلك صارت محطة لاستراحة المسافرين إلى لبنان .

كرسي الداية

وكان في المكان الذي توجد فيه محطة البث التلفزيوني اليوم في أعلى قاسيون بناء مهدم لا نعرف تاريخه ، ولكنه كان يظهر للناظر من الأسفل من طرف المدينة كما لو كان سرجاً على متن الجبل كالذي يوضع على ظهور الخيل ، وكان الناس يسمونه (كرسي الداية) تشبيها له بالكرسي الذي تستعمله القابلات ، ثم اندثر الآن .

التبديل في شكل الطبيعة

إلا أن الشيء الذي يجدر ذكره هو أن الآلات الجبارة الحديثة استطاعت أن تشق إلى جانب قبة السيار طريقا واسعة (أوتوستراد) فقد قصمت ظهر الجبل وأكلت منه حتى أحدثت واديا في أعلاه لمرور السيارات ، كما استطاعت هذه الآلات أن تفتح شوارع في قاسيون وبدأ تشجيره في حملة ضخمة توشك أن تغير معالم دمشق فلو عاد إليها من سافر قبل عشرين سنة لأوشك أن يفرك عينيه من الدهشة . كما أن الآلة وتصميم الانسان وعزيمته فتحتا خلف قاسيون طريقا واسعة هي (الطريق المحلقة) التي تدور حول دمشق من أجل ألا تدخلها السيارات الكبيرة الآتية من الشمال إلى الغرب أوبالعكس ، ومثل ذلك فعلت في الجبل المقابل حيث يقام (قصر الشعب) وهو قصر بالغ الفخامة كآبدةمن أوابدالماضي ، وحيث شقت طرقات وشجرت مناطق

وعـرة. ولكن مقـابل ذلك، وكله رائع وعظيم، أتلفت أشجار وبساتين وقطعت انهـار وغطى وجـه دمشق الغبـار وكاد بردى أن يموت ، فيكون الثمن غاليا إلا إذا تداركنا الأمر بالجهد وفق البرامج الموضوعة فيعود إلى دمشق ، حبيبتي ، وجهها المشرق وزنارها الأخضر . . .

نهر يزيد والسباحة

ومن صخـرة (اذكـريني) التي تحدثت عنهـا آنفـا إلى الشـمال ، توجـد على نهر يزيـد مواقـع كانت مقصد ابناء حي المهاجرين وسواهم أحيـانـاً ليمارسوا فيها السباحة ، ومنها الحلالات والمشرح والعريض ، وكانت مسابح مجانية للشباب ومجالات للتريض .

(ساحة الجريد)

وإلى جانبها كانت توجد أرض واسعة جداً لا بناء فيها ولا تحيط بها إلا أشجار الصبار ، وكانت تسمى ساحة الجريد . ذلك أن الفرسان كانـوا يأتـون إليهـا في مواكب من دمشق على خيـل مطهمة تلبس أجمل السـروج والمـراشـح ، وعلى كل لجام منهـا أنـواع من الودع وسواه وكل رسن فيـه ألـوان عديـدة من ألـوان الصـوف بحيث يكـون كل حصـان زينة . أما الفرسان فكانوا يلبسون الثياب العربية الجميلة ويسيرون في موكب فخور عبر طريق الصالحية فالمهاجرين حتى يصلوا ، وتبدأ هناك

مباراة الفروسية الاسبوعية التي تنعقد في الأصيل من كل يوم جمعة ، ويقذف خلالها الفرسان برماح من خشب تسمى الجريد (والواحدة جريدة) ويكون النصر لمن يسبق ومن يغلب ومن يصيب . وكان يتجمع حول ساحة الجريد في كل جمعة خلق كثير جداً من أهالي دمشق ولا سيما من أهالي المهاجرين ، فقد كانت الفرجة تجمع الآلاف منهم ، وكثيرون يأتون هناك في وقت مبكر حاملين مآكل (السيران) فينتشرون في بساتين الربوة ولاسيما البستانان المشهوران باسم (اللوان) و(المادنة) نهارا وفي الأصيل يكملون اليوم السعيد برؤية مباراة الفروسية . على أن ألطف المشاهد في موكب الفرسان كان طفلاً بدأنا نراه وهو ابن خمس سنوات أو نحوها يركب حصاناً وهو لابس الملابس العربية الجميلة ، ويشارك في الموكب وكنا نعرف جميعاً أنه من عائلة (الكلاوي) - المشتهرة بالفروسية . ان ساحة الجريد هذه منذ الخمسينات بدأت تخلو من فرسانها وتقاليدهم ، واليوم فتحت فيها شوارع جديدة تصل المهاجرين بالربوة ، ولم يكن بين هذا الحي والربوة قبل ذلك الا بساتين فيها جسور صغيرة على نهري يزيد وتورا . وإذا نظر المشاهد الآن رأى قصراً ضخماً جداً للضيافة يبنى في هذا الموقع على أجمل طراز عربي ، وهكذا حل العمران مكان الأرض الفارغة التي كانت ملعب الخيل وانتقلت الفروسية إلى نواد خاصة بها يمارس فيها الفرسان من الضباط والشباب الهواة هذه الرياضة الجميلة ولكن في أماكن أخرى من الغوطة وعلى الاسلوب الغربي باجتياز الحواجز لا على الاسلوب العربي التقليدي القائم على المبارزة بالجريد . وياليت تقاليد الفروسية القديمة تعود إلى الحياة من جديد .

حي المهاجرين والتراماواي

وأول الأحياء على سفح جبل قاسيون مما يلي الربوة هو حي المهاجرين . وكان في هذا الحي خط للترام منذ العشرينات ينتهي عند أول ساحة الجريد ، عند القصور المعروفة التي كان أحدها مقرا للملك فيصل والثاني قصراً جمهورياً وكان إلى وقت قريب يستعمل من أجل استقبال السفراء المعتمدين لدى الجمهورية العربية السورية .

ومن يذكر حي المهاجرين لا يمكن إلا أن يذكر التراماواي ، فان بعد هذا الحي عن مركز المدينة وكونه مكاناً للنزهة وسكن أعداد كبيرة من الناس فيه كل ذلك يستدعي مواصلات منتظمة ولم يكن منها في العشرينات سوى التراماواي الكهربائي وعربات الخيل ثم دخلت اعداد قليلة جداً من السيارات لم تجاوز بضع عشرات حتى عام ١٩٤٠ وهي الآن في عام ١٩٨٣ تزيد على ثلاثين الفاً في دمشق وحدها حتى لم يعد للمارة مكان يسيرون فيه .

ففي عام ١٩٠٤ منح امتياز شركة الجر والتنوير وفي ١٩٠٦ بدأ الترام بخطين أحدهما للميدان والثاني للجسر الأبيض ثم توالت الخطوط على مسافات زمنية متباعدة وآخرها خط دوما عام ١٩٣٥ . وكانت شبكة الترام تبدأ من ساحة الشهداء (المرجة) قرب سراي الحكومة . فالخط الأول ورقمه (١) يذهب إلى الميدان والخط الثاني ورقمه (٢) يذهب إلى الجسر الأبيض ويعود . والخط الثالث وهو برقم (٣) يذهب إلى حي الشيخ محي الدين ، والخط الرابع يذهب إلى

المهاجرين وآخر الخطوط (الخامس) يذهب إلى باب توما والقصاع ، ثم استحدث خط يذهب إلى دوما ماراً بجوبر وعربين وزملكا وحرستا فكان خط نزهات منقطع النظير في مردوده الجمالي فضلاً عن خدمته لاعداد كبيرة من المواطنين . هذا ومن أجل ان يميز المواطنون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة بين تراموای خط وتراموي آخر ، كانت لافتة المهاجرين حمراء ، ولافتة الجسر بيضاء والشيخ محي الدين صفراء والميدان خضراء والقصاع وباب توما زرقاء . وقد ذهب الترام مع الأسف بلا مناقشة وبلا قرار سياسي ولا نعرف من أوقفه ، في حين كان ينبغي حفظه والتوسع فيه لأنه الوسيلة الوحيدة للانتقال التي لا تحدث تلويثا في الجو واخطارها أقل من سواها . وذكرياتنا عن الترام فيها كثير من الطرائف ، اذ كان الاولاد يتبارون في القفز اليه ومنه وهو سائر وكان بعضهم يعابث سائقيه فيرخون (السنكة) التي تمده بالكهرباء بأن يشدوا حبلها فتخرج عن التماس بالسلك ، اوكانوا ينتظرون لحظة وصوله إلى آخر الخط حتى يعاونوا في ادارة السنكة من جهة إلى جهة لتبدأ رحلة العودة. ومع ان اجرة الركوب فيه كانت بخسة جداً، ولاتجاوز القرش والقرشين في تلك الأيام، فقد كانت تدور حولها معارك إذا رفعت بمقدار نصف قرش لأن الشركة أجنبية واسمها شركة الجر والتنوير (بلجيكية فرنسية) أي ملعونة الوالدين، ولذلك قد تقوم المظاهرات ضدها ويكسر زجاج الحافلات وتكون زياداتها غالباً بداية لارتفاع المد في الثورة الشعبية المستمرة على الأجنبي وامتيازاته وحكمه.

وقبل ان نغادر ساحة الجريد إلى المهاجرين اذكر ان هذه المنطقة ولاسيما الى الشرق من الساحة المذكورة كانت ملأى بحواكير الصبارة

وحب الآس (الحبـلاس) ولذلك سميت المنطقة بالحواكير ، والصبارة كانت موجودة أيضاً في المزة وكانت حلوة جداً . وشجر الآس تستخدم أغصـانـه في تزيين القبور في المناسبات ، وثمره أبيض مائل إلى الصفرة حلو ومقبض قليلاً ، ويكاد أن يكون انقرض الآن .

جادات حي المهاجرين

وكان حي المهاجرين يمتد إلى السفح من طريق سكة الترام إلى الأعلى ، أما إلى الاسفل منه فكان هناك صف واحد من البيوت ثم البساتين .

وكـانت جادات حي المهـاجـرين ، أي الشـوارع المتـوازية التي تتخلل البيـوت على السفـح أربـع جادات أو خمساً فقط تبعا للموقع في العشرينات ، ثم بنيت السادسة بعد ذلك بزمان . أما الآن فلا استطيع ان اعـد الجـادات اذ صارت البيـوت تعلو وتعلو عشـوائيـاً نتيجة لتكاثر السكـان وضـرورة السكن حتى اشبهها بالمعزاة المتسلقة ، وحتى بلغت الكهف المسمى (الكاف) والمكان المسمى (الأربعين) .

وفي المهـاجـرين هذه وقف الامـبر اطـور غليـوم الالمـاني حين زار دمـشـق في عام ١٨٩٨ وســويت له مصطبــة ما تزال حتى الآن تسمى (مصطبـة الامـبر اطـور) (١) ومكانها معروف والناس اختصروا الاسم حتى أصبح المصطبة فقط ، وابناء المهاجرين يعرفون موقف المصطبة .

---

(١) ـ المسطبة والمصطبة مكان ممهد مرتفع قليلاً يقعد عليه .

وقـد سكن حي المهـاجـرين اتراك وشركس وبخاريون وكريتيون وسواهم ممن قدموا اليها بهجرات مختلفة الاسباب (٢) ، منها الاضطهاد الـذي وقـع على الشـراكس في بلادهم أيـام القيـاصـرة وقيام الحركات الوطنية فيها بقيادة شامل وحاجي مراد ، ومن الأسباب أيضاً الرغبة في السكنى في دمشق مجاورة لامـاكنهـا المقـدسـة إذ كان الاتـراك وسـواهم يتـبركـون بها ويسمـونهـا (الشـام شريف) ، كما ان عائـلات تركية لا تحصى بقيت في سوريـة بعـد رحيـل الحكم الـتركي عام ١٩١٩ وقيـام الحكـومـة العـربيـة الفيصلية لأن مؤ سسيها وعائليها كانوا من الموظفين الاتراك الذين استوطنوا ، وأكثر هؤلاء يقيمون في المهاجرين ويسبغون عليهـا طابعـا مميـزا وكـذلك في سوق ساروجة التي كانت بسكانها وطراز بيـوتهـا ورقيهـا تسمى استـانبـول الصغـيرة . وقد نقل المهاجرون الى (المهـاجـرين)بعضا من طراز الابنية التي ألفوها في بلادهم ومنها منازل سقوفها من القرميد .

اذن فاسم المهـاجـرين جاءهـا من هؤلاء الـذين هاجـروا اليهـا واستـوطنـوا هذه القطعـة من الجبـل ، ثم جاء مهـاجـرون من الألبـان (الأرنـاؤوط) فاستـوطنـوا فيها وفي بستان الديوانية في المنطقة المجاورة لمنطقـة العـدوي الآن ، وقـد اشتهـروا بالتـدين القوي والتعفف والقوة البدنية والروحية ، كما جاء المهـاجـرون من شمال افريقيا فسكنوا حي المغاربة المعروف في السويقة وسكن الامير عبد القادر الجزائري واسرته

---

(٢) ـ أول المهـاجـرين وصلوا من البلقـان عام ١٨٩٠ ثم من الروملي ١٨٩٦ ومن كريت عام ١٩٠٠ .

في حي العمارة ، أما الاكراد فأقدم بكثير وحيهم معروف ويحمل اسمهم ، وأما الارمن فقد تركز أكثرهم في منطقة الزبلطاني شرقي القصاع .

الفواخير والسكة والمدارس

بعد المهاجرين يبدأ حي الفواخير ويسمى كذلك لأن صناع الفخار متركزون فيه لقرب الغضار منهم ، ولما أقمنا في هذا الحي بين ١٩٣٧ و١٩٣٨ كانت فرصة لي لأقف طويلاً أمام صناع الفخار وهم يديرون اقراص الخشب بأرجلهم ويضعون عليها قطعة طين غضارية لا تلبث تحت اصابعهم وأدواتهم البسيطة ان تتحول إلى جرة أو قصعة أو آنية للزهور ، وعرفت كذلك لماذا يقول المثل عن فلان أنه مثل الفاخوري يركب اذن الجرة حيث يريد .

بعد الفواخير يأتي حي السكة ، ثم يأتي حي كان يسكن فيه (المتاولة) وهم فرقة من فرق الشيعة،وقد سكنوا في هذه المنطقة وما يزالون فسميت باسمهم ، ويمتد من العفيف حتى الجبل . وبعده يأتي حي المدارس واشتهر بهذا الاسم لأن فيه مئات المدارس التي أوقفها اصحابها على أهل العلم فيما مضى لتكون أماكن لطلبة العلم . وقد بلغ عددها ثلاثمئة وستين مدرسة فيما ذكرت بعض المصادر التي قرأتها قديماً .

وبالمناسبة فان رسامينا الزيتيين تمرنوا كلهم في بداياتهم على

رسم قبابها وجدرانها . وبعد السكة ، ولا نزال على سفح الجبل ، نصل الى الشركسية (ولا بد أن اسمها أخذ من المقيمين فيها من الشركس قديماً) ، ثم إلى الشيخ محي الدين ، وقد أخذ هذا الاسم من الشيخ محيي الدين بن عربي ، المفكر الاسلامي الفذ وصاحب كتب عديدة في التصوف بينها (الفتوحات المكية) ، فقد دفن في مقام في هذا الحي يحمل اسمه ، وصار الحي كله يحمل هذا الاسم . ومن طرائف ما أذكره عن ذلك ان حماتي وكانت سيدة تركية لطيفة جداً ومؤدبة جداً كما هو شأن السيدات التركيات الراقيات وكانت مثقفة وتملك أجمل خط رأيته لسيدة بالكتابة العربية ـ ركبت مرة الترام فسألها قاطع التذاكر الذي كنا نسميه (الكومسياري) إلي أين يا خانم ، فاجابته : الشيخ محي الدين افندي . فقد صعب عليها ان تذكر اسمه الشيخ (حاف) (١) فقرنته بأرفع لقب يعطيه الاتراك للسلطان وهو الافندي لأن السلطان يخاطب باسم افندينا .

سوق الجمعة ـ أوقاف عجيبة

وأمام جامع الشيخ محي الدين سوق كبير يسمى سوق الجمعة لا يزال حتى الآن يمتلىء خاصة في أيام الجمعة بالباعة من كل صنف ولاسيما باعة الزيتون والخضار والفواكه . وكان هناك بناء يوزع منه كل يوم جمعة (شوربا) أي حساء مصنوع من القمح واللحم من أطيب ما

(١) ـ نقول في دمشق : أكلنا الخبز حاف ، أي وحده بلا ادام معه .

يمكن أن يذاق ، وهـذا التـوزيـع مجاني ويقـدم من جهـة الوقف أو ممن ينـذرون النـذور ، وقـد شهـدت توزيع هذا الحساء بالسطول على من يتـبركـون به وعلى الفقـراء مرات كثـيرة . والاوقـاف المماثلة في دمشق كثـيرة ولا استطيـع ان اجـاوز الوصف الاجمالي إلى ما هو أكثر ، ولكن أقول فقط أن منها ما يطعم ومنها ما ينفق على سكن الناس وعلى اعاشة طلبة العلم ، واغرب وقفين سمعت بهما (وقف القطاط) الذي تطعم من ريعه القطط الشاردة وهي تأتيه بالمئات ومكانه في القيمرية ، ووقف (الـزبـادي) الـذي يعطى من ريعـه ثمن ما يكسره الاولاد والخدم من آنيـة رغـما عنهم إذا ذهبـوا للشراء بها فينقذهـم بذلك من عقوبة الآباء أو الأسيـاد. ولعل من أوقف هذا الوقف كان (أكل قتلة) لم ينسها في صغره لسبب مماثـل فآلى على نفســه أن ينقـذ امثاله ولما أيسر نظم هذا الوقف واجـرى له موارده (٢) ـ وهناك وقف مايزال أثره موجوداً في الصالحية حيث بني جرنـان ، جرن للحبـوب وآخـر للحليب . فيأتي الفـلاحون والبسـاتنـة بزكاة حنطتهم وحليبهم إلى هذين الجرنين ويأتي المحتاجون فيأخذون منهما مجاناً . وتعرف المنطقة الآن باسم جرن الشاويش .

جامع الحنابلة

ثم بعد الشيخ محي الدين تأتي منطقة الحنابلة المستمد اسمها من اتباع المذهب الحنبلي . وقد قرأت في كتاب أخبار الصالحية لابن طولون

(٢) ـ ذكـره العـلامـة محمـد كرد علي في بحثـه عن الاوقاف في الجزء الرابع الطبعة الأولى من كتابه الرائع (خطط الشام) .

ان الصـوالحـة كانـوا جماعـة من الفلسطينيـين من قريـة جماعيـل قرب القـدس يعتنقـون المـذهب الحنبـلي اضطهدوا من الصليبيين ، (ومن يستعرض تاريـخ دمشق على ضوء ما جرى فيهـا يجد أنها مجتمع تراكمي من أقوام حلّت بهم المصـائب ، ومـا سبق ذكـره عن المهاِجرين يؤ كد ذلك . وما جرى ويجري بعد ذلك من تراكم المضطهدين والمطرودين والمهجرين من بلادهم حتى السنـوات الأخـيرة في مدينـة دمشق قد زاد في هذا الطابع زيــادة مشهــودة وأدى إلى تعــديــل جوهـري في تكـوينهـا البشـري الـديمـوغـرافي) . فهـاجـروا إلى دمشق يتقـدمهم شيخ من آل قدامة وسكنـوا أول الأمـر في (بيت لهيـا) في شرقي دمشق المعروفة الآن باسم القصاع ، ثم انتقلوا إلى الجبل وسميت المنطقة بالصالحية على اسمهم لأنهم كانـوا قومـا صالحـين ، وقد بنى الصوالحة هذا البناء الكبير الذي عرف باسم (الحنــابلة) وفيــه جامــع الحنــابلة الــذي له على بابـه (سقـاطـة) تقرع بابه وتدقها من كانت عاقراً وتهتف على ما سمعنا في صغرنا : يا حنبلي حبلني .

طرفة لا ندري مدى صحتها

ومـا تســامع به الناس من طرائف في هذا الصدد عن حمل النساء حقيقة بعد مراجعة بعض الاشخاص ان هؤ لاء وكانوا من الدجالين لا من الحنـابلة الاتقيـاء ، كانـوا يعطون النساء (صوفة) بزعم أنها مقروء عليها والظاهر أنها تكون مضمخة بمواد منوية ، فاذا حملتها المرأة حملت منها ، وقد أورد هذه الحادثة احد اساتذة كلية الطب ضاحكاً على أنها

من أول تجارب التلقيح الاصطناعي ، والله أعلم .

ثم بعـد الحنـابلة ـ لا أتكلم بدقـة جغـرافيـة إذ هنـاك منـاطق وسيطـة ـ يبـدأ حي الأكـراد الـذي يصـل إلى المشـارف التي فيها اليوم مشفى ابن النفيس ، وسمي كذلـك لأن اكثـريـة سكـانـه من الأكـراد المستوطنين قديماً جداً ومن مئات السنين ، وتمتاز بيوتهم القديمة باتساع كبيرة في ساحاتها بينما القسم المسقوف والمسكون صغير نسبياً .

هذا هو الـوصف الاجمـالي للأحيـاء التي على جبـل قاسيون كما كانت . وكـان في هذا الجبـل مكـان يسمى الاربعـين تدور حولـه أسـاطـير ، ومكـان آخـر يسمى (الكاف) أي الكهف وحوله أساطير أيضـاً ، وكنا نقصده متسلقين الجبل بصعوبة حتى نصل اليه ، واعتقد ان البيوت احتاطته الآن أو وصلت إليـه فما ذهبت اليه منذ عشرات السنين .

(الكونة) أو معارك المقاليع

كما اشتهر الجبل بمعارك تدور بين أبناء الأحياء المتجاورة بالمقاليع والمداحات لا لسبب أو لسبب تافه وكانت تسمى (الكونة) . والمقلاع هو حبـل من الصـوف في منتصفه قطعة قماش مستديرة يوضع بها الحجر ثم يدار المقـلاع بعنف وقـوة وبعـد أن يأخـذ التسارع الكبير يفلت أحد طرفي الحبـل فينطلق الحجـر إلى بعيد بسرعة رصاصة وقوتها وهو يؤذي جداً ، أما المداحة فهي أصغر منه ، وكنا ونحن صغار نحيكها بخيطان وكركر صغير عليه مسامير ونستعملها أحياناً في محاولة صيد العصافير ، وكانت معارك المقاليع مخيفة فعلاً .

ولابــد قبـل الانتقـال من هذه المنطقـة إلى سواهـا من المنـاطق الدمشقية من التنويه بأن دمشق القديمة كانت ضمن سورها ، وكانت حواليهـا قرى وأمـاكن مسكـونة منها الربوة والنيرب ودير مران التي سبق ذكـرهـا ، ومنهـا (مقرى) وهي قرية بين يزيد وتورا أسفل حي الأكراد وقرب طاحونة الاشنان ، ومنها (بيت لهيا) التي كانت حيث يوجد اليوم حي القصاع ، ومنها (أرزة) التي هي اليوم تسمى باسم حي الشهداء وفيـه مسجـدهـا القـديم ، ومنهـا (الميطـور) وهي أيضـاً أسفـل حي الأكراد ، ولا يزال بستان هناك يحمل هذا الأسم .

البساتين تتراجع أمام كتل الاسمنت

فاذا نزلنـا هبـوطـاً من الأكراد فان البساتين تمتد حتى الغوطة أي الى القابون وجوبر وفي هذه المنطقة قامت الآن احياء ركن الدين وشمالي المـزرعة والعدوي التي تضم آلاف البنايات ومئات ألوف الأشخاص ، وكلهـا كانت بسـاتـين فيما مضى وأول بيت فيها هو في شارع بغداد إلى جانب معهـد الحـرية (اللايبك) الذي كان أول بيت سكنته كل وزارة الدفاع بعد الجلاء ويتألف من خمس غرف ، وهذا كل شيء .

وكـذلـك من ناحيـة الشيـخ محي الـدين فالى شرقـه البساتين ، وكانت هناك طاحون تسمى الطاحونة الحمراء هي آخر العمران .

ومن ناحيـة الشـركسية والسكة ننزل بطريق طلعة المقدم (حيث يوجـد حمام المقـدم) أوطريق العفيف المتوازيين وفي كليهما شريط ضيق من الابنيـة يجاور طرفي طريق الصـالحيـة ولكن من بعـد بضع عشرات

الأمتار تبدأ البساتين من الشمال والجنوب . أي أن اطراف طريق الصالحية المباشرة كانت عامرة من الجسر الأبيض حتى عرنوس فالشهداء فبوابة الصالحية . أما بعدها فكانت من الجنوب بساتين تمتد حتى الربوة ، ومن الشمال بساتين تمتد حتى برزة والقابون . فمن الجنوب حلت محل هذه البساتين أحياء الروضة وأبو رمانة والمالكي وغربي المالكي والجاحظ فاتصلت المهاجرين بسائر المدينة بعد أن كانت معلقة وحدها وتحتها البساتين ، ومن الشمال حلت محل البساتين أحياء الرئيس والمزرعة وركن الدين والميسات وركن الدين الموحد حتى اتصل العمران بقرية برزة التي صارت حيا من أحياء دمشق ، وبالقابون التي صارت كذلك .

خمسون عاماً قلبت صورة المدينة قلباً كبيراً . ومثل ذلك جرى إلى الشمال من سوق ساروجة فقد كان آخر العمران مكان يسمى (قفا الدور) والآن صار كله عمرانا والشيء نفسه يقال في أحياء الميدان وبساتينها وبساتين الشاغور والقنوات والطبالة والدويلعة والمنطقة الصناعية والمخيمات ، حتى صارت المدينة وقراها المحيطة بها من قدسيا غرباً حتى جرمانا وجوبر وعربين وزملكا وغيرها شرقاً كتلة اسمنتية واحدة . وقد ربحنا من جهة وخسرنا من جهة ولكننا لسنا الآن في مجال التقييم وإنما في مجال الوصف للتبدل الحاصل في دمشق من خمسين عاماً تحت تأثير عوامل كثيرة منها تكاثر السكان العادي ومنها زحف القرية على المدينة ومنها القرب من الجبهة ومنها العدوان الاسرائيلي المتكرر على وطننا الذي قذف بمئات الألوف من الفلسطينيين وأبناء الجولان إلى المدينة المضيافة صاحبة القلب المفتوح . وكدمشقي قديم عتيق

أقـول : أهـلاً بهم ، وسحقاً لأعدائنا الذين سببوا هذا النموغير العادي ولا المنظم ولا المتكافىء مع الامكانات الطبيعية المتوفرة لاسكان صحيح ومنظم ، على أن هذا حديث آخر.

وقـد ترك كل هذا أثـراً ليس في عدد السكان فقط ، وإنما في توزعهم وفي المناخ ، فمن حيث المناخ صارت المدينة فاقدة طراوتها القديمة الآتية من البسـاتـين والخضـار والمياه ، وجفت أكثر الأنهار أو حولت ، وما بقي منها تحول إلى مجار للميـاه المـالحـة ، وصـارت دمشق كما ذكـرت آنفـاً مدينة الجفاف وقلّت في شوارعها الأشجار حتى كادت تنعدم ، ومايُقطع منها أو ينكسر تحت صدمات السيارات أو توسيع الطرقات لايزرع مكانه .

ومن حيث التـوزع خرج سكـان الأحياء الاصليون من احيائهم وصـاروا في أحيـاء مختلطـة لا يكـاد يعرف فيها الجار جاره ولا يوجد فيها كبـير ولا تدبـير ، مما ألقى كاهـل الادارة بجوانبها الاخلاقية والحقوقية وغـيرهـا على عاتق المـوظفـين الـذين لا تربطهم صلات مبـاشرة بمن يخدمون مصالحهم . وهذا يفقد العلاقات الانسانية صفتها الحميمة القديمة .

وسأعود إلى حياة الأحياء وملامحها كرة أخرى .



ـفصل الرابع

بستان الكركه

الحي الـذي ولـدت فيـه يدعى بستان الكركه . قلائل في دمشق من يذكرون هذا الأسم ، وهم من قداماها كبار السن ، وأقل منهم من يعـرفـون سر التسميـة ، ولست أدري هل هي من طائر (الكركي) أم من آلة التقطير التي تسمى الكركه ويستخرجون بواسطتها العطور وماء الـزهـر أو الكحـول . ولكن موقع هذا البستان هو مما يلي سوق ساروجة إلى الغـرب حتى الشـارع المعـروف اليـوم باسم شارع العابد ، ويحيط بشارع بغداد القديم (٢٩ أيار حالياً) حتى عين الكرش ، وقد كانت عين ماء في البستان المجاور تحمل هذا الاسم . ومن ناحية الشمال يصل بستان الكركه إلى (السبع بحرات) .

وكـان يخترق هذا البستـان فرع من نهر تورا يحاذي تمامـاً بيتنـا ، ومنه السواقي المارة في أنحاء مختلفة من البستان وبيوته من بيت إلى بيت حاملة (هدايـا) مما يفلت من أيـدي النسـاء وهن يغسلن الثيـاب أو الخضـار أو الفـواكـه ، أو تكـون (الهدية) الهاربة (بروة) الصابون ، وهي آخر القطع التي لا تكاد تمسكها اليد من (اللوح) المستعمل .

في هذا البستـان أفقت على العشب والـزهـر والخضـار الطازجة والأشجـار المثمـرة التي أشبعت طفـولتي قفـزا ومـرحاً وفمي ثمراً طيباً ، وكـانت فيـه أشجـار مطعمـة بالاجـاص العثماني والمسكاوي والمشمش الحمـوي الفـاخـر والمشمش العجمي واللوزي ، وتـوتـة كبـيرة ما كان أسخـاهـا وأطيبهـا . كما كانت تعقد فيه (السيارين) ومجالس السمر، مما سيأتي حديثه .

وفي هذا البستـان حوش صغـير مسـاحتـه على الأرض أربعون متراً ، تدخـل من بابـه إلى فسحـة مسقوفة فغرفة تسمى المربع ، ومن الفسحـة المسقـوفـة التي هي المطبـخ في الوقت نفسه نصعد بدرج إلى (مشـرقـة) مكشـوفـة فوق الفسحـة المكشوفة ، تطل عليها غرفتان ، واحـدة صدرانيـة فوق المربع ، والثانية مركبة على أعمدة فوق البستان ونسميها (الفرنكة) ، وهذا كل شيء . وفي هذا الحوش تقضت أكثر طفـولتي ، ومـا يزال موجـوداً حتى الآن خلف بيتنـا الذي اسكنه ولكن زالت منه الغرفة التي تركب الطريق .

ثم لما كبرت عائلتنا وكبرنا بنى أبي في البستان بيتا أكبر هو الذي سكناه حتى الآن لأنه كان ورث من جدي قسماً صغيراً من هذا البستان فباع قطعة وبنى بثمنها داراً أخرى.

بوابة الصالحية

وكان بستان الكركه مجاوراً من ناحيته الجنوبية لبوابة الصالحية . وبوابة الصالحية لم تكن كما هي الآن . ولأرسم للقارىء الشاب الذي

لم يعرفها في الماضي صورة عنها وعن امتدادها أقول أنك إذا جئت من المكـان الـذي فيه الآن ساحة يوسف العظمة ومشيت غرباً نحو قاسيون كان على يسارك مكان كل الأبنية الجديدة بناء قديم متصل عال مؤلف من ثلاثة طوابق يعلوه سقف من القرميد الأحمر هو المستشفى العسكري الفرنسي ، وكان يمتد حتى المكان الذي فيه الان سينما الزهراء . ومن بعده نادي ضباط الحامية الفرنسية كما هو باق حتى الآن ، ثم المجلس النيابي - البناء الأساسي - الذي بني في الثلاثينات وأضيف إليه ملحقه في أواخر الاربعينات بعد عدوان عام ١٩٤٥ .

أمـا على يمـين هذا الشـارع فكـانت توجد في العشرينات سينما صيفيـة ثم أصبحت شتـويـة (باسم الامبـير ثم فريـال ثم القاهرة) ، فمطعم للفـرنسيـين اسمـه (الشانوار) أي القطة السوداء فدور لا تزال إحداها حتى الآن موجودة وفيها كان يقيم مصور اسمه (جاك داكسيان) .

جمعية الرفق بالحيوان لا الانسان

وكـان هذا المصـور مولعاً بالموسيقا الكلاسيكية ومن محله سمعتها لأول مرة في حيـاتي وأحببتهـا ، ولكن لم أكن اجرؤ على الوقوف طويلاً أمـام محله لأن لديـه كلبـاً شرسـاً أكبر من حمار . وكان هذا المصور فوق ذلـك كله يمثـل مع بضعـة فرنسيين وفرنسيات جمعية الرفق بالحيوان . فكان كلما رأى متعيشا يمر محملا حماره أو دابته بكثير من الأحمال انتهره وربما اعتدى عليه بالضرب . ورووا لنا في ذلك الحين أنه ضرب متعيشا

لأنــه اثقـل الحمـل في (الشليف) الـذي على ظهـر الحـار ، وأنـزل الحمل . فقال له المتعيش : إذا كنت تظن ان الحمل ثقيل ، فأنا أحمله وبـالفعـل نزل تحت الشليف ورفعـه ومشى به أمام ضحك الناس . ولم يكن يجرؤ واحد على معاكسة هذا المصور لأن زبائنه كانوا من الفرنسيين .

وكتبت مجلة المضحك المبكي حادثاً آخر عن هذه الجمعية في أحد اعدادها الأولى عام ١٩٢٩ / إذ تكلمت عن سيدة فرنسية نحيلة طويلة كانت تقف عنـد (برج الـروس) ترقب الفـلاحين القادمين مع دوابهم وتضرب الانسان شفقة على الحيوان ولا من يحاسبها لأنها فرنسية هي الأخرى .

الدكتور قره كوزيان

ثم كانت بعـد هذا المصـور بقـاليـة أكثر زبائنها من الفرنسيين ، وإلى جانبهـا مدخـل البستـان وفي أولـه دار وعيـادة الدكتور هماياق قره كوزيان ، هذا الانسان القصير البدين البشوش الذي أحببته لانه رعى طفولتي وطفولة بناتي بفنه الطبي حتى قضى في الخمسينات . رحمه الله ما كان ألطفـه وأشـد فهمـه ومقـدرتـه الطبيـة . وكـانت البقالية وعيادة الدكتور كركوزيان مكان البناء الذي يشغله السجل العام للموظفين الآن .

ثم تأتي بعـد مدخـل البستان الدخلة التي ما زالت حتى الآن ، ولكن بيـوتهـا من ناحيـة اليمـين هدمت وصـارت من حجـر ، وبيـوتها اليسرى ما زال بعضها كما كان حتى الآن .

الاطباء القدامى

وعلى ذكر الدكتور قراكوزيان ، كان هناك أطباء قدامى مشاهير اسماؤهم كانت على ألسنة الناس أعرف منهم الدكتور عبد القادر زهرا وعيادته في سوق ساروجة ، والدكتور مصطفى شوقي وهو في البحصة والدكتور ابراهيم الساطي ، وهو اختصاصي بالتوليد ، وكان مفرطاً في السمنة ، وقد كتبت عنه جريدة المضحك المبكي هذه النادرة . فقد كان أحد الأشخاص يركب دراجة ويتعلق بالترام وهذا ممنوع فأوقفه الشرطي لينظم به مخالفة وسأله عن اسمه فقال : ابراهيم الساطي . ولما ابلغت مذكرة الدعوى إلى الدكتور ابراهيم الساطي وكان وزنه أكثر من / ١٣٠ / كيلو غرام ذهب إلى الحاكم وسأله : بالله عليك أنا أركب بسكليت وأتعلق بالترام ؟ أنا حين أريد أن أركب عربة من جانب يوازنني ثلاثة أشخاص من الجانب الآخر . فضحك القاضي وطوى الدعوى .

كما كان هناك الدكتور وردي شان وسيأتي حديثه .

ومن أطباء دمشق القدامى وأحد (عصملي) كان يكتب على لوحته (دوقتور) ذهبت إليه أنا وصديقي مصطفى العشا وكنا تلميذين في التجهيز لنأخذ تقريراً يغيب به مصطفى عن المدرسة . فجعل يفحصه ومصطفى يتظاهر بالتوجع وأنا أتعاطف لألمه وسأله الدوقتور : هل تدوخ ؟ قال مصطفى لا . قال الدكتور : لا يمكن ، هذه الحالة لا بد معها من دوخة - فأنجدته أنا : نعم وقبل قليل داخ بين يدي ولم يشعر . أخذنا التقرير ونحن نضحك ولكن مصطفى حين صار طبيباً لم

يعد أحد يقدر أن يأخذ منه تقريراً كاذباً أو (سخطة) كما نقول في دمشق (وسأعـود إلى حديث مصطفى العشـا مرة أخـرى عنـدمـا أتحدث عن اصدقائي وعن ظرفاء دمشق) .

اتبع الخريطة

وحكـوا لنـا حكـاية عن طبيب يهودي اسمه الزلطة . كان يعطي كل من يقصده شربة خروع لأن المعدة بيت الداء . واحد أضاع حماره فذهب إليه فاعطاه شربة خروع ، ولما أراد أن يرتاح دخل بستاناً فوجد حماره فتحققت النتيجة .

وحدثنا أبو سليمان الجير ودي وهو من الظرفاء أن واحداً قصد إلى الطبيب الـزلطـة فاعطـاه (الشـربة) وكان عيارها قوياً فيما يظهر ، فلما خرج وسـار بضـع عشرات من الامتار أحس بالضرورة فأسرع إلى أول مطاهر . ثم خرج وسار فأحس مرة ثانية بالضرورة فلم يلحق أن يصل إلى حيث يرتـاح ، وبـدأ يزرب من كم الشـروال ـ عفـو الأدب ـ كل بضعـة أمتـار إشـارة . فلما وصـل إلى باب السريجة صادفه واحد خارجاً يتلوى من الألم فسألـه : تعـرف لي أين الحكيم الزلطة ؟ قال الأول وهو يشير إلى علامات الأرض : اتبع الخريطة . . . .

قد يتأنف قارىء من ذكـر قصـة فيهـا مع كل المـداورة في العبارة بعض ما يخرج عن نطـاق الكتـابـة المتعففـة . ولكنني اذكـره بأن كتب الادب العربي التي عاشت لم تتورع عن تسمية الأشياء باسمائها ، ولمن

أراد أن يقـرأ في الأغـاني (المجلد ١٦) أخبـار حمزه بن بيض ونسبـه وطـرائفـه ان يرجـع إليهـا فيرى أنني ما اجـترأت على معشـار ما كان السلف يكتبـون والمسألـة لا تتعلق بقصة واحدة ، وإنما بسياق الكتاب برمتـه فامـا أن يأتي على حد من الصـراحـة والصـدق أو لا يكون كتاباً يصور عصراً .

ومـا قلتـه عن صراحـة الأدب العـربي يصـح أكثـر في الأدب الفـرنجي الحـديث ، وأرجعـوا مثـلاً إلى رواية أرنست همنغواي (لمن تقرع الأجراس) وستشهقون استغراباً من جراة التعابير بل فجاجتها . ومن قال أن الحياة مغسولة بالصابون ؟ .

يوم (دبنّي) السنغالي

أتابع معكم السير في بوابة الصالحية فأقول ، أنه بعدما تقدم من أمـاكن كانت توجـد دار المنـدوبيـة ، حيث يقيم المنـدوب السـامي الفـرنسي ، وبعـدهـا دار أركان الحرب الفرنسية . وكان هذا الجزء من الشـارع محروسـاً بجنـود سنغـاليـين يمنعـون النـاس من السـير على الرصيف ويلقون الرهبة في النفوس . وأذكر انني في صغري سرت دون انتبـاه لانني طفـل ، على الـرصيف أمـام دار المنـدوبيـة فوجدتني أطير مقـذوفـا بي إلى منتصف الشـارع ، فقد حملني العسكري الذي يحرس المندوبية و (دبني) بعيداً . ولست أنسى هذه الحادثة حتى الآن ، ولا الحـادثـة الأخـرى التي أكلت فيهـا كربـاجـاً من سنغـالي بينما أنا صغير

وأمشي مع أبي في سوق ساروجة . كانت هناك مظاهرات ، ودوريات سنغـاليـة تسـير في هذا السوق فصرخ هذا الجندي فجأة: « ديغاجيه » ، DEGAGEZ ، أي ابتعـدوا ، وحـرك كربـاجـه فأصـابني في جبيني وأحسست بمثـل سيـخ النـار . وضغـط أبي على يدي بشـدة وحنـان وأخـذني من حارة جانبيـة هي حارة الورد وفي عينيه دموع العجز والغيظ وفي فمه آيات من القرآن .

مدينة المتنزهات

قلت أن بستـان الكـركـه يجاور بوابـة الصـالحية التي وصفتها من جانب ، فهي إلى جنـوبـه . ومن ناحيـة الغـرب حدوده شارع العـابد المسمى على اسم رئيس الجمهورية الأول في سورية محمد علي العابد . أما من الشرق فكان يخترقه شارع سمي في البداية شارع بغداد وقسمه الأول من ساحـة العظمـة إلى السبـع بحرات كان امتداداً لشارع فؤاد الأول (الذي سمي منذ عام ١٩٥٦ شارع بورسعيد) ، ثم حمل هذا الامتداد منذ /١٩٤٥/ اسم شارع /٢٩/ أيار لما أصاب المنطقة في يوم العدوان الفرنسي في /٢٩/ أيار ١٩٤٥ .

ولم تكن في هذا الشـارع من أولـه حتى السبـع بحـرات هذه البنـايـات الحجـريـة التي نشهـدهـا الآن ، ولكن كانت على جانبيـه متنزهات ومقاه لطيفة صيفية كلها ، وكانت تزين دمشق وتؤنس أهلها حتى عدت عليها كتل الحجر والاسمنت . أول هذه المقاهي من اليمين

كان (اللونابارك) (١) الذي سمي بعد ذلك باسم (الرشيد) . وكان هذا المقهى فسيحاً متسعا وظل في مكانه الى منتصف الاربعينات وكان فيه مسرح صيفي تمثل عليه الروايات وتقدم العروض السينمائية وتقام الحفلات الخطابية من انتخابية وسياسية . وإلى اليسار مقهى آخر صيفي شتوي اسمه مقهى فاروق يملكه ويديره المرحوم حمدي الحمصي ، وفيه بنى سينما شتوية كانت في وقتها الأولى وسميت سينما (الأمير) ، واستخدمت كمسرح أيضاً لمدة طويلة حتى هدمت قبل سنوات . وكانت هناك مقاه أخرى منها مقهى التوتة في آخر الشارع قبل ساحة السبع بحرات ثم يبدأ في اتجاه الشرق من هذه البحرات الشارع الممتد حتى القصاع ، وفيه هو الآخر مقاه صيفية كثيرة - أشهرها وأعلقها بالذاكرة مقهى الزهور، ومقهى ديب الشيخ، ومقهى الأزبكية الذي كنا نذهب فندرس فيه أيام الامتحانات، ونأكل ونلعب الطاولة، ويدخن بعضنا النارجيلة، ثم بعد ذلك كان يوجد ملعب نادي بردى لكرة القدم.

وكانت هذه المنتزهات كلها مطاعم صيفية تقدم اللحوم والمقبلات ولكن لا تقدم المشروبات الروحية التي ينحصر تقديمها بحانات باب توما والقصاع وأشهرها قصر البللور وكان مكانه في القصاع على ضفة النهر ، والآن يشغل قسماً منه فقط مقهى عادي

---

(١) - اذكر انه اقيم فيه أول الثلاثينات معرض للسيارات قدمت فيه أطعمة وأول (سندويش) أكلته في حياتي كان في هذا المعرض حيث أكلنا باعتبارنا أطفال الحي وقبل ذلك كنا نعرف ما اسمه (عروسة) أي طعام ملفوف بالخبز المشروح يعطى للأطفال .

والباقي أخذه الشارع الجديد الذي فتح في المنطقة .

وكـانت دمشق فعـلاً مدينـة الحـدائق والمنتـزهـات ولاسيـما في منطقتنـا . فما الـذي بقي من هذا ؟ لا شيء ، إلا أننا في المدة الأخيرة شهدنا عدداً من المقاهي في الغوطة ولكنها نوع آخر وبعيدة عن المركز .

وكانت دمشق مدينة المياه الدافقة فجفت ، حتى جاء واحد من أبنـائهـا الـبررة الأذكيـاء هو المهنـدس أنـور كامـل ، فأعاد إليها بعض رونقهـا حين اقـترح وخطط ونفذ نوافير المياه في ساحات دمشق ، وكان محافظهـا في ذلـك الـوقت رجـلاً مستنيراً واسع الأفق هو الدكتور ياسين الاسطة وسيأتي حديثه مرة أخرى .

أنور كامل

في هذه المذكرات ، كما رأيتم وكما سترون ، استطرد من موضوع إلى آخر تأتي به الذاكرة ويكون هنا محله . قد يكون هذا عيبا إذا كان الحـديث دراسـة منهجيـة مبـوبـة ، ولكنني في هذه المـذكـرات لست مؤرخـاً وإنـما محدث عما رأى وسمـع ووعى ، وقلمي تقـوده الـذاكرة لا القصـاصـات و(الفيشـات) التي يهيئها الباحث العلمي . وربما كان هذا أقرب إلى النفس .

وأنور كامل الذي جاء وقت الحديث عنه قبل سواه من الرجال ، مهندس تخرج من مصر في الدراسات المائية ، وقد عرفته وهو صغير لأن اباه محمـد يوسف كامـل عمـل نجـاراً مع والـدي ثم تشاركا في معمل نجـارة ، وكـانت تربط أبا أنور بوالدي صلة محبة ووداد . وقد كان أنور

ذكيـاً جداً يتقن السخـريـة ، كما كان مقداماً . مستقيما منتجاً ، وكان حديثـه يفجـر الضحـك العنيف حتى دمـع العـين ، وسـيرتـه الذاتية بمبـالغـاتهـا الكاريكاتورية تضاهي كتابات أكبر الكتاب الساخرين في العالم. ولاأنسى ، ولا أحـد من معـارفـه ينسى كيف أعجبـه صوته وهو شاب فقـرر أن يحترف الغنـاء . وذات يوم سمـع عن مسـابقة للمغنين الهـواة فلبس أحسن ثيـابه وصفف شعره بالغومينا (صمغ الشعر) مثل الفنان رفيق شكري الذي كان يعجبه وذهب إلى الاذاعة .

كانت اللجنـة مؤلفـة من نسيب الاختيار ويحيى السعودي ويحيى الشهـابي فلما رفـع أنـور عقـيرته بأول أغنية رفيق شكري (بالفلا جمال ساري) نظـر الثـلاثـة كل منهم إلى الآخـر ثم قالوا له أحسن نصيحة أخـذهـا ، وهـو أن يعمـل كل شيء إلا أن يكون مغنياً . ويضيف بأسى مصطنع أنهم عرقلوا مستقبله الفني ! . .

أو قصتـه الأخـرى العجيبة عن كلب أزعجه وقطع عليه الطريق في جوبر ، فتحمض له أنور (أي نوى له الشر) وكمن له عند الطاروق (أي طرف السـاقيـة) حتى إذا جاء الكلب يمشي الهوينى ساهياً شب عليـه أنـور يعـوي ويعضـه ـ على حد زعمه ـ فالتـوَق حنك الكلب من الخوف وهرب يصرخ بالمقلوب ! . . .

يروي أنـــور القصـــة هذه وعشـــرات غيرهـا فنكـاد ننفـرط من الضحـك ، وكـان هو الوحيد الذي إذا حضر سهرة سكتنا جميعاً وأمسك بزمام الحديث كل الوقت .

على أنـه كان شديـد البراعة والابتكار في عمله ، وله حدس في اكتشاف المياه عجيب .

ولـذلـك ففي الفترة التي تهيأت فيها البلاد لحرب تشرين ١٩٧٣ كان له دور ضخم جداً في تهيئـة الآبـار الاحتيـاطيـة وخـزانـات الميـاه الاحتيـاطيـة والأفـران وسواها من المنشآت ، وفي تزيين ساحات دمشق بنوافير المياه ، وكلما مررت بساحة منها الآن ذكرته فكأنها تخلد اسمه ، كما كان نائباً عن دمشق ممثلاً للمهندسين في مجلس الشعب .

وقـد تزوج في وقت مبكـر أختي الصغـرى نجوى ، وكان له فضـل بأن شجعهـا على أن تكمـل الـدكتوراه معه في تشيكوسلوفاكيا، وأنجبت له ثلاثـة أولاد أخـذوا من والـديهـا الظرف والذكاء . ثم توفي بسـرطـان معـوي رغم معـالجـة كثيفة وسخية ومشكورة من الدولة التي أرسلتـه إلى باريس ليعـالجـه أحد كبار جراحيها البر وفسور ميركاديه ، ولكن القـــدر كان أقـوى . ولا تزال ترن في اذني نبرتـه حين حدثني من باريس بالتلفـون يستنجـد بي أن آتي لآخـذه إلى دمشق التي أحبها . فقـد أحس إنهـا النهـاية ، وفي /٤٨/ ساعة ذهبت إلى باريس وعدت به . وفي بيتـه المطـل على ملعب العباسيين جلس على الشرفة في يومه الأخير يرى بعينين دامعتين جبل قاسيون ـ وكان ساهم بتشجيره ـ شامخاً باقيـاً في حين يزول النـاس ، وحـين انطفأ في المسـاء كنا حوله نشعر أن مصباحاً من مصابيح دمشق القديمة الباقية قد كُف عن نشر الضياء .

ولم تقصـر الدولة في تكريمه فاطلقت اسمه على مدرسةثانوية ، وكـان موكبـه رسميـاً وشعبيـاً قل نظيره ولاسيما في حرارة العاطفة وبكاء المئـــات من الشخصيـات العلميـة التي شيعتـه بكـاء نابعـاً من حسـرة القلب ، هو الـذي كان لا يترك حسـرة في القلب إلا أزالهـا بالضحـك المتفجر حوله ، رحمه الله .

قصة «السبع بحرات»

ومـا دمنـا في حديث بستـان الكركه وجواره ، أقول أن ما يسمى اليـوم«السبع بحرات»كان فيه سبع بحرات بعضها.فوق بعض ، ولكن تحت قبـة على أربعـة أعمـدة كتب عليهـا بالعـربية والفرنسية (ذكرى الكابتين . . ورجال فرقته الهجانه) . الاسم أعرفه ولكن الناس هدموا هذا النصب التـذكـاري بعد ذهاب فرنسا لأن هذا الكابتن قد قتل وهو يحارب الـوطنيـين فلن اسـاعـد أنا على حفظ اسمه للتاريخ ، فكل من حاربنـا من أعـداء هذه الأمـة الصغـار يجب أن يمحى ذكـره قدر الامكـان ، أمـا الكبـار فيبقى اسمهم في التـاريـخ ولكن مرذولا أمثـال غورو وسراي وغاملان وأوليفا روجيه .

فأمـا الجنـرال غورو فهـو القائد الفرنسي الذي احتل دمشق عام ١٩٢٠ ، وأمـا غامـلان وسـراي فهما اللذان قصفا دمشق عام ١٩٢٥ لثـلاثـة أيـام على التـوالي ، وأمـا أوليفـا روجيـه فهو الجنرال الذي أمر بقصف دمشق عام ١٩٤٥ ليلتين داميتين .

وكان في المكان الذي يحتله المصرف المركزي اليوم بناء من الطين عريض وراء فسحة وكان ثكنة من ثكنات الجيش الفرنسي ، وقد زالت هذه الثكنة هي الأخرى . ومن غرائب الصدف أن من هندس المصرف المركزي كان فرنسياً بارعاً في العمارة ، وهذا دليل واضح على أن في كل أمة من يبني لها ولسواها صروحاً باقية وسمعة طيبة ، ومن يعمل عكس ذلك على تأبيد ذكريات الخراب .

الجبل والغوطة

وكـان حي عين الكـرش جديـداً وفيـه بنـايـات قليلة ، ثم تمتـد البساتين على طرفي شارع بغداد حتى القصاع . وكانت البساتين تمتد كذلك من طريق الصالحية حتى برزة والقابون شمالاً . وقفت منذ فترة قصيرة على جبل قاسيون انظر إلى دمشق ، وكنت دائماً في فتوتي وشبابي أنظر إليها من على هذا الجبل، لأنني كنت أحب «السيارين» الجبلية والرحلات إلى (الأربعين) أو (قبة السيار) ، وقفت أنظر فلم أر إلا كتلا غبراء من الاسمنت حيث كانت الأشجار والخضرة والبساتين المزهرة . وإذا كنا نشجر الجبل اليوم ، وهو شيء محمود بلا شك ، فاننا ما نزال نقطع الشجر من الغوطة ومن شوارع دمشق .

اذكر بابتسام ذلك الأرمني الذي عبر عن غرابة الموقف بقوله : بابا ، شو بساوي انتو ؟ بيقطع شجر كل يوم من غوطة بيزرعه فوق جبل ؟ . .

الجنود السنغاليون

أعود فأقول ان بستان الكركه كان يعتبر آخر العمران مما يلي بوابة الصالحية وإلى الشمال ، ولذلك أيضاً ، ولأن في جانبنا مباشرة دار المندوب السامي الفرنسي ودار أركان الحرب والمستشفى العسكري الفرنسي والمحكمة العسكرية الفرنسية ، فقد كانت بيوت كثيرة في بستان الكركه مأجورة للجنود الفرنسيين والسنغاليين ممن يتولون حراسة

المنشآت سالفة الذكر . ومن العجائب إننا قد اعتدنا على هؤلاء الجنود ، وكانوا بسطاء طيبين في سريرتهم لأنهم هم أنفسهم من المغلوبين على أمرهم سواء أكانوا فرنسيين أم من جنود المستعمرات .

وكانوا يطعمون الصغار مما معهم من خبز خاص بالجنود طيب المذاق أو من قطع الشوكولاته السوداء قليلة السكر ، ثم إذا أمرهم قادتهم أن يطلقوا الرصاص على ابناء دمشق فعلوا دون تردد ولا تمييز بين الكبار والصغار . فقد كانوا جنوداً مطيعين لا حول لهم ولا رأي .

وأذكر واحداً منهم اسمه (بريهمان سانبور) وربما كان مسلما إذ يقرب اسمه من ابراهيم ، وكان لطيفاً وديعاً تنكشف اسنانه البيضاء تحت شفتيه السوداوين ، ولكن إذا ما أحمرت عيناه اخافنا . ومن الفكاهات التي راجت في تلك الأيام جملة نسبت إلى أحد الجنود السنغاليين قالها لأحد السوريين النابهين : موا سيفيلزه توا ، Moi Civiliser To أي بركاكة سنغالية : أنا أمدّن أنت .

جنود المستعمرات

ذكرت السنغاليين قبل سواهم لأنهم كانوا أكثر وضوحاً من سواهم في ذاكرتي وذاكرة الناس ولأشير إلى التضاد بين سواد وجوههم الذي هو من صنع الله و(بياض) قلوبهم كبشر مغلوبين على أمرهم . ولكن لم يكونوا كلهم من السنغال أولاً ، فهم من كل افريقيا السوداء الفرنسية . كما لم يكونوا هم العنصر الوحيد الذي استعان به الفرنسيون على احتلال وطننا وقمعه . كان هناك أيضاً جنود سيقوا من شمال

افـريقيـا من المغاربة الذي يؤلفون فرقة (السباهيين) الجميلة الملابس بالـبرانص والطـرابيش الحمـراء التي كانت تركب الخيـل ، وكـانوا هم أيضاً عنيفين على المتظاهرين تحت الأوامر ، ولوكانت قلوبهم تتقطع ألماً على أبنـاء دمشق التي هي مدينـة مقـدسة عند المغاربة والمشارقة معا .
وكـان هنـاك جنـود الهنـد الصينيـة الـذين كانـوا يخرجون ليلة الهدنة في /١١/ تشـرين الثـاني من كل عام احتفـالاً بنصـر فرنسـا على ألمانيا ، فيطـوفون ، والناس يتفرجون عليهم بتماثيل من الورق الملون تمثل أنواعاً من التنين ، وفيها سن الداخل أنوار ، فكان موكبهم من أجمل المواكب .

سورية علمت الفيتناميين الجرأة

ومـما يذكـر أنني في عام ١٩٥٦ التقيت في مؤتمـر للحقـوقيـين الاسيويين والافريقيين انعقد في دمشق برئيس الوفد الفيتنامي إلى هذا المؤتمـر ، وهــو نائب رئيس بلديــة هانــوي العــاصمـة وأحـد كبـار الشخصيـات السيـاسيـة في الفيتنـام . وقـد قال لي أن سورية كانت قد أعطت سكـان الهنـد الصينيـة ولاوس وكمبـوديا ، مثلاً طيباً عن الجرأة الثورية ، إذ كان هؤلاء الجنود حين يعودون من الخدمة العسكرية إلى بلادهم يقصـون على مواطنيهم قصـة الثـورة السـورية وكيف استطاع الثـوار ان يقـابلوا الحاميات الفرنسية بالبواريد العتيقة والاسلحة الفردية البسيطـة ، وبهـا كانـوا يرعبـون جيشـاً كان يعتـبر في ذلك الوقت أقوى الجيوش البرية في العالم بأسره .

وبالفعل فقد كان آخر مكان يستطيع أن يغامر فيه الجنود الفرنسيون المتجمعون والمسلحون هو السبع بحرات قربنا وجسر تورا في جوار طريق دمشق المباشر ممايلي ساحة العباسيين الآن، أوباب شرقي من جهة الشرق . أما الغوطة فكان لا سبيل لهم إلى دخولها إلا إذا كانوا (حملة) منظمة ، وهذا التعبير أي الحملة كان شائعاً في أيامنا تلك للدلالة على قوة فرنسية مدججة بالأسلحة ومحتمية بالمدرعات لتهاجم قرية من قرى الغوطة القريبة .

الدك في بساتين الغوطة

وكان مما يساعد الثائرين على الصمود في وجه القوات الفرنسية باسلحتها ومعداتها ان بساتين الغوطة كان يفصل كلا منها عن الذي بعده جدار سميك من التراب المرصوص يسمى (الدك) إشارة إلى أنه يصنع عن طريق الرص ، ويبنيه حرفي اسمه (الدكاك) ومنه عائلة اشتهرت بهذا الأسم . وطريقة بناء الدك أن يؤتي بلوحين كبيرين من الخشب (متر بمترين) فيوضعان في المكان المناسب وبينهما مسافة فارغة تملأ بالطين المقوى بالتبن وترص بآلة ثقيلة (كما يصنعون الآن البلوك الاسمنتي ولكن على مقياس أكبر) . وكلما انتهى من (مدماك) صنع الذي فوقه حتى يكون جدار بالارتفاع المطلوب . وكان من تماسك هذا الطين حين يجف ومن سماكته انه لا يثقبه لا الرصاص ولا القنابل الصغيرة ، وقد أقضّ ذلك مضاجع القوات الاستعمارية فكان أول ما فعلته بعد انتهاء الثورة السورية ان ازالت كل

دك في بساتين دمشق والغوطة على الاطلاق .

أما أثناء الثورة فكانت هذه الدكوك هي الواقي من الفرنسيين ، والحائل دون دباباتهم وكان (بواردي) واحد ، أي حامل بارودة ، يستطيع ان يشاغل عشرات الجنود وهو يقفز من بستان إلى بستان ، وكل دك كان بمثابة منعة من منعات هذه الأيام .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن المدينة بأزقتها المتعرجة كانت محرمة على الجنود الفرنسيين واعوان السلطة ، وكانوا لا يجرؤ ون على دخولها أبداً في الليل ، ويحتاطون جداً في النهار ويكونون جماعة يقظة مسلحة . وسأعود إلى هذا في حديث الثورة السورية في الكتاب الثاني إن شاء الله .



الفصل الخامس

حياة الأحياء في دمشق

أول ما يلفت النظر في حياة الأحياء القديمة في دمشق أن هذه الأحياء كانت شبه مغلقة على أهلها، فالناس يعرف بعضهم بعضاً، ويعرفون الولد والصهر والحفيد والنسيب والغريب المار بالصدفة ، والدكاكين التي كانت على الأغلب في مصلبة الحي كان اصحابها ممن يعرفون الناس ومن مر منهم ومن تخلف عن الخروج ويستثنى من ذلك ما كان شارعاً عاماً و« زقاقاً » يوصل إلى حي آخر . وكانت بعض الطرقات الصغيرة التي لا منفذ لها ونسميها (الدخلات) لها أبواب ضخمة من الخارج تغلق الدخلة بكاملها . وهذا الباب الكبير أو (الرتاج) لغة ويسمى (باب خوخة) في اصطلاح الدماشقة مصنوع من الخشب وفي وسطه باب صغير يدخل الناس منه إذا كان الكبير مغلقاً . وقد استدعى ذلك انعدام الأمن في عهود طويلة ماضية . وما يزال بعض هذه الأبواب موجوداً حتى الآن كما في دخلة المفتي المتفرعة من سوق ساروجة .

سر تعرج الأزقة

وشيء آخر يلفت النظر في الأحياء القديمة هو تعرج الأزقة وضيقها أحياناً وهو شيء لفت نظري واستغربته في البداية لأن أهل دمشق يملكون الفكر الهندسي ملكاً تاماً بدليل ان نظام المياه في دمشق عجيب في انه مدوزن بحيث ينساب الماء بالراحة من بيت إلى بيت ولولا ذلك لاختل التوزيع ، كما أن توجيه البيوت نحو القبلة كان يسمح للشمس بأن تدخل إلى صدر الغرف شتاء وذلك لأن مدارها في بلادنا يكون قريباً من الأفق في الشتاء أما في الصيف فلا تدخل الغرف مطلقاً لأن مدارها يكون في سمت السماء وقلبها . فمن يحسن توجيه البيوت ودوزنة المياه لا يعسر عليه أن يجعل الأزقة مستقيمة لوشاء . ولكنني عرفت السر من حديثي مع الكبار في دمشق الذين قالوا لي إن هذا أفضل لسببين : أولهما أمني وبذلك يسهل الدفاع عن الأزقة إذا هوجمت ولا يرى المهاجم الطريق حتى آخره ولا من يكمن له في المنعطف .

أما السبب الثاني فاجتماعي ، لأن النساء يخرجن في النهار من بيت الى البيت المجاور أو المقابل دون أن يراهن أحد لأن الأزقة متعرجة تحجب الرؤ ية من بعيد . وكان من عادة أهل دمشق ان السائر في زقاق ضيق أو حارة يجب أن يعلن عن قدومه بأن يظل يقول بصوت عال : يا الله ، ياستار فتحس به ساكنات البيوت ويغلقن الأبواب .

هذا فضلاً عن أن التعرج يكسر الرتابة وهو شيء معروف ومطلوب جمالياً في عمران المدن الآن .

تعانق البيوت

وكذلك فان البيوت القديمة في دمشق تتعانق من الأعلى ، وإذا اتصل بيت ببيت أوكاد بنوع من الشرفة التي تلاصق الشرفة المقابلة ولكنهما داخلتان في البيتين فان ما تحتهما من طريق يكون مغطى ويسمى في دمشق (السيباط) وهي كلمة مأخوذة من كلمة (ساباط) الفصيحة .

وقد جاء تفسير ذلك التزاحم واستغلال الطرقات في كتاب تاريخ الصالحية لابن طولون حيث قال ان غارات الصليبيين كانت في القرن السادس الهجري قد حملت سكان القرى والأرباض حول دمشق على الخوف والهرب إلى داخل سور دمشق فصار عدد سكانها ضعفي ما كانوا ، فضاقت الأزقة واختفت الرحبات وبرزت الغرف على الطرقات . فلما جاء السلطان محمود بن زنكي الشهير بنور الدين الشهيد في عام ٥٤٩ هجري الموافق لعام ١٣٨٧ ميلادي تقريباً تنفس الناس ارتياحاً وانفرجوا وعادوا يؤسسون خارج السور أحياء جديدة أولها حي العقيبة ، وعاد الناس إلى سكنى بيت لهيا وسطرا ومقرى والنيرب والربوة ، ثم تأسست الصالحية كما سلف الذكر .

ولذلك نرى ان البيوت الكبيرة داخل سور دمشق قليلة جداً وأكثر البيوت صغير جداً ومتلاصق والحارات والأزقة ضيقة مما أعطى دمشق القديمة طابعاً متميزاً فريداً خلده المصورون الزيتيون في كثير من الصور واللوحات .

أما نتائج ذلك التقارب بين البيوت فكان منها تسهيل أعمال الثوار

في الثـورة السـوريـة أيـام الفرنسيين ، إذ أن السطوح المتلاصقة كانت تسمـح باخفاء المطلوبين من السلطة . وكلما بلغ المطلوب سطحا صاح يا الله حتى تخلي له النسـاء الطـريق . أمـا في غير ذلك من الأوقات فلا يصعـد رجـل إلى السطـوح إلا لعمـل ضروري وبعد التنبيه المسبق بيا الله ويـا ستـار ، ولـذلـك كان أهـل دمشق يذمـون (الحميـماتية) أي كشاشي الحمام لأنهم يقفون على السطوح وهذه شبهة تلصص على النساء ! . .

كشاشو الحمام

وأظن المنـاسبـة جاءت للحديث عن كش الحمام في دمشق . أنه هو أيـة أولـع بها الأكـابـر والعـوام على حد سواء ، وهـم يقومون بتر بية الطيـور وتنقيـة أجنـاسها ولها أسماء ـ معروفة تدل على الأصالة والقيمة مثل الأزرق والبر بريسي والأخضر والأبيض والمرقع والحلبي والبغدادي والقـلاب والأبلق بحلسـة والأبلق بخضـرة، وكانوا يربونها ويعتنون بها مدة من الزمن في بيتها المسمى (حضير) ثم يطير ونها بعناية . وكشاش الحمام عنده على سطحه ما يسمى السقلب ، وهو شبه فخ يقلب على الطـير الغـريب الـذي تأتي به المجموعة . وكان لنا ـ وما يزال ـ جار من أفاربنا يكش الحمام فكنت أراه يطلق الكشة فتذهب وتدور وهو يعين لها دوراتهـا في السـماء بواسطة عصا تسمى الكشاشة في آخرها ما يشبه شلة من الخـرق أو القـماش ، ويصفـر لها فتفهم عليـه ، وإذا جاءت كشّـة أخـرى فانـه إذا كانت عنـده طيـور مقتـدرة أمـرهـا بالاشارة فاختلطت

بالكشة الأخرى وقادتها الى مقرها، وسرعان ما يرمي عليها الحمياتي السـقـلب ويقبض على الطـير الغـريب ولا يفكـه عادة إلا بدفـع (الفكاك) أي بمبلغ كبير إذا كان الطير له قيمة . وكنا نشاهد كشات عديدة في سماء دمشق تقترب وتتباعد ، ومنظرها ممتع فعلاً .

ومن الأمـور التي يعـرفهـا من يتتبعـون هذه الهواية أنه حين يريد الكشاش أن يعود بطيوره إما لخوفه من باشق أو من كشاش آخر أو لأي سبب فانـه يخرج أنثى الحـمام ويمسـك بها من قادمتيها فيجعلها تصفق بجانحيها وعندها تراها الطيور وتنزل . ولذلك ففي دمشق يستخدمون في اثنـاء الكـلام صورتـين مستمدتين من هذه الهواية ، فيقال عن فلان أنـه (خلط الكشـة) إذا كان ذهب إلى جماعـة ليتعـرفهـا ويتقـرب إليها وينتفع ، كما يقال عن رجل أنهم (صفقوا له بالطيرة) إذا نادته زوجته فعاد ، أو استخدموا في جذبه انثى .

ولـما كان كشـاش الحـمام لا تقبل شهادته قديماً فقد اعترض أحد الناس في محكمة الجنايات على سماع شاهد بقوله : سيدي هذا كشاش حمام . فالتفت عضو الميمنة إلى الرئيس يقول له همساً : ماذا لو علم ان قضـاتـه كلهم يكشـون ؟ وهذا دليل على أن هذه الهواية أخذت بعض الاحترام أخيراً ، ولكنها عادت فتضاءلت بسبب انتقال الكشاشين الى البنايات الحديثة .

الأحياء وطابعها الخاص

وأعود إلى الحي فأقول أنه وحدة اجتماعية متميزة . لا ريب في أن هناك صفات مشتركة بين أبناء المدينة الواحدة ولكن كل حي له صفات خاصة به ، وأحياناً لهجة خاصة . الميداني كان يقال عنه إن اصبعه ثخينة دليل أنه وازن ويعطي نفسه ثقلاً مبالغاً فيه بينما (تخانة) الشاغوري نزق وحرارة واللهجة التي نسمعها الآن في تمثيليات الإذاعة والتلفزيون هي لهجة أهل الشاغور غالباً فهم يفخمون الرقيق ويقولون وحياة الرصول بدلا من الرسول ، و(قطعة صلاح) بدلا من (سلاح) . وليس مثلهم أهل القيمرية التي يسمونها الهند الصغيرة . وأهل الصالحية ينسبون اليهم الكلام الرخو مثل (السمس) بدلا من الشمس و(الزوزة) بدلا من الجوزة . واذا زرت حي المغاربة فالكلام الجزائري والمغربي يظل بلهجته الحادة السريعة النزقة فيخيل اليك أنك في شوارع فاس ومكناس أوحي القصبة في الجزائر ، وليس ذلك في الكلام فقط وانما في الطباع الحادة السريعة النزقة . والنكتة المشهورة تقول أن رجلا قال لمغربي إنك منظوم وشهم وابن حلال لولا فيك هذه العلة . قال المغربي بحدة : وسنو هيه؟ قال محدثه : هي هيه! ...

وفي المهاجرين كنا نسمع الكلام بالتركي أكثر مما نسمعه بالعربي لكثرة تحدث الناس به . أما الاكراد فحديثهم بالعربية مليء بخفة الدم وهم يرققون الكلام الفخم فيقولون : نبسست بدلا من نبسط ، وتلعه بدلا من طلعة وأنا أحب لهجتهم ، وطباعهم فيها بساطة انسانية محببة وتستطيع أن تأمن مع الكردي انه لن يخاتل أو يخادع واذا صادم

فبسذاجة وبساطة لاتنفيان الذكاء الحاد . والأرمني مثل التركي يخطىء بانتظام شديد في المذكر والمؤ نث فكل مذكر يخاطبه بالتأنيث وكل مؤ نث يخاطبه بالتذكير ، ولايخطىء بهذا الخطأ مرة واحدة لأن اللغة التركية خالية من المذكر والمؤ نث . وكان حديث الارمن بالتركية أكثر منه بالارمنية حتى فتحت المدارس الارمنية وجرى التركيز على هذه اللغة فصار حديث الارمن بالتركية الآن نادرا أو منعدما ، وكان أكثر وجودهم في حي الزبلطاني .

ولهجة أهل القصاع وباب توما مختلفة عن سائر المدينة ، وهي نفسها مزيج من لهجات أهل القرى الذين جاؤ وا فسكنوا دمشق ولاسيما في هذه المنطقة ، كما كان اليهود يمطون آخر الكلمات .

الأحياء والمهن

ولما جاءت هجرات القرية إلى المدينة صرنا نلمح ظاهرة التكتل من أبناء قرية معينة أو حي من الأحياء في مهنة خاصة تجمع أفرادهم . فالخبازون أكثرهم من معلولا وسائقو سيارات الشحن وأصحابها من صيدنايا ، والنحاتون والمعماريون من التل ومنين وكان نجارو الموبيليا وصناع الاعواد الموسيقية والموزاييك أكثرهم من نصارى القصاع ،وأكثر سكان حي الأمين والجورة يعملون في النسيج والنول ، وأكثر الصاغة والنقاشين من اليهود أو المسيحيين،واشتهر اليهود بجمع الملابس القديمة وتجارتها وبمهنة (القنياطي) التي هي تنظيف حفر المياه حيث لا توجد المجاري ولا بد أن الكلمة مشتقة من الاقنية وتنظيفها .

وفي التجـارة نجـد تجارة الحبوب والأغنام في الميدان ، وتجارة مال القبان أي مواد الطعام الأولية والتجارة عموماً في القيمرية .

العائلات والمهن

بالمناسبة وعلى سبيل الاستطراد أقول إن التنظيم الحرفي للعائلة الـدمشقيـة القـديمة كان يجعل المهن تتركز في العائلات فتعمل العائلة كلها في مهنة وتحمل اسمها ، ولذلك لا يشترط أن يكون حاملو الأسم الـواحـد من الأقـارب وتجمعهم المهنـة لا القـرابـة ، فالحفارون الذين يعملون في دفن الموتى اعطوا اسمهم لعائلات الحفار العديدة وقد يكون للاسم مصـدر أخـر من حفـر الخشب مثـلاً ، والقبـاني كان هو المكلف بوزن البضائع بالقبان ذي البيضة اعتماداً على امانته ومنه آل القباني ، وكـانت معظم اسـماء العـائـلات الدمشقية تشير إلى المهن ، فنحن آل القصاب حسن يقال إن جداً لنا اسمه حسن عمل قصابا ، ولا ندري هلْ كان ذلك في القصب أم في اللحم ، ومن الأسماء الشائعة في دمشق الامـام والالشي وهـو السفـير والايتـوني والاراكيلي والاسطة والاسكافي والبستــاني والبسطــاطي والبغــال والبغجــاتي والبنـا والبني والبـواب والبـوابيجي والتتنجي والتنبكجي والترجمان والتوام والجابي والجباصيني والجبـان والجـراح والجـزار والجـزماتي والجلاد والجمال والحائك والحارس والحبـال والحبـوبـاتي والحجـار والحصـري والحطاب والحلاب والحلاق والحلواني والحـمال والحمصـاني والحنـاوي والخبـاز والخـراط والخضـري

والخـولي والخيـاط والخيمي والـداية والدباس والدقاق والدكاك والدلال والـدهـان والـذهبي والـراعي والـرتا والرزاز والرسام والرشاش والرمال والـرهـونجي والـرواس والريس والزبال والزرابيلي والزهوراتي والزيات والساعاتي والساعي والسرايجي والسروجي والسقا والسكاب والسكري والسـلال والسنـان والسمكـري والسوادي والسواس والسيوفي والشاعر والشـالاتي والشاوي والشراباتي والشربتجي والشعار والشعال والشماع والشمسيـاتي والشـوا والشيـخ والصائغ والصاغرجي والصباغ والصبان والصـرمـايـاتي والصنـاديقي والصـواف والصيـاد والصـير في والضـمان والطبـاخ والطبـاع والطبـال والطحـان والطـرابيشي والطـرزي والطيان والعبجي والعتـال والعجـان والعـربجي والعـرقسـوسي والعشا والعطار والعكـام والعـلاف والعلبي والعـواد والغـريـواتي والغرابيلي والغلاييني والغنـام والفـاكهـاني والفتال والفحام والفرا والفران والفطائري والفلاح والفـواخـير ي والفوال والقاوقجي والقباقيبي والقربي والقزاز والقساطلي والقصـــاب والقصـــار والقصـــاص والقصيبـــاتي والقضـماني والقطـان والقيطفاني والقلبقجي والقنواتي والقهوجي والقواص والكاتب والكتبي والكحـال والكسـار والكعيكـاتي والكـلاس والكـوا واللبابيدي واللبان واللحـام والمبيض والمجـركش والمحـايري والمخللاتي والمرادني والمراياتي والمـزايكي والمـزين والمسـالخي والمسـدي والمسكي والمسـوتي والمصـوبن والمصـور والمطـربـازي والمطعم والمعـاليقي والمعصراني والمعلم والمعماري والمقشـاتي والمكـاري والملقي والمنـاديـلي والمنـافيخي والمنجـد والمهندس والنجـار والنحـات والنشـار والنشـواتي والنطفجي والنعـال والنقـاش والنـويـلاتي والهـواويني والـوكيـل ، وسـواهم . فاذا عدت فكأن أهل

دمشق باكثـريتهم عدوا ، وقـد أخـذت هذه الأسـماء من قامـوس الصنـاعـات الـدمشقيـة لجمال الـدين القـاسمي لا من دفـاتـر النفوس والأحوال المدنية ، والنتيجة واحدة .

أسماء بقية العائلات

بقي ان نقـول هنـا إنه بالاضافة إلى الاسماء المستمدة من المهن هنـاك اسـماء اخرى مستمدة من الانتساب إلى بلد معين ، وأسماء ثالثة مستمـدة من اسم الجـد كالاحمـد والعـلي والصـالح ، فعائلات الحلبي والحمـوي والحمصي والـديـري والادلبي والجسري والريحاوي والنبكي واليبرودي والدوماني والتلي والمنيني والصيدناوي والصحناوي والحوراني والقطنـاني والحـرستـاني والـلاذقـاني والجبـلاوي والطرابلسي والبيروتي والصيـداوي والـزحـلاوي واليـافي والقـدسي والصفـدي والمصـري والاسكنـدراني والبغدادي والموصلي وأمثالها معروفة وكل منها يستمد من بلدة هي الأصل والمنبت .

تخصص الأسواق

وأعـود إلى دمشق في العشـرينـات فأقـول إنه توجد فيها أسواق متخصصـة كثيرة بعضهـا يحمـل الاختصـاص في الاسم مثـل سوق الحـدادين شرقي المـرجـة (أول شارع الملك فيصـل الآن) ثم سوق

النحاسين متفرعاً عنه ، ثم سوق السختيان الذي تباع فيه الجلود ، والسروجية حيث تصنع السروج ثم المناخلية ، وسوق الصوف ، وسوق القطن ، والفرايين حيث تصنع الفراء والبزورية حيث تباع البذور وسواها من الحبوب ومواد التموين ، وسوق العطارين ، وسوق الخياطين وسوق التبن حيث تباع الاعلاف ، والجزماتية حيث تصنع الجزم ، وسوق الذراع حيث تباع الأقمشة ومنه فرع يحمل اسماً طريفاً يعرفه الناس هو سوق «تفضلي ياخانم» حيث تباع اللوازم النسوية ولاسيما الأقمشة ، والزرابلية لصنع الزرابيل وتصليح الأحذية والقباقبية حيث تصنع القباقيب ، وسوق السلاح ولابد أنه كان فيما مضى يختص بالأسلحة وسوق الحبالين وسوق الغنم ، وأسواق الصاغة والسكرية والشعارين والشماعين والقوافين حيث تصنع الأحذية وسوق الجمعة الذي يعقد يوم الجمعة وسوق الأحد كذلك . وسوق الخيل .

وهناك أسواق مختصة ولكن بأسماء مختلفة ، فسوق الأروام للسجاد والبسط والحميدية لانواع الثياب ، والمسكية هي سوق الوراقين ، والقوافين للأحذية ، ومدحت باشا للعباءات ، وباب شرقي للنفائس النحاسية والبر وكار ، والقيشاني للوازم الخياطة . وسوق الخجا للملابس الجاهزة وللحقائب . وسوق العتيق للحامة وسوق التبن للدواجن وسوق الهال للخضار (اسم الهال افرنسي) وهكذا . وبعض هذه الأسواق هدم في العام الماضي كسوق الخجا وسوق المسكية .

أبرز أسماء الأحياء

أحياء دمشق منها ما هو داخل السور ومنها ماهو خارجه . داخل السور نجد العمارة الجوانية وباب السلام والقيمرية والنوفرة والبزورية والشاغور والخراب (ويسمى الآن حي الأمين) وسيدي عامود وباب البريد وفروعها . وكانت أبواب دمشق منها ماهو في السور كباب شرقي وباب توما وباب السلام (الذي يعتبر رمزاً لدمشق) وباب العمارة وباب البريد وباب المناخلية والبابين اللذين في القلعة وباب الجابية وباب الحديد وكلها موجودة الا باب الجابية . ومنها مداخل تسمى البوابات كبوابة الله من ناحية الميدان وبوابة الصالحية وباب المصلى وباب الصغير .

وخارج السور نجد الميدان باقسامه وباب السريجة والقنوات وسوق ساروجة والعقيبة والعمارة البرانية والقزازين والقصاع والأكراد والصالحية والمهاجرين .

رحلة في الاحياء . . .

يبدأ حي الميدان من (بوابة الله) التي سميت كذلك لأنها أول الطريق البري إلى الحج ثم بعد ذلك الساحة والقاعة والجزماتية وباب المصلى وإلى جانبه السويقة فزقاق الحطاب فباب الجابية فاذا ذهبنا إلى اليسار صرنا في باب السريجة وقبر عاتكة وزقاق البركة والفحامة وقصر حجاج والشويكة والشريبشات والتعديل والقنوات .

ومن باب الجابية إلى اليمين : سوق الصوف ، فالشاغور حتى باب الحديد ، ثم شرقاً مأذنة الشحم والخراب (حي الأمين) ، فحارة اليهود ، فباب شرقي ، وكل ذلك إلى أيمن الطريق الذاهب إلى باب شرقي .

أما إلى أيسره ابتداء من باب الجابية أيضاً فكان هناك سيدي عامود ولما احترق هذا الحي وكان أغنى الأحياء ، في منتصف العشرينات حين قصفه الفرنسيون بالقنابل أيام الثورة السورية (وسيأتي حديث ذلك في الجزء الثاني من هذه المذكرات) ، صار اسمه المعروف به الآن الحريقة لهذا السبب . ومن بعد الحريقة شمالاً سوق الحميدية وشرقاً الخياطين فالبزورية وسوق الحرير ثم إلى الصواف فالحمراوي ففرن القاري فالخمارات فسفل التلة ، ويوازيها باب البريد فالعمارة الجوانية فالنوفرة فالقيمرية فحمام القاضي وباب توما ، ويوازيها أيضاً إلى الشمال العمارة البرانية فحارة المزابل (التي أبدلوا اسمها دفعة واحدة الى الشرف الأعلى) فباب السلام فالفرايين فباب توما ، ويوازيها شمال شارع الملك فيصل سوق ساروجة فحارة قولي ثم داور آغا فستي زيتونة ثم العقيبة فالسمانة والأعجام وبين القبرين والمعمشة فالعمارة فالقزازين فالقصاع .

وبوابة الصالحية شريط يقود إلى الجسر ثم شمالاً إلى الأكراد ، ومباشرة وغربا إلى الصالحية وجنوباً إلى المهاجرين ، فيكون قد تم رسم المخطط الاساسي للبلدة بعون رب العالمين .

المدينة (أثمان)

وكانوا قديماً قد قسموا المدينة إلى أثمان من قبيل تحديد الحدود الادارية ، وهذه الاثمان هي الميدان وباب السريجة والقنوات ومأذنة الشحم وحي اليهود والقصاع والعمارة وسوق ساروجة ثم أضيف إليها (ثمن) تاسع هو الصالحية ، وهذه الاثمان مقسمة بدورها الى أحياء ، إلا أن كل شيء اختلف الآن . وقد كان لكل حي مختار وإمام وهيئة اختيارية . وقد تغير ذلك ولكن بقي لكل حي مختار يقوم بضبط قيود الناس فيه ، وقد تعاظم دور المختار في السنوات الأخيرة إذ صار يسجل الشاردة والواردة ويعلم عنها القسم المختص ، ولا تقبل معاملة إلا عن طريقه في أغلب الأحيان وعلى كل مواطن الآن أن يكون له عنوان واضح يسجل على بطاقته الشخصية إذ أن تكاثر الناس وتكاثر مشاكلهم استدعى الانتقال إلى تنظيم أدق وأحدث لشؤون المواطنين منذ الولادة حتى الوفاة .

اختيارية المحلة والوجهاء

كانت هيئة اختيارية المحلة ذات نفوذ اجتماعي ، والوجهاء نفوذهم اكبر لأنه غير رسمي . وكل من يقصد وجيه الحي في أمر يناله ، وان قصده في نزاع مع شخص دعا الوجيه الطرفين فحضرا اجباريا والا تنكر لهما الحي بأسره ، وما يحكم به الوجيه ينفذ على الطرفين فوراً وكثيراً ما كان الوجيه يحل النزاع من ماله وهذا هو ثمن الوجاهة .

ومـا كان يمكن لأحـد أن يكـذب أو يماطـل لأن الحي يعرف كل انسان يسيماه . ومن يكذب أو يأكل الحق أو يماطل فيه كان الحي يقاطعه فالسمان لا يبيعه والجيران لا يحيونه ولا يزوجه أحد ولا يتزوج من عنده أحـد . ولـذك ففكـرة الحق كانت مدعومة بالضغط الاجتماعي والحس الاجتـماعي الـذي يعـرف من المحسن ومن المسيء ولاحـاجـة به إلى شهـود ولا إلى قانون البينات .

لا نحلف لا صادقون ولا كاذبون

ومن المعروف في تلك الأيام أن الناس كانت تأبى حلف الايمان في المحـاكم إذا دار النـزاع حول الحق ، وكـانت الكلمـة الشـائعة التي سمعتها مئات المرات من الناس في أوائل عهدي بالمحاماة قولهم نحن لا نحلف (لاصـادقـون ولا كاذبون) ومن دعي إلى حلف اليمين اشتراه غالبـاً بأن يدفـع ما يطلب منـه ولـو كان غير مستحق أو غير صحيـح ، فكيف به إذا كان حقاً وصحيحاً .

محاكم تلك الأيام

ولا تكتمـل الصـورة إلا إذا ذكـرنـا نبـذة عن التكوين القضائي القـديم . فقـد كان لدينا إلى جانب القضاء الجزائي والقضاء الشرعي قضـــاء مدني ولكن تسـوده أحكـام (المجلة) وهي مجمـوعـة الاحكـام العـــدليـــة التي وضعت أيـام الاتـراك ولخصت فيهـا قواعـد التعـامـل

والتقاضي بالاستناد إلى القول الراجح في المذهب الحنفي وهو مذهب الدولة . وقد ظلت مجلة الاحكام العدلية هي المطبقة حتى عام ١٩٤٩ ، وقد درستها في معهد الحقوق حيث كان تخرجي عام ١٩٤٥ . ولما صدر القانون المدني أيام حسني الزعيم الغيت المجلة ولم يعد يصح الرجوع إليها وإلى أحكامها إلا حيث لا يوجد نص في القانون المدني . ومع ذلك فمن المفيد الحديث عنها وعن التنظيم القضائي في تلك الأيام .

ان مجلة الاحكام العدلية تبدأ بمبادىء عامة مقننة في مئة مادة تتضمن القواعد الكلية في الشريعة ومثالها :

(الامور بمقاصدها يعني ان الحكم الذي يترتب على أمر يكون على مقتضى ما هو المقصود من الأمر) .

(العبرة في العقود للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني ولذا يجري حكم الرهن في البيع بالوفاء) .

(اليقين لا يزول بالشك) . (القديم يترك على قدمه) .
(الضرر لا يكون قديماً) ـ (الأصل بقاء ما كان على ما كان) .
(الأصل براءة الذمة فاذا أتلف رجل مال آخر واختلفا في مقداره يكون القول للمتلف والبينة على صاحب المال لاثبات الزيادة) . إلى آخر المواد ثم تبدأ الفصول كالبيع والرهن والاجارة والعارية والوديعة والهبة والغصب وغيرها من المسائل وبعضها قننه القانون المدني وبعضها الآخر الغاه كحق الشفعة وهو اعطاء القريب رجحاناً على الغريب في بعض الأمور ، وكذلك ترجيح الجار على سواه .

وكان من قواعد الاثبات أن الشاهد يجب أن يقول (أشهد)

بالفصحى أي بضم الـدال وإلا لا تقبـل شهـادتـه فلا يقبل منه قوله أنا أعرف أو أنا رأيت أوسوى ذلك . وفيما يتعلق بالشهادة على غائب غير موجود في مجلس الحكم يجب أن يسمى أباه وجده ، وعن عقار أن يبين حدوده . أي كانت هناك شروط شكلية قوية وصعبة للاثبات ، كما انه حين يقـدم شاهـد يجب أن يكـون (عدلا) أي أن تكون حسناته غالبة على سيئـاتـه ، ولـذلـك فلا تقبـل شهادة من اعتاد حالا أوحركة تخل بالنـامـوس والمرؤ ة كالرقاص والمسخرة والمعروفين بالكذب ، ولذلك كما سبق القـول كان النـاس يعـترضـون على شهادة كشاشي الحمام لشبهة التلصص على النسـاء وشهـادة من يأكـل بالطـريق . وكـانت المحاكم تقضي وقتا في الاعتراض على عدالة الشهود وفي سماع من يزكيهم ممن يعـرفهم . فالعسكـري يزكيـه قائده وطالب العلم يزكيه معلمه والتاجر اقـرانـه من المعـروفـين ورؤ سـاء الحرف يزكون ابناء حرفتهم ، والتزكية تكـون بالسؤ ال عنهم سراً بواسطـة ظرف مختـوم يرسـل إلى من يسألهم الحـاكم فيكتبـون تحت اسمـه : عدل ومقبـول الشهادة أويكتبون ليس عدلا ويعيـدونهـا بظـرف مختـوم . ولا يقبـل الحاكم شهادة من جرحت عدالته أوكان الجواب بشأنه : مجهول الحال ، أو : الله أعلم ، أوعاد السؤ ال بلا جواب .

وقـد تكـون التـزكيـة علانيـة في المحكمـة . وللحـاكم في حال الشـاهـد الـذي يعـرف عدالتـه أن يقبل شهادته مرة أخرى ضمن ستة أشهر من الأولى دون تزكية . أما قانوننا الحالي فقد أزال كل هذه القيود ولكن أبقى الطعن في الشهادة عند ثبوت العداوة أو القرابة المانعة فقط .

طنبورة أبو سمو

ومما يحكى عن طرق الاثبات وتزكية الشهود أن رجلاً معروفاً باسم (أبو سمو) وكان من أهل الطرب ويعزف على الطنبورة كان في سهرة ذات ليلة فأثقل الشراب ولما أفاق في الصباح افتقد طنبورته فلم يجدها . وفي أحد الأيام بينما كان سائراً في سوق الأروام وجد الطنبورة (وهي شبه البزق ولكن ذراعها أطول) معلقة في أحد الدكاكين ، فتمسك بها وبتلابيب البائع الذي أنكر عائديتها لمدعيها ، فكان لابد ان (يتشارعا) أي يحتكما إلى الشرع أو المحكمة . وعندما سأل القاضي المدعى (أبو سمو) عن بينته وهل عنده شهود ؟ قال نعم شاهدان وجئت بهما . وتقدم اثنان إلى أمام الحاكم أحدهما سكران (طينة) كما نقول في دمشق ومن مشاهير السكارى ، والثاني حشاش منطفىء ومعروف بأنه شيخ الحشاشين . نظر القاضي إلى الشاهدين ثم التفت إلى أبو سمو وقال له : أما رأيت (أنظم) من هذين ؟ أجابه أبو سمو على الفور : ومن تريد أن يشهد على طنبورتي ؟ الشيخ بدر الدين ؟ ! . .

وكان الشيخ بدر الدين كبير المحدثين في دار الحديث في دمشق ! . .

أسر تحتل القضاء

ولما كانت القواعد الشرعية هي التي تسود في المحاكم كما بينت فقد كان القضاء يتولاه بالرجحان أبناء الأسر التي اشتهرت بالعلم الشرعي

ولـذلـك ، وحتى الآن من بقـايـا العهـد المـذكـور نرى ان كثير ين من القضـاة يكـونـون من هذه العـائلات كآل الاسطواني والغزي وعابدين والكيـلاني والحمـزاوي وسلطـان والامـام وغيرهم . وفي أيامي وأنا من المتأخـرين في هذا الصـدد أعـرف ثلاثة قضاة قدامى من آل الغزي هم نبيـه الغـزي وماجد الغزي والمرحوم نوري الغزي ، ومن آل الاسطواني ثلاثـة هم الشيـخ عبـد المحسن والشيـخ عبـد الـرؤوف والاستـاذ أبـو الخير الاسطـواني وقـد تقـاعـد هذه السنـة ، ومن ال عابـدين الشيـخ مرشد عابـدين وقـد تقـاعد ، والاستاذان محمد عابدين (المحامي الآن) وأبو الخير عابدين رئيس الهيئة التفتيشية في وزارة العدل فضلاً عن السابقين ومن آل الكيلاني مظهر الكيلاني وقـد توفي وأنس الكيلاني وهو مستشار في محكمـة النقض ومن آل الحمـزاوي المـرحـوم عارف حمزة والاستـاذ النقيب والـرئيس السـابق لمحكمة النقض ابراهيم الحمزاوي ، ومن آل سلطـان عبـد الـرؤوف وعبد القادر ومن آل الامام زهدي الامام وغيث الامـام وكلهم عالم وفـاضـل ونـابـه وأجاد القضاء . واتكلم عن دمشق وحدها ولكن في اعتقادي ان ذلك صحيح في المدن الأخرى.

قصور العدل

وأعني الأمكنـة التي يزهـو بها العـدل ويقضى به ولا أعني قصوره بمعنى التقصـير ، وقـد شهـدتهـا في المـاضي في دار كبيرة بشارع (بور سعيـد) كما يسمى اليـوم ، ثم في ساحـة الشهـداء أي المـرجة ، ثم في القنـوات وبنـايـة العـابد ، وأخيراً في قصر العدل الذي أقيم مكان بناء

(المشـــير يـــة) الـــذي احـتر ق في الأربعينـات ، قرب مدخـل سوق الحميدية ويشرع الان ببناء قصر اكبر في اوتوستراد المزة .

التعاضد في الحي

أعـود إلى حيـاة الحي فاقـول نعم وكـان الجار يبحث عن أحوال جاره والقـريب عن قريبـه . ومن المألـوف في الأفراح والأتراح على حد سواء أن صاحب (اللازمة) كما يسمون الاحتفالات الالزامية التي يأمر بها العرف كان لا يتكلف كثيراً . أذكر أن أبي حين حج للمرة الأولى في أول الثـلاثينـات ذهبت إلى بير وت واستقبلتـه وكان في الكرنتينا أي في المحجـر الـذي يضعـون فيه الحجاج القادمين بالبواخر خشية أن يكونوا يحملون معهم بعض الأمراض ، فلما خرج وتعانقنا وأنا في الثانية عشرة لا أكثـر ، اشـتر ى لي قرطا من الموز وركبنا القطار عائدين إلى دمشق . في الطـريق أكلت أكثـر من ربـع القرط ولما وصلنا إلى الدار ـ وهنا بيت القصيـد ـ وجـدنـا في انتظـارنا من هدايا الجوار كيس أرز (١٠٠ كيلو) وكيس برغـل وتنكـة سمن عربي وخـروفـاً بقرنين ، فأولمنا أسبوعاً لكل الأقـربـاء والضيـوف على حسـاب الهدايا ، وبطبيعة الحال رد أبي هذا (النقوط) حين جاءت المناسبة وصارت عند من أهدونا (لازمة) هم الآخرين .

وكان هذا التعاضد يتجلى في (المساكبة) بين الجيران في الطعام ولاسيـما في رمضـان والمناسبات المماثلة . فالاقربون والجيران عند المساء

وقبـل مدفـع الاقطـار كانـوا يسكبـون صحـونـا من (رأس العرمة) في طبختهم الجيدة ليرسلوها إلى الاقارب والجيران ويتلقون منهم سكبات مماثلة فيكـون الجـود بالأجـود وليس فقط بالموجود ، ويحس الناس بأنهم يسكنــون بين النــاس لا في (الشــول) وهـو أمـر نفتقـده ـ من حيث الاحســاس لا سواه ـ في الاحيـاء الجـديـدة وحتى القديمة التي اختلط الأمر فيها جميعاً فلم يعد يعرف الجار جاره .

احتفالات الحي

وكـان الحي يشكـل وحـدة في الاحتفالات ولاسيما المولد النبوي الذي كان المناسبة الكبرى وبعده عيد الفطر والاضحى ، وغيرهما من الأيـام . فأهـل الحي يزينون المصلبة والسوق بالسجاد العجمي الفاخر يستخـرجـونـه من البيـوت ، وبـاغصـان الحور والصفصاف والدلب ـ ويضعـون الاعـلام وصـور الشباب والرجال بشواربهم المعقوفة ولباسهم العـربي وهم يرتـدون جنـادات الفشـك (أي الاحزمة التي صف فيها رصــاص البنـادق) وعلى ركبتهم البـارودة وفي خصـرهم المسـدس أو الاثنـان والخناجر وكل مظاهر العنترية . وكان الكبار لهم صورهم أيضاً بلحــاهم المهيبـة البيضـاء وعـماماتهم الاغبـاني أو سواهـا . ثم تصف الكــراسي والكنبـات، وتـرش الأرض بالميـاه، ويصطف الشبــان على موعـد في استقبـال رجال الحي الآخر ، فاذا جاء هؤلاء وشارفوا مصلبة الحي تتقـدمهـم اهـزوجتـهم : (صفـوا الكــراسي جينــاكم) أجــابهم المستقبلون (يا مرحبـا بالـلي جاي) وقـد تطلق العيارات ـ النارية رغم

تحريـج السلطة ومنعها ، ويستقبل القادمون فيشربون القهوة والمرطبات وتدور الاحاديث ، ثم يقوم لاعبو السيف والترس والحكم (الكاف هنا تلفـظ كالجيم المصـرية) وهم يلعبون بالخيزرانات والتر وس الجلدية ، وتبدأ المبارزات .

أبي لاعب سيف :

وكـان أبي على قصـر قامته من أرشق لاعبي السيف والترس في حينـا في سوق ساروجـة فيشمر طرفي قنبازه ، ويشكلهما بالزنار ، ويبدأ يدور على رجل واحدة فرجل أخرى وهو في وضع القرفصاء ، ثم يدق سيفـه بالـترس ، ويشب واقفـا ومهـاجمـا ويضرب ويتقي وأنا انظر اليه مبهورا واتمنى ان يأتي وقت اتعلم فيه اللعبة . وقد جاء هذا الوقت حين صرت مديرا للفنون في وزارة الثقافة فنشطت لعبة السيف والترس ولعبة العصـا والـترس الجـدي المسـماة (الحكم) وادخلتهـا ضمن الايقـاع ووجهت الى جعلهـا من الـرقصات الفولكلورية بضبط حركاتها ايقاعيا بعـد ان كانت في الاحيـاء حرة . وكـان هذا الاتجـاه من آثار حياة الحي التي عشتها انا في سوق ساروجة بصورة بهية .

وبعد ان تنتهي زيارة الحي القادم ترد الزيارة وهكذا .

خصومات الاحياء

على ان هذا التعاضد لم يكن يمنع من وجود خصومات بين الاحياء المتجاورة، وكانت الخصومة شائعة ومستديمة الاحتدام بين حي الشاغور والميدان وبين الاكراد والصوالحة ، ولكنها كانت تبقى في حدود الجهلة من الشبّان ويتولى كبار الحي تسويتها كلما وقع أذى.

وكان سلاح الشبّان في هذه الخصومات المقلاع الذي سبق أن وصفته ، او العصي ، او الخناجر وامواس الكباس ، أما الاسلحة النارية فنادرا ماكانت تستعمل لانها لامرجلة فيها وعلى العكس فتستعمل من بعد وهذا دليل خوف ، بينما الخنجر والموس يتطلبان القلب الصامدْ والالتحام .

قتل النفس حرام

ولكن هذه المبارزات بالخناجر والامواس الكباس كانت تنتهي على الأغلب بجراح طفيفة . ذلك انه كان من المشهور في ايامنا ان قتل الرجل حرام وان القاتل مأواه جهنم، ولذلك كان الشبّان الشجعان اذا قاتلوا فقتالهم نوع من المبارزة الرياضية ، وكان من الشائع أن الرجل الشجاع هو الذي (يعلم) على خصمه وليس الذي يقتله ، ويقول الناس في ايامي وسمعتها عشرات المرات انها لاتقتل الا ضربة الجبان . ولذلك كنا لانسيمع في الثلاثينات ـ ودمشق فيها مئتان وخمسون الفا فقط ويعرف الناس فيها بكل مايجري بالتسامع وعن طريق صحافة كانت

تهتم بالاخبار الانسانية مثل اهتمامها بالاخبار السياسية ـ لانسمع عن قتيل الا مرة في السنة . صدقوني انني كنت اعرف كل من قتل في مدى عشر سنوات من الثلاثين الى الاربعين باسمائهم وظروف مقتلهم ولم يكن هناك اكثر من واحد او اثنين في السنة .

تقولون لماذا اهتممت بذلك؟ واجيب: كانت الحياة ليس فيها راديو ولا تلفزيون ، والصحافة هذه مادتها . اليوم نسمع بمن عطس في كندا او اصابه رشح في فنزويلا اكثر مانسمع بحادثة في الميدان او القصاع واذا وصلت فمتأخرة ومحرفة ولاتهز أحدا . اما في تلك الايام فان مقتل فوزي الغزي وهو أحد كبار الوطنيين والمشرعين وواضع الدستور، وقد مات بالسم على يد زوجته وابن اخيه قد هز سورية لسنوات ، وتتبع الناس اخبار الحادثة لغرابتها وبعدها عن المألوف .

ويوم حاول شاب حمصي من آل البني اغتيال صبحي بركات وهو من رؤساء الوزارات الذين تعاونوا مع الفرنسيين بينما هو جالس في بهو اوتيل نيوروبال في بيروت ، ضجت سورية بأسرها وكانت هذه اول محاولة للاغتيال السياسي وتألم الناس لمصير الشاب الذي قتل فورا بيد حرس صبحي بركات .

وبعدها سمعنا بواحد كان جالساً في مصلبة باب السلام حين جاء واحد اليه وضربه ضربة موسى قطعت امعاءه فمات . يومها ضجت المدينة لهذا الغدر الجبان ، واختفى أهل القاتل عن الانظار حياء من الناس لا خوفاً ، إذ كان منهم من ارتكب هذه الفعلة الخسيسة . ولا أروح بعيداً لأبحث عن شهود لقولي ، فقد كنا نقيم

احتفـالاً انتخـابيـاً في دار آل صابـرين في حي (بين القـبر ين) المجاور للسـمانـة ، حين دخل علينا ليلاً واحد من جماعة منافسة انتخابياً من آل فلاحة . فاجأنا بأن أمسك بكرسي وضرب به اللوكس الذي كنا ندعم به الاضـاءة فكسـره ، ثم امسك موسه الكباس وأخذ يحرك يده به يمنة ويسـرة مدافعـاً عن نفسه وأنا وبعض من حولي نضربه بالكراسي حتى فر ، ولكن كان قد (خربـط) الاجتـماع . بعد ذهابه وجدنا جريحين ، أحـدهم المـرحـوم فوزي الـزعيم فذهبنا بهما إلى مستشفى السادات في زقـاق الصخر وكانت جروحهما في الذراع الأيسر . حين كشف الطبيب عليهـما وجـدنا ثلاثة جروح متماثلة تماماً كأنما هي الخدوش التي يصنعها الطبيب حين يلقــح ضد الجــدري . كان هذا المهــاجم ـ والشهــادة للحق ـ شجـاعـاً حين دخـل على أكثـر من مئـة فخـربط اجتماعهم ، وشجاعاً أكثر حين كانت يده من قوة العصب بحيث تخدش ولا تجرح ، وهذا كان ما يتصف به (الزكرتي) . ومما يرون عن هؤلاء الزكرتية ان احـدهم ضرب آخـر ست عشـرة طعنة بخنجر فما أخذ تقريراً إلا لثلاثة أيام ، لأنها كلها كانت خدوشاً كما وصفت ودليل قوة العصب .

الزكرتية

وقـد أتت المنـاسبـة لاتحـدث عن الفئـة الشعبيـة التي نسميها في دمشق بالـزكـرتيـة . إن مفهـوم الـزكرتي في دمشق (١) ، يعني الشهم

(١) ـ الزكرت في حلب هو الفقير وفي جبل الدروز هو الأزعر .

(المعدل الرايق القبضاي الجومرد ابن الحلال) الذي يمد رجله ولا يمد يده على حد تعبير أحد المساجين الزكرتية ممن لقيتهم في السجن .
وكان المرحوم فوزي الزعيم ، وهو من أعرف الناس بدمشق ، يخبرني عنهم انهم كانوا يمثلون الفروسية التي اشتهرت بها القرون الوسطى ، والفتوة والمروءة التي اشتهر بها العرب. يعفّون عن الحرام، أصحاب دين ونخوة، تقصدهم في أمر فيلبون. تقول لأحدهم : «إلك والا للديب» فيقول لك خسى الديب، اطلب تعط، ولو طلبت روحه لاعطاك. يجيرون من يستجير، وينتصرون للضعيف، ويكرمون الفقير ويأكلون الحلال ولا يرضون سواه، ومنهم كان الثوار في كل ثوراتنا المتعاقبة.
كتب مرة مقالاً بعنوان (صورة الشعب) تساءلت فيه عن ابن الشعب الحقيقي الزكرتي الذي يصورونه في تمثيليات التلفزيون والإذاعة، وسألت هل يمثله أبو رشدي وأبو صياح وأبو فهمي والزبال ومن لا أدري أيضاً وكان الجواب أنهم صور مشوهة لابن الشعب . قد يكون واحدهم يلبس الشروال ويسرح وراء الدابة المحملة بالخضار أو وراء العربة ينادي على صنف من الفاكهة ، ولكنه ليس هو الزكرتي الذي يمتاز بالخلق والحياء إلى جانب الشجاعة . الزكرتي لا يغمز بعينيه ولا يفتل شاربيه ولا يلعب بالخال الذي على خده . إنه رجل يغضي حين يمشي ، ويعطي حين يطلب منه وينتخي حين يتطلب الأمر النخوة .
واعرف زكرتية كثيرين لم ينكشف (ديلهم) على حرام . أحدهم في الميدان سمع عن بنت اغتصبها السنغاليون أيام الثورة ولم يعلم بالأمر أحد ، وقبل أن ينتشر الخبر بعث إلى أبيها فخطبها وهو شيخ شباب

الحي وأمهرهـا مهـراً جيـداً وزفت اليه في احتفال كرم به أهلها ولكنه لم يمسهـا ، واستبقـاهـا عنده عزيزة لفترة من الزمن حتى طلقها وأعطاها مؤخـرهـا وأكـرمها . أما الذين (يتبوجقون) ويترادلون فهم ليسوا من الزكرتية وإنما من الزعران .

ومن المعروف عن الزكرتية ان واحدهم (سربست) أي رزين لا يحب الـزاحلة ولا الكلام الفارغ ، وانهم يتقنون لغة التخاطب الخاصة بهم فاذا ضيفت الـواحـد منهم قال لك - (من كف لا يعـدم) وتجيبـه (لأخ لا يبلى) . وإذا أشعلت له لفـافـة قال لك (يكفيـك شرهـا) وتجيبـه (ماتـدوق حرهـا) وإذا سقيت هنأك ، وإذا عطست شمتـك (والتشميت أن تقول لمن عطس رحمك الله) .

وقـد قرأت عنـد الـزميل السابق المرحوم أحمد حلمي العلاف في كتـابـه الممتاز عن دمشق صورة مستفيضة عن الزكرتية ولكنه خلط - في اعتقـادي وحسب معـرفتي - بين الزكرتي الحقيقي وذلك الآخر المتظاهر بذلـك ، فصـوره في صورة كاريكاتورية كانسان متثاقل متصنع له لهجة خاصـة ممجوجة ويلبس حذاء من نوع الكندرة يطوي طرف فردة منه ، أي صوره في صورة من كنـا نسميهم (عمـك خالـك) . ان هؤلاء موجودون ولكنهم في الأحيـاء يكونون زلما واتباعا للوجيه ولا يتورعون عن أيـة (زاحلة) وليسـوا الـزكرتية . وقد استدرك المرحوم العلاف في نهاية حديثه عمن وصفهم بقوله : (وقد لمع بين الزكرتية رجال ملأوا باعمالهم وشجاعتهم اسماع الناس حتى خارج المدينة ، كما أن رجال الامن كانوا يتهيبـون مقـابلتهم) وعـدد منهم اشخـاصـاً سمـع بهم ولكن مما يثـير

الابتسام ان من ذكرهم جميعاً ممن ماتوا قبل خمسين إلى مئة وخمسين عاماً إلا ثلاثـة كانـوا أحيـاء من عائلات الهرايسي والاسطة والمكاري . على كل حال انقــذ الصــورة ، وسـوف اتحـدث عن بعض من عرفتهم من هؤلاء الـزكـرتيـة وبـالتفصيل في موضعه ولاسيما حين اروي تجاربي في السجن وأفرق فيها بين الزكرتي والأزعر وقد رأيت هذا وذاك .

اذن فالـزكـرتي ، كما سلف الـذكـر ، كان إذا اضطر إلى معركة جعلهـا مبـارزة ريـاضيـة . أمـا القـاتل فكان بالاجماع جباناً ، ولم يكن القتـل من صفـات أهـل دمشق . وكانت حوادث القتل التي تصل إلى محاكم الجنـايـات أكثـرهـا هي القائمة على المنازعات على المياه وحدود الأرض في القــرى ، أو تلك التي يتمــرجـل فيهـا شاب على بنت من أقربائه بوهم إنها ضلت سواه السبيل فهنا تتجلى القسوة والوحشية حين يذبحها ذبح النعاج .

حادثة رهيبة

ومن استطــراد إلى استطـراد ، ولكن كي لا أنسى ، اذكـر إنني دعيت وأنـا محام من نحـو خمس عشـرة سنة للدفاع عن شاب أعرفه من قريـة قريبـة من دمشق لا أذكـرها عن قصد ، كان قد أحيل إلى محكمة الجنـايـات بتهمـة القتل . قرأت الاضبارة فوجدت ما يلي : كانت ابنته البلهـاء بنت الـرابعـة عشـرة قد غرر بها ـ مستفيـداً من حالتهـا العقلية المتخلفــة ـ رجــل في القــريــة ، فأخـذوه وأخـذوهـا إلى السجن في الزبداني ، ووضعوا البنت خوفاً عليها عند مختار البلدة الذي حماها .

بعـد شهـرين ذهب أبـوها ليستلمها من الشرطة ، فأمر القاضي بتسليمهـا إليـه بعـد أخـذ تعهـد قوي منـه بحـمايتهـا وأنه مسؤ ول عن سلامتهـا ، وبـاعتبـار أنـه أب ومدرك لحالتها العقلية وإنها غير مسؤ ولة اطـلاقـاً وانـه مضى على القضية شهران بردت فيهما حرارة الانفعال . واستلم الرجل الفتاة ، واخذها وفي آخر نزلة الزبداني كان يوجد بستان وفيه ساقية ماء فجلس وأجلسها وتوضأوصلى ركعتين ، ثم وضع رأسها على ركبته وقال الله أكبر . . وذبحها ! . .

حرت في أمري وأنا أعرف الرجل انساناًل هادئاً ماذا أفعل . هل أقبـل الـدفـاع عنه وأصرخ في وجه المحكمة إنه لم يكن هو القاتل ، وان القاتل هو المدرسة التي تعلم شعراً يقول :

لايسلم الشـريف الـرفيـع من الاذى حتى يراق على جوانبـه الدم

وإن القـاتـل هو القـانـون الـذي يعطي امثـالـه براءة ذمة كاملة ويعفيهم من العقـوبـة ، وإن القـاتل هو الناس البسطاء في قريته الذين يكـونـون يلعبـون بالنرد في ساحة القرية ، فاذا مر الأب أو الأخ أمامهم بصقوا على الأرض استفزازاً واستصغاراً وتحريضاً . .

ولكني لم أتـوكـل عنـه ، وحكم عليـه بالسجن سنـوات قليلة وخرج . . . مرفوع الرأس على قاعدة الجهلة الذين يقولون : اصبعي عابت فقطعتها . . .

وسوف أعود إلى تتمة هذا الحديث في مكان آخر ، فقد انقطعت الصلة بين المـوضـوع وبين حياة الأحياء القديمة ، وسرت مع الانفعال حتى كدت أضيع الخيط .

ولكن اختم هذا المقطع بذكر أشهر حوادث القتل التي وقعت في دمشق من ١٩٢٨ حتى عام ١٩٤٧ هي مقتل الزعيم الوطني المرحوم فوزي الغزي، ومقتل صاحب مطبعة قوزما على ضفة بردى، ومقتل القاضي عادل علواني، ومقتل الشهبندر، ثم حوادث لا تزيد على عشرة فيها قتلى بمشاجرات في الأحياء.

ولكن لم تبق الحالة كما هي في دمشق ، فقد دخلتها القسوة فيما بعد ١٩٤٧ ، وهذا حديث طويل .

الحي وحدة انتخابية

وكان الحي إلى جانب انه وحدة اجتماعية وانسانية يعرف فيها الناس بعضهم بعضاً ، وفيها وجاهات تحل المشاكل وفيها أيضاً مهن مركزة ، وتكون مقراً للاحتفالات في المناسبات ، فقد كان أيضاً وحدة سياسية إذا كانت الانتخابات في تلك الأيام تجري على درجتين.

ففي انتخابات الدرجة الأولى ينتخب أهل الحي مجموعة مناسبة لعدد السكان تسمي الناخبين الثانويين ، وغالباً ما يكونون من الوجهاء والمتعلمين وأصحاب النفوذ بانواعه ، ثم يقوم هؤلاء الناخبون الثانويون بالاجتماع بدعوة من الحكومة لينتخبوا العدد المطلوب من النواب . وكان في دمشق دائماً أكثر من خمسة عشر نائباً وأقل من عشرين ، ولذلك فقد كانت الحياة السياسية نشيطة في الحي لان نوعية الناخبين تؤثر على نوعية الحكم وتحدد الاتجاهات . وكان التأثير على هؤلاء الناخبين الثانويين يعني إقامة الاتصالات من قبل السياسيين

ورجال الاحزاب بكل واحد مرموق في الحي يمكن أن يصبح ذات يوم ناخباً ثانوياً .

التضامن بين الأحياء

وكان التضامن يسود أبناء الحي كما سبق القول ، ولكن الأحياء كان بعضهـا يهب إلى نجـدة بعضهـا الآخـر في الملمات . فلما ضربت الميدان بالقنابل أيام الفرنسيين في الثورة السورية كما سيأتي ، جاء أكثر أهل الميدان ففتحت أمامهم أبواب حي الصالحية ، فأقاموا فيه معززين مكـرمين . وجـرى ذلـك للأحيـاء القريبة من الميدان التي تضررت . والنـاس في دمشق كانـوا دائـماً مفتـوحي القلب ولاسيـما في النجدة أمام الكـوارث في حين أنهم في الأيـام العـاديـة أقـل كرمـا من أهـل المناطق الأخـرى من مدن وأريـاف ، وهـذا عموماً شأن العواصم التي يقصدها كل أبنـاء المحـافظـات وفي كل يوم فلا يستطيع أهلها أن يقـومـوا بكل الواجب وبكل الحرارة في كل يوم ، وليس هذا شأن المناطق الأخرى والأرياف .

الفنادق والضيوف

وبالمناسبة فان الفنادق في دمشق كانت قليلة ومع ذلك تشكو أنها لا تمتلىء لان القـادمـين كانـوا يفضلون أن ينـزلـوا عنـد أصحـابهم - بالـترحـاب ولكن بدون سعة بسبب الضيق الذي تشكومنه العواصم -

وأذكـر أن بيتنـا كان يوجـد فيـه أحياناً من أبناء المناطق الأخرى اصدقاء أبي ولا سيما في الطريقة النقشبندية فيكون عندنا عشرة على الأقل من كبـار وصغـار يقيمـون الشهـر والشهـرين وأكثـر ، ويأتون معهم بالرمد والأمراض التي جاؤ وا يتعالجون منها عند أطباء دمشق ، وفي هذا ما فيه من خطـر انتشـار الأوبئـة فضـلاً عن الارهاق الذي أصاب والدتي من الطبخ والجلي والغسيل للضيوف ولنا ، وأصابنا نحن الأولاد كذلك من اضطـرارنـا إلى الخـدمـة ليـلاً نهاراً ، لاسيـما مع الفصـل بين النسـاء والرجال و (خذوا طريق) للداخل والخارج .



الفصل السادس

البيت الدمشقي

من يمر بحارات الشام القديمة ويشهد منازلها من الخارج فانه يرى بيوتاً لا شكل لها ولا زينة . الطابق الأرضي لا نوافذ فيه ، ومن الخارج يطلى بالكلس ، وفوقه طابق له شبابيك مغطاة بشبك من الخشب يدعى (الخص) ، وتطل كشرفة صغيرة على الطريق ومن فيها يرى الناس ولا يراه الناس ، وهذا كل شيء .

ولكن إذا دخلت إلى الدار الشامية وجدت فيها دهليزاً صغيراً تنفذ منه إلى فسحة يبدأ معها عجبك يتحول إلى إعجاب : أرضها من الحجارة المرصوفة الملونة ، وإذا كان البيت لاغنياء فمن الرخام وفيها أكثر من شجرة من الأشجار المنزلية .

أشجار البيت الشامي والأزهار

هذا والاشجار المعروفة في بيوت دمشق هي : البرتقال والنارنج والكباد والليمون الحامض والليمون الحلووالفراسكين والدرابزين خرمسي . (أصل اسمه بالتركية طرابزون هورمه سي أي تمر طرابزون

والطـرنج والمشمس الهندي ، ثم شجيرات الياسمين الأبيض والاصفر والأزرق التي تعرش في الدور ، والياسمين العراتلي ، والنبات العطري المعروف باسم (الساعة) والبنفشا التي لها ازرار زهر لا تحصى ولو بدون رائحـة ، والمجنـونـة بالـوانهـا الحمـراء والبنفسجية والبرتقالية ثم دوالي الـعنب . والــدوالي في بيــوت دمشق تطعم عادة بالطعمــين بالبلدي والحلواني وكلاهما (يقرش) تحت الاسنان لأنه صامد غير رخو ، والبلدي يمتـاز بأن قشـره رقيق جداً ، وهنـاك العنب الـزيني وسـواه من الأنـواع الفاخرة . كما كانت توجد في بعض الدور شجرة المانوليا وشجرة المسكة اللطيفة العبير .

ثم يكـون في هذه الفسحـة المسـماة (الـديـار) قطـع من النباتات الـزهـريـة والعطـريـة يسميهـا أهـل دمشق (الـزريعـة) واهمهـا اوراق القصب ، والشمشـير ، والهـوا حيفـا الـذي هو ناعم هفهاف الاوراق كانهـا الهـواء ، والقـرطـاسيـة (اسمهـا الافرنجي هورتنسيا) والبوغونيا والشب الظـريف والختميـة والبنفسـج والدادا والجميل وآه ياأنا والعطره والشكـريـة والهـرجـاية والبرنجك والمدادة والمكحلة والسجادة واللحلح والـزلف والكـولـونيـا . وبعض النبـاتات الزهرية لها اسماء غريبة وذات مغـزى مثـل ليلة القـدر التي تفتـح في السنة ليلة واحدة والمحكمة وكف العـروس ودنـدل شعـره والحـمايـة والكنـاين وسـوالف العروس ولسان الحـمايـة ، وهـو نبات شوكي طويل والعياذ بالله ! . . . كما لم يكن يخلو بيت من قطعة غناجه وهي نبات إذا لمسته أغلق أوراقه ثم عاد بعد قليل ففتحها وكنا نتسلى به كثيراً .

ثم اضف إلى ذلـك أو قبـل ذلـك كله الـورد الدمشقي المشهور

بالبلدي ، وهـو عطـري ومعـروف في العالم كله باسم وردة دمشق (روزا دامسينا) ، والورد الجوري ، والفل وبذلك يكون البيت الدمشقي كأنه مزرعـة ورد ، مهـما يكن فقـيراً فانـه فيـه من (شقف) الزريعة ما يجعله يشبـه حديقـة صغـيرة غنـاء فعلاً . وكان أهل دمشق يقولون عن عنب الـديـار انه يطول الاعمار ويستخدمون ورق الليمون والنارنج مغليا وهو شراب طيب ومفيد .

اذن فالبيت الـدمشقي من الـداخـل غيره من الخـارج . من الـداخـل جنـة ومن الخـارج شيء لا شكـل له ولا جمال فيه . ربما كان لذلـك سببـان : الأول ديني فالجـدران عالية والنساء يختبئن ضمنها فهو (حريم) محصن ، والمرأة التي تدخله تقضي حياتها برمتها فيه الا طلعات خفيفـة ولـذلـك يجب ان يكـون جميـلاً ومشتى ومصيفـاً . واحد بيوت دمشق التي اعرفها في سوق ساروجا (وهو لآل المرادي) فيه عدا كل ما في البيوت الاخرى زيادة تتألف من مسجد وحمام ومقبرة لأهل الدار ، فاذا توفيت المـرأة امكن ان يصلى عليهـا وتـدفن ضمن الـدار فلا تخرج منها بعد ان دخلت بالزواج ! . .

والسبب الثـاني اذكـر انني قرأتـه عنـد محمـد كرد علي ، وهـو ان الـدمشقي لكثـرة ما عانى من موجـات الغـزو والنهب والتقلبات والوان الحكم القديم القائم على التعسف ، يحاول جهده ان يخفي النعمة ولا يظهرها ذلك ان النعمة ما ان تظهر على صاحبها حتى يقتل اوينهب في اول فرصة . وربما كان هذا من الصفات اللاصقة بالعواصم .

هندسة البيت الشامي

في أكثر من مكان في هذه المذكرات اتحدث عن البيت الدمشقي ، كيف يبنى ومن اية مواد ، ولماذا هو صغير المساحة غالباً ويبنى مثل (المطبقية او السفرطاس) على حد تعبير الظرفاء أي من قبو وأرضي وعلالي وطيارة ، وكلها في مساحة صغيرة . والسبب كما اوضحته ضيق المساحة ضمن سور المدينة فيضطر السكان للتكيف ضمن المساحة المحدودة إذا تكاثر عددهم ، وعجز مواد البناء عن ان تؤمن اكثر من هذا الارتفاع الشاقولي .

وأضيف الآن أن النجّار العربي كان في ذلك الحين مهندساً ، ولم يكن في البلاد مهندسون الا في مصالح الجيش العثماني . فالدار الشامية القديمة كلها من خشب الا بعض الجدران الحجرية في البيوت الكبيرة ، وهي تبنى أول ما تبنى هيكلاً من أعمدة الحور كالقفص . وكانت عملية بناء الهيكل وحسن توجيهه وتوازنه واحكام شد اجزائه بعضها إلى بعض ببراعة ودقة بالغتين ، تسمى « صَلبْ » في تعابير النجارين . فاذا تم لب الدار بالخشب الرومي أو الحور حشيت فراغات ما بين الاعمدة لبنا ، وغطيت السقوف من فوق بالخشب والتراب ، ومن الاسفل بالواح مصقولة من الخشب تسمى « الطوان » ولم يكن الاسمنت المسلح لا مستعملا ولا ضروريا ، أما الطينة فكانت من الكلس المقوى بقشر القنب او من الطين مع التبن . وأما الأرض فكانت من (العدسة) وهي مزيج من الكلس و(القصرمل) الناتج عن حرق الزبل في قميم الحمامات و(الكتكت) وهو من خيطان القنب

المنـدوفـة ثم تدق حتى ترص وتصبـح ناعمـة ، وكان هذا قبل ان يوجد البلاط . أما الاغنياء فيستخدمون الرخام او الحجارة الملونة . كان طراز البنـاء الشـامي متفقـا مع الاقليم الشـامي القاري الرطب ، أي عازلا للحـرارة في الصيف ومـانعـا للبرد والـرطـوبـة في الشتاء ، وكان البيت مشتى ومصيفـاً : قاعـاتـه و« مربعـاتـه » والمياه المتدفقة فيه تجعل الدار صيفا في برودة الراوند ، وقصوره وعلاليه ومخادعه ، دائرة شتوية كاملة .

وكـان واحـدهم يحسن توجيـه البيت نحو القبلة لتدخل الشمس إلى غرفـهِ شتاء ولا تدخل إليها صيفا ، ويحسن دوزنة الأرض حتى يأتي الماء إلى الدار من نظام المياه العجيب في دمشق الذي يجعل بردى يتوزع بالانسياب الحر في كل منازلها على الاطلاق . وكان الواحد من هؤلاء النجـارين المهنـدسـين إذا أوشك بيت قديم على التهدم والتداعي بأن انكسـرت خشبـة السقف المستعـرضة ، يحسن تعليق السقوف بأعمدة تدعمهـا باستخـدام (المخل) ، ولذلك فن مرهف يجمع بين القوة ودقة الحس إذ تؤدي حركـة بسيطـة غير محسوبة إلى الانهيار الكامل . وكان أبي بعـد جدي من أمهـر من يقـومـون بمثل هذا العمل ، وله في ذلك مخاطرات مشهودة وتشهد له بالبراعة .

وسأعــود إلى حديث جدي وأبي في مكـان آخـر ، أتـابـع الآن حديث البيت الدمشقي .

فأقـول إن هذا البيت كان فيـه غالبـاً قبـو وهو يعد للمؤونة حتى تكون رطوبته حافظاً لها من التلف .

بيت المؤونة

فالدمشقي يشتري الحاجات في موسمها لأنها أولاً مقبولة الثمن، ولسبب آخر هو أن الحاجيات لم تكن توجد في كل وقت، ومن اهتمامه بطعامه يحفظه أيام لم تكن هناك برادات ولا خضار تأتي في غير موسمها . فيجفف الكوسا والباذنجان والبامياء والفول والجوز والحمص والبصل والثوم وسواها ويحفظ ورق العنب (مشروشاً) بالملح ، ويغلي الجبن مع حبة البركة وملح قوي ويحفظه طول العام ويضع الزيتون في الزيت ، ويكدس المكدوس ، وهو الباذنجان المحشو بالجوز والثوم ويشكل غذاء فاخراً ومغذياً جداً ، ويصنع أنواعاً من المربى أو كما يسميه الدمشقيون (المعقود) ـ بالمشمش والسفرجل والباذنجان والتفاح والكباد والنارنج ، إلى آخر ما يصنعه المطبخ البعيد النظر .

فأين يحفظ هذا كله إلا في هذا القبو؟ وأذكر أنني في صغري كنت مولعاً بمعقود الباذنجان والمكدوس فأريد أن أنزل إلى القبو عند بعض أقاربنا لأسطو على القطرميزات كلها عن ذلك على بالي ، فخطر لاحدى قريباتنا أن تخوفني من النزول قائلة أنه في القبول يوجد (أبو أمامو) وهو مخلوق مخيف فقط ولكن لا وصف له ، فتدخل أبي ليرفع من رأسي الخوف ويحارب فكرة الغول التي يستعين بها بعض الكبار على ضب الصغار وأشعارهم بالمهابة ، رحمه الله .

الليوان والقاعة

وفي الطـابق الأرضي تكـون هنـاك غالبـاً قاعتـان ، وقـد تكون إحـداهما أكـبر من الأخـرى بينهــما جزء مغطى من فوق ولكنــه مكشــوف على (الـديـار) اسمـه في دمشق (الليـوان) تحريفـاً لكلمـة الايـوان. والقـاعـة قسمان الأول ويدعى العتبة منخفض على سوية البيت وفيه غالبا بحرة ماء تؤمن ضمن الغـرفـة ـ تصـوروا ـ المنظـر الجميل والنافورة والرطوبة وتكـون مصنـوعة من الرخام الملون باشكال هندسية جميلة . أما القسم الثاني فهو أعلى بنحو ٣٠ أو ٤٠ سنتيمتراً ويسمى (الطرز) ويكون مفـروشـاً من أطرافه الثلاثة بمقاعد ومساند وسجاد ، وبعض القاعات الشامية فيها خشب مشغول مدهون جدراناً وسقفاً ، وكلها تحتوي على قليـل أو كثـير من التحف توضـع في خزائن في الجدران مكشوفة تسمى واحـدتهـا (كتبية) كأنما هي رفوف مكتبة وعليها مصابيح (الأوبالين) الفـاخرة وزبادي الصيني والصحون مثلها وغيرها ، وحتى الفقراء كان في جهــازهم بعض هذه المقتنيــات التي تبــذل للضيف النــادر عنــد الاستعمال وما عدا ذلك فهي للفرجة والزينة .

ثم إذا كان البيت أكـبر وجـدت فيه (مربعات) والمربع هو الاسم الـذي يطلق عادة على الغـرفة في الطابق الأرضي المطلة على الديار ، ويسكنهــا بعض افــراد العـائلة ولكن هنـاك دائـما درج ـ من حجـر او خشب ـ يصعـد به الى القسم الاعلى حيث الغـرف تسمى واحـدتهـا (فرنكة) . وكانت الدار الشامية موجهة نحو القبلة وشرحنا فائدة ذلك في ان الشمس تدخلهـا شتـاء حتى صدر الغـرفة فتدفئها بينما هي صيفا

لاتـدخـل الغـرفـة مطلقـا . وبين الغرف تكون (مشرقة) وهي فسحة سماوية علوية مكشوفة من ناحية السقف ، وتحيط بها الجدران من ثلاثة الاطـراف المتصلة بالجـوار ، ولكنهـا تطـل على الديار . وغالبا ماتكون فيهـا داليـة العنب ، وفيهـا يكـون نشـر الغسيـل ، ومنها تكون منادمة الجـارات ، واحيـانـا قصص الحب بين اولاد الجيران من الجنسين التي تدور خفية عن الأهل وبصورة ناعمة .

واذا كان البيت فيـه قسم أعلى ثالث ، فهـوغرفـة علوية تسمى (طيارة) ـ والتسمية واضحة السبب .

وبـذلـك فان البيت الشامي يشكل في نفس الوقت مشتى تدفئه الشمس وتعـزلـه عن الـبرد الخارجي جدران من الخشب واللبن اللذين يمنعـان الـبرد والحـر ، ومصيفـا اذ ان ساحة دياره لاسيما حين تشطفها الصبايا من ماء البحرة، وقاعاته، تكون كلها في برودة الراوند.

وقد حدث ان كتبت قطعة زجلية ، بالزجل الشامي الذي ليس فيـه اي تقليـد للزجـل اللبنـاني او القـروي السـاحلي ، عن هذا البيت الدمشقي وساكناته الحلوات فقلت :

ياصغيره
يابنت حلوه مقمره
بالشمس
عنك حكالي الليل
قال لي بهمس
قال لي جمال وغندره

قال لي الصـبـا بعـبـا اختـبـي
وتـفـتـحـت ، يا زنبـقـة يا ألـف فلة مطـبـقـة
يا حواض عم تلمـع قصـب يا نور شلال انـسـكـب
يامـاانتشى الـريحـان واخضـرالهـوا لمّن ضحـك نيسـان ومـرقتـوا سوا

يا بنـت حلوة مفـرعـة . . . نخـله صبـيـة مشـرعـة !
عنـك حكـا قلب الـصـبـاح قال لي ونـصـح
قال لي اقطـفـا ، ضج الـبـلـح لا تفـرفـط وراقـه الـريـاح
ياحلوتي ، قلبي على خطـوك كرج يطـلـع درج . . .
يقطـف زهـر ليـمـون يجمـع غنـى حسـون
يفـرش على دربـك نغـم ! ياحـلوتـي ، ياريت انـك تقبـلي
بديـار بيـتي تفـتـلي وبـحـلـف قسـم !
الـديـار من خطـوك حلي الـليـوان للخـصـر ابـتـسـم
والخصر عم يغمز الي . . .

وأظن أن فيها من البيت الشامي وساكناته ما يشفع لها أن تكون اغنيـة دمشقيـة ومـع ذلـك لم أعطهـا للملحن لانني أخشى أن يجعـل منها تانغـو ، وتجـاربي في هذا الصـدد مع الملحـنين أكثـرهـا مزعج وسيأتي حديث ذلك .

الحيوانات المنزلية

وهذه مناسبة لنقول أن الناس في دمشق يعتنون بالقطط ويربونها في بيوتهم إذ أن لها دوراً كبيراً في حماية المنزل ومؤونته من الفئران وسائر الحشرات ، ولذلك فالقط والقطة ينعمان و(يتمردحان) في البيت الشامي حيث تتوفر أسباب التسلية لهما ويتمكنان من القفز على الأشجار وعلى السطوح (للغزوات الشباطية) . أما الكلاب فلا يربيها الدمشقيون لأسباب دينية ، إلا إذا كان في مزرعة وخارج الدار .

ويربي بعض الدمشقيين الحمام ، وقد جاء ذكرهم عند الحديث عن كشاشي الحمام ولكن أكثرهم يربون العصافير ذات الأصوات الجميلة كالشحرور والكنار ويعطونها من العناية الكثير ويطربون لاصواتها . أو يقتنون الببغاوات والطيرين المسميين (العاشق والمعشوق) .

ولكن الشيء الغريب - وليس نادراً - هو تربية السلاحف في البيوت ، ومن المعروف أنها تعمر طويلاً ، وكثيراً ما شاهدناها تحوص بين شقف الزريعة بمشيتها الهادئة الوقور .

ويحدث ان يربي خروف أو (جدي) لمدة قصيرة والصبيان الصغار يهوون ذلك ولكن عندما يذبحه الأهل تحدث مناحة .

وقد حصل هذا معي إذ سافرت مع والدي مرة إلى خان شيخون قرب معرة النعمان وجئنا بخروف صغير أبيض جميل جداً ، فلما

---

(١) المقصود هنا ان موسم الخصب والتناسل عند القطط يكون في شهر شباط.

استغفلوني بعد أيام وذبحوه بكيت وأضربت عن الطعام وبقيت فترة لا آكل اللحم ولكن لم تتأصل عندي العقدة .

ولـــذلـك فاذا دعـاني الآن أحـدهم على خروف اتنـاسى حزني القديم وآكل على اسم الله ! . . .



ـمل السابع

حياة البيت الشعبي حتى الثلاثينات

كانت حياة بيتنا في العشرينات وبداية الثلاثينات ـ شأنها شأن الحياة في أي بيت شعبي ـ غاية في البساطة والتواضع . فحاجات الناس كانت في تلك الأيام محدودة ولم تتوسع هذا التوسع الضخم الذي خلقه المجتمع الاستهلاكي اليوم .

الأثاث

كان أثاث بيتنا يتألف من عدد من أنواع البساط الصوفي ومخدات القش ، وبعضها كان مرتفعاً عن الأرض ويسمى (القاطع) الذي يصنع من الخشب وتوضع فوقه أما قطع لباد تغطي بالبساط الصوفي وأما فرش من القطن . وكانت في بيتنا خزانة ذات بابين ومرآتين ، وإذا كان الجماعة أكثر يسراً تكون الخزانة مطعمة بالصدف أو تكون محاطة بخشب محفور على شكل زخرفي يسمى الجاردينير (أي البستانية) . . .

وكانت لدينا خزانة بدروج اسمها ال (بير و) من الكلمة الفرنسية BUREAU وهي مطعمة بزخارف من العظام . أما فراش النوم (وهو عند الاغنياء على سرير من النحاس الأصفر) فكان في بيتنا

كما لدى سائـر النـاس يمـد على الأرض ليـلاً ثم يطـوى صباحاً ويرفع ويوضع في فجوة في الحائط معدة لذلك اسمها (يوك) على وزن فول ـ ومـع الفـرش تكـون اللحف والمخدات وهذه كلها تكون إما من القطن وإما من الصوف .

وكنت اسمع من أهلي أن العروس يخرج معها فراش سبعة أرطال جز صوف ، والرطل كيلوان ونصف .

والصوف من المتاع الذي لا يعتق ، فيغسل ويجفف ويظل هو هو وثمنه يرتفع مع الأيام ، ولكن يحتاج من حين إلى آخر إلى أن تتناوله يد (المنجد) بالعناية فينفشه بعد غسله ونشره ثم يعيد حشوه في الفراش ، ونساء البيوت يفعلن ذلك إذا أردن أيضاً .

أمـا القطن فيحتـاج غالباً إلى يد المنجد كل سنة أوبضع سنوات لينـدفـه بالمنـدفـة ، وهي قوس طويـل من الخيـزران له وتـر من الشعـر ويضرب عليه بمدقة من خشب فيكون له رنين مميز ولطيف وكنت أقف أمـام المنجـدين لسـماعه ، وكلما اهتز الوتر نتش القطن فحوله إلى قطن هش هفهاف يعود فيكتسب المرونة بعد أن يكون من طول الاستعمال قد (لبّد) . والقطن أقل سعراً من الصوف .

ولم يكن في بيتنا ولا في أغلب البيوت مناضد ، وأن وجدت فهي من النوع الصغير المسمى (اسكمله) اخذاً من الكلمة التركية ، وإذا كانت أكـبر أكـل النـاس عليهـا وسميت طبليـة ، وكان هذا علامة تميز ورفاه . فالأصل أن تمد السفرة على الأرض فوق قطعة قماش أو مشمع وإذا جلس أهـل البيت اليهـا رفعـوا أطـرافهـا فوق ركبهم لتحفظها من الطعـام فلا يصيبهـا رشـاش منه . وكانت الأطعمة توضع في إناء واحد

لكـل نوع ، ويأكـل أهـل البيت منـه تغميساً بالخبز أو بالملاعق تمد إلى القصعـة المشـتركـة فلا من يأنف ولا من يتأفف . ويشـرب الجميع من طاسـة نحـاس واحـدة إذا كان الشـراب ماء ، أمـا الشاي فلكل واحد كأسه . وقد دخلت (الشوكة) بين آنية الطعام متأخرة جداً بالنسبة للملعقة .

ونـادراً ما يحوي البيت كراسي أو مقـاعـد (كنبـات) . وفي بيتنـا كانت الحيـاة أفضـل من سواهـا نسبياً بفضل تأثير عمي الضابط الذي رأى الحضـارة في استـانبـول وفي روسيـا أثنـاء الحـرب وجاء منها بأفكار جديدة ، وأذكر أن أبي صنع طقم كنبات ظل في داري ومكتبي حتى ما قبـل سنـوات فأعطيتـه إلى من يحتاجه ، كما أن أول طقم كنبات جديد من خشب الجوز المحفور حفراً بسيطاً دخل بيتنا بعده في عام ١٩٣٤ ، ومـا يزال عنـد أخي الأصغـر وهـو بسيط وجميل ، ومعه من بقايا الأثاث خزانـة أمي التي صنعهـا خالي المـرحوم صلاح . ولكن (البيرو) ذهب ولا أدري إلى أين، وعلى كل حال لم تكن منه في بيتنا سوى آثار أقرب إلى الحطام بين يدي تسعة أولاد عفاريت عدا الكبار.

كيف نتناول الطعام

وقـد تأثـرنـا أيضـاً بعمّي بأن فرقنـا الطعـام إلى صحـون فلكل واحـد صحنـه وملعقتـه . وبـدأنـا نجلس إلى مائدة ولكل واحد كأسه ليشـرب منـه ، ووضعنـا في الآنيـة المشتركة ملاعق للسكب ، فارتقت بذلك النظافة ، ولذلك فيكفي أن يوجد في أية عائلة انسان متطور لكي

تكسب منـه عادات حميـدة ولها أثرها على تحسين الصحة العامة . وإني لأعجب من مثقفين لا يدركون أمور النظافة والصحة هذه ! فلا يزالون يمـدون ملعقتهم إلى القصعـة المشتركة أويأكلون بشوكتهم من صحن معد للجميع بدل أن يسكبوا في صحافهم بملاعق نظيفة . والاعجب منهم من (يتظـرفـون) رغم وجـود المـلاقـط الخـاصـة فيأخذون الثلج بأيـديهم ليضعـوه في كؤوس سواهم ولا يمكن لأيـة يد أن تكـون نظيفة النظافة المطلقة .

الاضاءة بمصابيح الكاز

أمـا الاضـاءة فظلت حتى أول الثـلاثينات بمصابيح زيت الكاز ونمـرهـا من ١ ـ٤ ، والفوانيس التي نحملها إذا خرجنا من الدار ليلاً أو من الغـرفـة إلى المـرتفقـات لكي لا يطفئها الهواء . وكان تنظيف الكاز عمـلاً يوميـاً وله عدته الخاصة ، وفي الوقت نفسه له رائحة مزعجة . وقد درست كل المـرحلة الابتـدائيـة على ضوء مصبـاح الكـاز حتى دخلت الكهرباء فكانت فتحاً وفرحة ، وبيتنا من البيوت الأولى التي أدخلت الكهرباء .

وقد كان للكاز استعمال آخر هو إننا حين نلم حشرة البق فأحسن طريقة للخلاص منها هي القاؤ ها في المصباح وكان البق كثيراً في دمشق ولم نخلص منه إلا في الخمسينات بعد انتشار مادة الد . د . ت ، وكان يشكـل مشكلة كبـيرة للعائلات وما أكثر ما كنا نفيق على لذعة ونبدأ في جمعه . ولعله كان أقسى ما أزعج طفولتي بسبب اذاه ورائحته الكريهة .

ومع أن الحديث عنه ليس لطيفاً ، إلا أنني أذكره لأقول أن حياتنا لم تكن كلهـا لطيفـة ، ولاسيما أن بيوت دمشق أكثرها من الخشب ويعشش فيها البق وينهك أهلها حتى قالوا في وصف الشخص المزعج أنه مثل البق لا ينام ولا يترك أحداً ينام .

منقل الفحم

والتدفئة في بيتنا كانت أول الأمر بمناقل (جمع منقل) فيها فحم يحرق . وكـانت للفحم اسـماء فالكبـيرة التي لم تتفحم جيـداً تسمى (عراطـة) ثم النـاعمـة تسمى (دقـا) والدق ينثر على الفحم فيترمد بعض الشيء ويـدوم الـدفء به مدة أطول . وكانت لمناقل الفحم مزايا ومضـار وتقـاليـد . فأمـر وسـاخة الفحم مشهور ، وإذا لم يحترق جيداً خارج الغرفة قبل ان ندخله إلى الغرفة نشر غازاً ساماً وكثيراً ما اختنق انـاس في غرفـة نامـوا فيها ومعهم منقل لم يشتعل كفاية قبل ادخاله إلى الغـرفـة . والذين كانوا يفهمون قواعد الصحة كانوا يخرجون المنقل من الغرفة عند النوم ، وواضح من اسمه انه يسهل (نقله) ثم يحتالون عند اطفائه كي لا تتلف بقية الفحم وتصلح لنار الغد . هذا وكانت ادوات اشعـالـه عديـدة منهـا المشعلة والبـوري ، كما كان من أنـواع المنـاقـل الحـديـدي والنحاسي ومنها الفخم غالي الثمن الذي صار هواة التحف القـديمـة يقتنونه الآن ليتذكروا الفارق بين التدفئة على الفحم والتدفئة المركزية في بيوتهم المترفة .

وكـان من مزايـا المنقـل اجتـماع العائلة بكبارها وصغارها وشبابها

وصبـايـاهـا حولـه يلتمسـون الـدفء وتحمر وجوههم و«تتقمّر» من لفح الحـرارة، ويشـوون عليـه الكستنـاء في الشتـاء ويضعـون عليـه أباريق الشـاي فوق (منصب) أو يحشـرون ركـوة القهـوة وكنا نسميها (دولة) في جانب المنقـل فتغـلي القهـوة من طرفهـا ببـطء حتى تتعقد وتصبح طيبة المذاق وما أكثر ما بدأت قصص عاطفية لطيفة وعميقة حول المنقل وإذا احمرت الوجوه انفعالاً لا يعرف الجالسون السر وينسبونه إلى وهج الجمر بينما هو من عواطف تتأجج او تتوهج كالجمر! .

مدافىء الخشب والفحم الحجري

ثم دخلت المـدافىء على الحطب والفحم الحجري ، ومنها ماهو اجـنـبي مصنـــوع من مادة الفـــونت ويشتعـــل فيـــه الحطب او الفحم الحجري ، ومنها ما صنع محلياً من الحديد . وقد كانت في بيتنا مدافىء بعـد منـاقـل الفحم، ونـدم بعض بنـاتي على أننـا لم نحتفـظ ببعضها كتـذكـار . ولكن مشكلة الحطب انـه ـ مع تكـاثر السكان ـ يؤدي إلى اتـلاف الثـروة الحراجية . وأفضل أنواع الحطب حطب الزيتون فجمره يدوم طويـلاً وحـرارتـه أكثـر ، ومن بعده المشمش . وأبي كان باعتباره نجاراً يأتي بفضلات الخشب والنجارة من عمله فتغني غالباً عن الحطب كما أنهـا انظف وأكثـر جفـافـاً وأسـرع اشتعـالاً . أما حين نشتري حمل حطب زيتون فكانت تأتي به الجمال تطوف شوارع المدينة ومعها كسارو الحطب وأكثـرهم من الأرنـاؤوط الـذين اشتهـروا بالقـوة والاحتمال والتدين الشديد وصرامة الأخلاق كما سلف الذكر .

الليل والقنديل

وبالمناسبة فانني لم أعرف جدي اذ مات وأبي صغير ، ولكن صورته في خيالي الطفل مقرونة بولديه ابراهيم وسعد الدين يمشيان امامه بالفانوس ليلاً إلى جامع الشامية أوجامع الورد من أجل أن يحضروا صلاة التراويح ، اذ لم تكن الطرقات مضاءة . ومن الطرائف التي سمعتها عن استخدام الفوانيس انه صدر في أيام الأتراك أمر عن الشرطة المسماة في حينها (ضابطية) بألا يمشي واحد ليلاً إلا ومعه فانوس، وصادفت دورية من الضابطية اثنين يمشيان بلا فانوس في سُوق مدحت باشا فاقتربت من الأول ـ وتصادف ان كان من أغنياء آل العظم ووجهائهم ـ فسألته : نيرده فانوس ؟ أي بالتركي أين الفانوس ؟ فاجابهم بعظمة وغطرسة وهويدق على قفاه : اشتا . . أي هذا هو . وأدركت الدورية انه ماتكلم هكذا الا لأنه من الكبار الذين لا يخافون ، فالتفتت إلى مرافقه الذي كان وراءه وهو من الظرفاء فسألته ، نيرده فانوس ؟ . . . فأجابهم على الفور : أنا ماشي على ضو البيك ! . . .

الملابس

وكانت الملابس في دمشق ـ ومازال اليوم أكثر ـ أنواعاً كثيرة ولها دلالات . فوالدي وهو نموذج للرجل الشعبي كان يرتدي قنبازاً من الحرير الأبيض المسمى (روز) وعلى وسطه زنار حريري أوقطني ومن فوقه سترة أوسترة طويلة تسمى (ساكو) ، وتحت القنباز سروال أبيض

طويل يصل إلى الكعب ، وفي الرجل حذاء من نوع الصباط . أما في الشتاء فيكون القنباز من الجوخ الدافىء وفوقه الساكو من النوع نفسه . وكانت لأبي فوق ذلك عباءة من الصوف نندس تحتها حين يجلس في الدار متدفئاً بها ، أو حين نكون معه في خارج الدار أحياناً نمشي لغرض أو غاية . وكانت لديه أيضاً (فروة) وهي معطف مبطن من الداخل بفراء الخروف الناعم الممشط مما يصنعه أبناء حرفة الفراء المعروفون (بالفرايين) . وكان والدي يعتمر بعمامة معلمي الحرف المسماة باللغة الأغباني أو حسب الاصطلاح الدارج (اللام ألف) ولعل ذلك لأنها تلف على شكل الحرف المذكور فوق الطربوش الأحمر. ولكن العمامات أنواع . فأهل العلم يلفونها من شاش أبيض فوق الطربوش . وأهل التصوف والتقى يلفونها على طاقية بلا طربوش ، وإن كانوا من المنسوبين إلى البيت النبوي فالعمامة خضراء علامة (الأشراف) .

مفارقة عجيبة

وبالمناسبة وعلى ذكر لباس الرأس مات رجل أعرفه وكان من زبائني وأعرف عنه انه (ابن كيف) لايترك فرصة إلا انتهزها فيشرب ويعاشر ويسهر ويلعب، أي «يعمل السبعة وذمتها». وكان في فترة ما قد تسلط على كل ارتيستات الملاهي كلهن بسبب وظيفته العالية في الشرطة حتى يقال بأنه مامرت واحدة إلى الملهى إلا عن طريق فراشه ! ، ولكنه كان خفيف الدم كريماً محبوباً وحزنّا عليه جميعاً حين توفي وذهبت

لاحضر جنازته وكنت فعلاً دامع العين ، ولكن عندما خرجت جنازته من الباب كدت أنفجر رغماً عني بالضحك . فقد كان على نعشه عمامة خضراء قطرها نصف متر أوأكثر ، ذلك أن الأخ المرحوم كان من المنسوبين وهؤلاء لهم هذا التقليد عند وفاتهم ، ولكنهم لايرتدون العمامة الخضراء في حياتهم .

الطرابيش والاحذية

أما الشبّان من غير أهل الحرف وأهل التدين، وكذلك الرجال الآخرون عموماً فيلبسون الزي التقليدي الشائع في تلك الأيام وهو الطربوش . وكان من أدب الطرابيش أن تكون طويلة وغامقة وقد لبستها في فتوتي الأولى ولي صور فيها ، وكان من العيب أن يكون الطربوش قصيراً أو أحمر فاقعاً ومن يجترىء على جعله كذلك كان الوسط الشعبي يزدري به وقد يسميه (بوشت) والعياذ بالله .

وعلى ذكر الطربوش وطوله أذكر أن أحد أبناء عائلة الأمين (وكلهم شعراء مجيدون) كتب يصف قصر قامته تحت الطربوش الطويل فقال :

نصفي إلى الزنار في صرمايتي وبداخل الطربوش نصفي الثاني

والصرماية واحدة من أنواع الأحذية ، وتقاربها أنواع اخرى هي المشاية والتاسونة والبابوجة والمست والشحاطة والخف والكندره والبيتون والجزمة والكلاش والشاروخ ! . .

لباس الشباب الشعبيين

وهناك زي شعبي آخر للشباب هو الشروال الأسود وقد يكون مطرزاً من ناحيتي الجيبين ، وله بين الساقين (سرج) أي قطعة قماش كبيرة تنثني عند الارتداء ، وهي فضفاضة تنزل الى مايقرب من (لَبَّة) الساق . وفوق الشروال الذي يربط بدكة ، أوماكان العرب يسمونه (تكة) زنار عجمي إذا كان الشاب موسراً ، وعلى الجذع ميتان وهو شبه قميص بلا أكمام من نوع قماش الشروال وله أكثر من عشرين زراً متقاربة من الرقبة الى البطن وكلها من القماش وليس له ياقة . وفوق الميتان سترة من النوع نفسه وأكمامها عريضة ولها أردان . أي طرف الكم من آخره مفتوح ومزركش ليترك حرية لحركة اليد ، ويسمى (كطشية) والكاف هنا تلفظ كالجيم المصرية . أما لباس الرأس فهو طاقية أو حطة وعقال .

ويلبس آخرون من الرجال ولاسيما الموظفون اللباس الذي يسمي (محكمجي) أي اللباس الأفرنجي من بنطلون وجاكيت وربطة عنق وصدرية وطربوش وفي الرجل صباط ، وراجت في فترة ما دليل الاناقة عادة حمل عصا صقيلة معكوفة اليد من الأعلى يسمونها (البسطون) من أصل الكلمة الفرنجي ، واذا (تبغدد) حاملها قذفها بحركات موزونة الى الأمام فالأعلى ثم الى أسفل حتى تدق بالأرض مع كل خطوة يمشيها .

ملابس النساء

أمـا ملابس النسـاء فقـد كانت النسـاء الشعبيـات يلبسن الإزار الأبيض ثم بعـد مدة صارت النسـاء يلبسن المـلاء (الزم السوداء) وهي تغطي الجسـد كله فلا يبـين منه لاملمح ولاشكل ولاتعرف العجوز من الصبيـة (الا من تثـاقـل في المشية) ، ولاتظهر اليد فكل شيء في المرأة عنـد هذا الـوسـط يعتبر عورة حتى صوتها . أما في الوسط الأقل تشدداً فبـدأت المـلاءة السـوداء ذات القطعتـين والمنـديـل المنفصـل فأدنـاهما تنـورة(يسميهـا الـدمشقيـون خراطـة) أومعطف وأعلاهما هي المسماة (برالينه) من الأسم الأجنبي PELERINE أي ماتلبسه الحاجات في الحج ، ثم على الوجه كان المنديل طاقين ثم أصبح في وقت متأخر طاقاً واحـداً لترى المـرأة سبيلهـا ، ثم ظهر ما يسمى اللبس على الطالع أي على المـوضـة فلبست النسـاء معطفـاً وفـوقه منديل فقط يلف به الرأس اسمـه جورجيت ، ثم بدأت تظهـر الأيدي ، ثم بدأت تقصر المعاطف وهكذا بالتدريج الى أن صار بعض الناس يقولون الآن اننا لانعرف هل البنت التي تمشي في الطريق عروس تزف هذه اللحظة الى عريسها أم لا .

ولكن هذه العمليـة استغـرقت خمسين سنة ، والآن نجد شوارع سوريـة أكـبر معـرض للازيـاء القديمة والحديثة على السواء ، ولم يعد أحـد يستغـرب وذلـك لرسـوخ العـادات في بعض الأوساط ، ولسرعة التبدل المذهلة في أوساط اخرى .

ثياب الصغار الجاهزة

والصغار في الوسط الذي يرتدي الملابس الفرنجية كانوا يلبسون ثيابـاً حاضرة معدة سلفاً مؤلفة من بنطلون قصير وفوقه جاكيت . وفي الفترة التي تمتد من ١٩٢٨ فما بعد أحبت الحكومة أن تعمل زياً موحداً للتـلاميذ وأن تشجع في الوقت نفسه الصناعة النسيجية الوطنية الناشئة فأمـرت بزي موحـد من الجـوخ الكحـلي وهـو مزرر وشبه عسكري من ناحيـة الصـدر الا أن له ياقـة صغيرة واحدة الى الجانب الأيسر من قبل التأنق فقط .

وكانت الثياب نوعين ، كما هو الشأن في أوروبا . نوع للحفلات وأيـام الجمـع والمنـاسبـات وهـو الذي يحفظونه وقد تستمر (بدلة عرس) الـرجـل طول حياته ، ونوع آخر للايام العادية . وفي فرنسا يقولون عن الـرجـل المطقـوم باناقة على آخر طرز أنه (تأحد) أي لبس لباس الأحد endimanché وعلى ذلـك فالنـاس هنـا ماعـدا الميسـورين لم يكونوا ينطقمون كل يوم كما هو الشأن الآن .

وكـذلك السيدات ، فان ثياب العرس (والثوب الممتاز المقصب المشغول يسمى تفصيلة) تحفظ للمناسبات ، وفي الأيام العادية تلبس المـرأة الـروب المعروف أيضاً باسم (سركس) وربما كانت هذه الكلمة أصلها شركس للدلالة على نوع الثياب .

الثياب تشترى في العيد

وكــان أهلنـا يشـتر ون لنـا بدلـة كاملة في السنـة تشـتر ى على العيـد ، وننتظـره بلهفة ونأخذ البدلة والصباط الجديد ، وغالباً مايكون من نوع نصف الجـزمـة المسمى (بوتين) والاطفال كانوا يسمونه تحريفاً (بيتـون) على وزن زيتـون ، وكنـا نلبس هذه الاحـذيـة في المـدرسة وللمشـاويـر الرسمية أما فيما عدا ذلك فنلبس القبقاب وهو يرن تماماً كما يرن قبقـاب غوار في مسلسـلاته ! . فاذا اشتر ى آباؤ نا البدلة والصباط أو البيتـون أخـذنـاه معنا إلى فراشنا ليلة العيدلينام معنا ونستيقظ على فرح الثيـاب الجـديـدة . ومثل ذلك للبنات الصغيرات فأروابهن تشبه أرواب اللعب الآن بما عليهـا من شرائـط ملونـة وكشـاكش ، وكـذلك الروب من العيد للعيد .

الميسـورون أكثـر بدأوا يرفـدون ثوب العيـد بآخـر اثناء السنة ، ولكن ما ذكرته كان الحالة الشاملة ولذلك كان العيد له طنة ورنة وبهجة في نفـوس الاطفـال لايعـادلها شيء . وفي انتظار العيد نلبس أي شيء من قميص وبنطلون مصنـوع في البيت أوحاضـر من السـوق . وكـان الثـوب إذا تمزق اخـذنـاه إلى الرتا (وهو الرفاء) إن كانت له قيمة ، أو جرت خيـاطتـه كيفـما اتفق وإذا ذاب الكعب وضعـوا له (ميـالة) وإذا ذابت المقدمة وضعوا (بوزة) وإذا ذاب كله وضعوا له نصف نعل وكعبا جديـداً فيحيـا الصبـاط ثلاثـة أضعـاف حياته ! . . وكذلك الجوارب

فترقيع الجوارب معروف فتخاط أولاً لتغلق (عيونها)[1]. إذا انفتحت هنا وهناك ، ثم ترقع من ناحية الكعب أو (تسفل) بوضع قطعة من جورب آخر سميك على قدر القدم . وليس من شيء يكب أبداً ، فثوب الأخ الكبير يدور لأخيه الذي يليه وهكذا ، ويذهب لابن العم الأصغر أوابن الخال والخالة حتى لايبقى منه الا خيطان ، فيؤخذ عندئذ مع سواه من الاقمشة المهترئة لتجعل حشايا وفرشا للفقراء .
وهناك أيضا آلة اسمها (المندفة) تقوم بتحويل القماش المستهلك من جديد الى صوف أوقطن ، وتصنع منه أنواع من البسط . وكل هذا شهدته بأم عيني وألفته ومررت به أيضا فلا أتزيد بحرف لأنه كان هو الحياة . ولكنني للانصاف أيضا أقول إنني باعتباري الولد الاول للعائلة إذ أنا بكر والدي وقد تزوج ابي قبل عمي وكان الاثنان يعيشان معاً ، ولان عمي كان صاحب راتب ميسور (وسأعود الى حديث ذلك) وأبي كان حرفيا ممتازا ويربح جيدا بنشاطه وابتكاره ومعلميته ، فقد ألبساني الثياب الفاخرة من محل في سوق الحميدية كان اسمه (سلمندر) وهو فرع من فروع شركة عالمية تحمل هذا الاسم ، أومن عند (تيرنغ) أو (الزين) أو من محل (صادق ورمضان) وكلها كانت

(١) ـ من الفكاهات التي سمعناها ان احدهم كان يلبس حذاء من نوع (الصب) فانثقب فقال احد الادباء : الصب تفضحه عيونه . . . ملمحا الى البيت في الأغنية المشهورة .

من المحـلات الفاخرة . وكذلك الاحذية ولذلك فقد عرفت في طفولتي الاولى الـدلال، فأنـا طفـل مدلل شبعان محبة واعزازاً. وكان في بيتنافي فترة الطفـولـة الاولى طاهيـة مصـرية اسمها أم سليم (وجهها مصري جدا وكـذلـك كلامهاْ وخفة دمها وصحبتنا حتى بناتي الاولى والثانية) وسـائس خيـل مغـربي خلوق لطيف صاحب دين كان يعني بحصـان عمي ، كما كان عنـد عمي عسكـري على البـاب يشـتر ي الأشيـاء للبيت ويحملني ويـرافقني ويـدللني . ولكنني بعد ذلك وحين افتر ق أبي وعمي وكبرت العائلتان (وصار زاد الواحد يكفي اثنين ولكن لايشبعان تماما كما يتضـاحـك النـاس) فاننـا عدنـا الى العادات المألوفة ولبست الجـوارب المـرقعـة والمسفلة ولم أجد في ذلك غضاضة . وهذا التلوين في حيـاتي نفعني فيـما بعد اذ أنني مثل أبي أحب الشيء اللطيف والنظيف والطيب في اللباس والطعام ولكن لاأعتبر غيابه كارثة ، ونفسي في ذلك هينة لينة ماعدا النظافة فأنا في ذلك صعب الى درجة أنني أبقى جوعان ولا أكل الا من طعام نظيف أتأكد من أنه من يد نظيفة .

الطعام النظيف

بل ان من عاداتي أنني إذا عرفت أن الطاهية بشعة لم آكل ! . . وحدث كثيرا جدا أن بقيت بلا أكل أو أكلت النواشف لسبب من هذا النـوع ، فأنـا أنوف جدا في أمور الطعام والمنامة والاستحمام ، متساهل فيـما عدا ذلـك ، وكله من نتـائـج حياتي وأنا طفل فقد كونت احساس الطفل المدلل في البداية بأن له الاشياء الطيبة والنظيفة والانيقة ، ثم من

تربية والدي التي كانت تحرص على الجوهري دون أن تقف عند التأنق المبالغ فيه. ولذلك فاذا وصفت نفسي قلت إني درويش أقنع بالقليل، وقد عشت في فترة الملاحقة ذات مرة اثنين وعشرين يوما على الحمص المسلوق ولم أجد في ذلك غضاضة أو مايستدعي التذمر، ولكنني لم آكل طعام الحبس الذي لم يكن نظيفاً مكتفياً عنه بقطعة حلاوة أو علبة سردين.

عمتي رقية

ومادمنا في حديث التدبير والادارة والطعام الطيب فلا بد من أن أحدثكم عن امرأة سيدة في ذلك كله هي عمتي رقية. ولتصوير هذه المرأة الدمشقية النموذجية، أنقل لكم مقالة صغيرة كتبتها عنها في آذار ١٩٨٣ قلت:

كانت رقية بنت محمد رشيد وهي عمتي، امرأة متميزة فعلا. قصيرة القامة منمنمة في كل شيء ومع ذلك فهي حشوثيابها. عيناها صغيرتان ولكن ذكيتان ويطل منهما حنان دائم. وفمها صغير حتى يظنها الرائي تزمه في بداية ابتسامة. وكان لها في أمور الاسرة الرأي الاعلى لانها عميدة السن أولا، ولانها كانت رقيقة طيبة الطعام مدبرة. في دمشق يقولون عن الطاهية البارعة أنها صاحبة (نَفَس). سفرتها دائما عامرة وعليها بالضرورة بعض الخضار المشهية. من أي شيء بسيط تخرج لك مقبلا أو سلطة، وكنا نأكل من طبخها فنمسح الصحون من فرط التلذذ. ولكن حذار أن تدردر قليلا من السكر أو

الملح على الارض ، فان نظـرتهـا كانت تقسـو ولو صمتت فهي صاحبة هيبـة . واذا خطـر لواحـد منـا أن يترك في صحنه لقمة عبست في وجهه عبوسا لطيفا وقالت : حرام ، أكمل طعامك .

كبـارنـا وضعـوا في رؤ وسنـا الصغيرة أن من يترك في قصعته بقية طعام يأكلها الشيطان وان الوعاء يدعو بالبركة لمن ينظفه أكلا فلا يترك فيه شيئا ، وان من استهتر بالنعمة ولاسيما بالخبز أوشك أن يفقدها ويفقده .

ومـاكـان تصـرفهـا من بخـل فسفـرتهـا مبـذولة بسماحة واغداق للجميـع ، أبنـاء البيت والضيـوف على السـواء ، ولكن كانت تكـره التبـذيـر وتخاف منه أن يضيع النعمة . ولم تكن تستعمل كلمة الاقتصاد ولاتعـرفهـا ، بل كانت تقـول لنـا (اعملوا ادارة) وتفهمهـا على أنهـا ترشيـد في الاستهـلاك . واذا كان لكـل امـرىء من اسمه نصيب فمن أجدر بالترشيد من رقية بنت محمد رشيد ؟ .

وحسن ادارتهـا امتـد من السفـرةالى لباس الاسرة . ثياب الاخ الكبـير (تدور) لاخيـه الـذي بعـده ثم لأولاد العائلة . (بالة) ولكن عائلية ومجانية . أخي الذي ولد بعدي بثلاث سنوات ونصف تعقد من هذا (التـدوير) فنشأ يبالغ في اناقته وهذا رد فعل مقبول ومفهوم . العالم لافـوازييـه ربـما أخذ من عمتي مبدأه الشهير بأنه لاشيء يفقد ولاشيء يولد ولكن كل شيء يتحول .

كانت عائلتنا قد وصلت في وقت ما الى أن تضم واحدا وعشرين شخصـا . أبي وأمي عاش لهما سبعـة أولاد . وعمي وزوجـه عاش لهما ستـة ، وعمتي وابنتهـا وابنـا خالي كانوا يعيشون معنا باستمرار ، ضبط

العدد . كيف كنا شبعنا وعشنا مستورين لولا هذه (الادارة) ؟
وامتـدت ادارتهـا من المصروف الى الصحة ، فما انفقت منها الا بمقـدار ، فكتب لها أن تعيش تسعـين سنـة حيـاة هادئـة فلم تقعـد ولا صـارت عالـة على أحـد حتى انطفأت في لطف وخـرجت روحهـا كنسمة ربيع ناعمة ، رحمها الله .



إن كان من يقرأ هذا الكتاب دمشقياً من قداماها ، فلن أزيد في حديث الاطعمـــة الـدمشقيـة عن أن أجعله يتلمـظ متـذكـراً موائـدنـا العامرة ، وقد يعيد إلى بعض الاطعمة المنسية اعتبارها . وإن كان من يقـرأ سطـوري هذه لا يعـرف اطعمتنـا فيحسن به أن يطلبهـا تباعا من أقرب صديق دمشقي لأنه لا يغني الحديث عن التذوق .

وقد احببت الطعام الطيب دائماً وأكلت أصنافه المختلفة جداً من كوريـة وصينيـة وهنـديـة ومالغاشية وفرنسية وانكليزية وروسية وتشيكية والمانية وايطالية ومغربية وتركية وعراقية ، ولكنني أظل أحن إلى مطبخنا الشامي . قضية الفة وعادة ؟ ربما ، أو لعل الدمشقي يحب طعامه عن طريق الذاكرة أكثر مما يحبه بالفم واللسان .

وبـالمنـاسبـة فان الشعراء تغنوا بالطعام كثيراً ، والكتاب وصفوه وصفـا شيقـاً مثـيراً ، فهو أول اللذات الانسانية . وأنا في شبابي كتبت قصائد عديدة في التغزل ببعض أصنافه ، فاذا رأيتم في كتابتي عن مآكل الشام ما ينم عن بعض النهم ، فأنا أعترف بهذا . وربما كان أفضل أن يكـتب الانســان عما يحب من أن يكتب عما لا يحب . وقبــل أن أقص عليكم قصـة المطبـخ الـدمشقي اذكر لكم هذه النادرة . فأحد الوجهاء

من آل العظم دعاه أقرباؤه لزيارة باريس وأمنوا له تذكرة الطائرة والاقامة الفاخرة وكل ذلك على حسابهم ، ومع ذلك أبى ، هل تعرفون لماذا ؟ لأنه قال : هل أحد عقله برأسه يترك الشام أيام الباذنجان ؟ . . .

وبالفعل فان ملك الاطعمة هو الباذنجان : يؤكل معقوداً بالسكر ، ومخللاً حامضاً وقد يحشى بالثوم والكرفس ، ومكدوساً محشياً بالجوز والثوم وتضاف اليه أحياناً الفليفلة الحمراء ، ويؤكل محشياً بالأرز واللحم أو بالارز المتبل بالزيت والبهارات الذي نسميه اليلانجي (أي الكذاب بالتركية لأنه محشي بلا لحم) ويؤكل مقليا مع السلطة ، وتصنع منه المنزلة بأن يحشى باللحم ، وتصنع منه المقلوبة ، ويقلى مع السمن واللحم قطعاً صغيرة فيسمى (منسفة) ، وتصنع منه فتة المكدوس فيحشى باللحم ويوضع فوق الفتة ، ويصنع منه المتبل والبابا غنوج كمقبلين ، ويجفف ليؤكل خارج الموسم ، إلى غير ذلك من الاستعمالات .

وبعده الكوسا وهو قريب من استعمالاته عدا المخلل والمعقود ، ثم الفول وهو أيضاً ملك الاطعمة في الشرق الأوسط برمته ، باستخداماته العديدة غضاً ويابساً . فمن اصنافه الفولية فيطبخ مع اللحم والمرق والكزبرة والثوم وجذوع السلق ، والمقلى ويكون بالزيت مع الكزبرة والثوم وبعض من يحبون المطبخ التركي يضيفون اليه نبات (الداراؤط) ، اويقلى مع اللحم والسمن ، ويطبخ مع الرز أومع البرغل وفي هذه الحالة الأخيرة يضاف اليه بعض قشره الطري مع الكزبرة والثوم ، وتضاف الفولية أيضاً إلى الكبة اللبنية فتسمى

مشمشية . ويضاف الفول إلى الحبوب في الحلويات وكذلك إلى الحليب المحلى بالسكر.

وعندنا من الخضار التي تطبخ : الأرضي شوكي ويطبخ أما سلطة بالزيت وإما مع اللحم ، والكمأة وتطبخ باشكال عديدة مع اللحم أوسلطة بالحمض والزيت أومع مرق اللبن . ثم الكراث أي البراصيا وتكون بالزيت مع البندورة أومع اللحم والفاصوليا وتكون أيضاً بالزيت أو باللحم، وزهرة القنبيط فتطبخ مع اللحم والكزبرة والثوم، أومع البندورة، أوتقلى وتؤكل، ثم البلازلاء وتطبخ إما مع اللحم والمرق وأما مخلوطة بالارز مثل الارز بفول . وفي دمشق أكلة نادرة هي الهليون (Asperge) وكان بستان الكركة الذي نقيم فيه مختصاً وحده تقريباً بانتاج الهليون وتطبخ منه مع اللحم والسمن أكلة طيبة جداً ومألوفة في دارنا ، كما يقدم مع الحمض والزيت بعد سلقه . ثم من أنواع المحاشي هناك المحشي الملفوف بالسلق ، والمحشي الملفوف بورق العنب أوبورق الملفوف المسمى (يخنا) ، والصنفان الأخيران يكونان باللحم أوبالزيت والحمض . ومحشي ورق العنب الذي نسميه (يبرق) يتفنن أهل الشام بطبخه ويضعون تحته ما يسمونه (السافلة) وهي من الشرحات مع الدهن ومن العصاعيص التي تؤخذ من الخرفان وهي تحوي لحما دهيناً طيباً . وهناك بطبيعة الحال محشي الكوسا والباذنجان واليقطين الطويل والفليفلة ويكون مع اللحم والمرق كما يمكن لبعضه أن يكون مع الزيت والبهار والحمض ، وبعضهم يحشون البطاطا لحماً فقط بعد حفرها . وفي حمص يأكلون محشي الجزر ويحفرونه في الدكاكين بآلات

مخصوصة . ويطبخ القرع (اليقطين الكروي) أما مع اللحم والحمض ويسمى (أبـا أبسطي) وأمـا مع الطحينـة والحمض واللحم المفـروم ويسمى المكمور، وكلاهما يطيب معه البرغل (١) المحمص بالسمن الطيب.

والأرز والـبرغل يطبخان مستقلين والبرغل إذا حمص قبل الطبخ كان لذيـذاً جداً، وأرز دمشق يكـون مع الشعـيريـة المحمصة والسمن العربي وكذلك البرغل ، وبعضهم يطبخونها بلا شعيرية . وإذا أريد أن يخلط الأرز بالفـول أو البـازلاء أو الكمأة أو الكـرنب (وعندها يسمى شلباطو) أمكن ذلك ثم يوضع عليه أوضمنه اللحم المسلوق أو المفروم المقـلي. والأرز المفلفـل الـدمشقي أطيب من الأرز الـذي ذقتـه لدى الاجـانب عموماً والشرقيين كالصينيين والكوريين . وفي تركيا يطبخون الأرز ومعـه حباب زبيب (اشلميش) بلا بذر، ويأكلون مع الأرز اللحم المشـوي ، وقـد تعلمنـا ذلـك منهم ، كما يقدم الأرز المفلفل وعلى وجهه لحم مقلي مع صنوبر ويسمى «الرز بتطبيقه». والبرغل يمكن ان يطبخ مع قطـع الكـوسـا أو الباذنجان واللحم المفروم والكزبرة والثوم ويسمى عندئذ (يهودي مسافر) وتؤكل معه سلطة اللبن بخيار مفروم ونعنع وثوم.

ومن الخضـار السبـانـخ وتطبـخ بالـزيت والحمض ويصنـع منها فطـائـر ، وتطبـخ بالسمن واللحم وأحياناً يفقس عليها بيض ، ويؤكل معها الأرز المفلفل واللبن. وهناك الباميـاء التي تطبخ بالزيت أو باللحم وبوراني البقلة باللحم.

وبـالمنـاسبـة فالبنـدورة حديثـة عهد وقد جاءت في أيام أهلي فيها

(١) قمح يسلق حتى ينضج ثم يجفف حتى يعود قاسياً مثلما كان ويجرش بعد ذلك فيكون جريشاً يدعى البرغل والناعم منه يستعمل للكبة والخشن للطبخ كالأرز.

تروي عمتي ولم تكن معروفة قبل ذلك ، ثم زرعت في دمشق . أما الأحماض المستعملة في دمشق فهي حمض الرمان ويغلى ويحفظ ويسمى عندئذ دبس الرمان ، وحمض الحصرم ، وحمض الليمون والنارنج ، والخل ورب البندورة أو عصيرها والسماق .

وعندنا الملوخية التي تطبخ في دمشق مقلاة باللحم والسمن والثوم جافة ويؤكل إلى جانبها الأرز المفلفل ولا تصنع منها الشوربا المصرية . إلا أن العائلات التي تعلمت من الأرمن فتة الملوخية استطاعت ان تستطيبها وعندها يصنع منها ثريداي (فتة) فتوضع طبقة رز ثم طبقة دجاج أو لحم ، ثم تسقى بشوربة الملوخية وفوقها خبز محمص وبصل مع خل ، وبعضهم يضيفون إليها الكبة بالصينية .

وعندنا الكبب ـ ولو اشتهرت بها حلب أكثر ـ وأشهرها في دمشق المشوية التي تحشى بالدهن والشحم المطيبين بالبهار الأحمر وأنواع من التوابل ، واللبنية ولاسيما المشمشية التي هي كبة لبنية مضافاً إليها الفولية ، فضلاً عن بقية اصناف الكبة من مقلية وبالصينية وكبة حميص وكبة خضراء أي نيئة وتعلمنا الأورفلية وهي ـ كالكبة المشوية الصغيرة الحجم وتحشى بالدهن والشحم والورد ثم توضع في مرق من اللبن المشوي . وهناك أنواع كبب كثيرة أخرى منها الكبة بكشك ولكن قل من يستعملها من أهل الشام إلا إذا كان أصله من خارج المدينة .

أنواع البرك والمعجنات

والبرك هو رقائق من عجين تحشى لحما أو جبناً أو سبانخ مطبوخة ثم تقلى وطعمها لذيذ . وهناك من أنواعه الشش برك وهو رقائق عجين مسلوقة ومحشوة باللحم توضع في لبن مسخن ويدلق عليها السمن المحمى ومن انواعه أيضاً « الطابق برك » الذي يوضع طبقات في الصواني ويقطع كما نفعل بالنمورة ، ويكون باللحم أو الجبن ، وهناك أنواع يلف كانه السيغار . . ، ومن المعجنات وربات اللحم التي يصنعونها في محلات الحلويات ومعها وربات القشطة وتطلب عادة في الأفراح أو الأتراح . ومثلها وأهم منها القوزي وسيأتي حديثه .

أما الخروف المحشي فهو للولائم ، ومثله الدجاج والدجاج الهندي .

اللحوم

والدجاج كان في أيامنا لقلته أفخر الأطعمة . والسمك كان يأتينا من الغدران في الغاب وهو من نوع السلور الفاخر ولكنه ليس أكلة شعبية دائمة في دمشق ولو كانت محبوبة جداً ، وقد كاد ينقرض الآن بعد تجفيف مستنقعات الغاب .

أما اللحوم فنأكل لحم الخرفان وكان الناس لا يتعففون عن أكل الدهن كما هو الشأن اليوم ولا يمتنعون عنه . قريبة لنا وصف لها الطبيب عندما مرضت أن تأكل اللحم الأبيض فأكلت دهن الخروف ، وعبثاً

حاولوا إفهامها أنه ثقيل فبرأيها أنه هو الأبيض وأنه خفيف . ولحم البقر قلما كان يؤكل إلا من الفقراء ، ولحم الجمل يقولون أنه يطيب في بعض أنواع الطعام ، كما أكلنا واستطبنا لحم الغزال في الكبة حين أهديت إلينا غزلان اصطادها بعضهم من الصحراء ، ولكن ظل القتل يعمل في الغزلان بطراً وتسلية حتى انقرضت وواسفاه على هذا الحيوان الجميل الذي كان بعضهم يصطاده بالرشاشات ، وأي مرجلة في قتل غزال جميل ووديع بالسيارة السريعة والرشاش ؟ . ولذلك فان لحم الغزال صار من الماضي فقط ، فاحذفوه من قائمة طعام المستقبل .

وأغلبنا يأكل الآن لحم الجمل مخلوطا مع لحم البقر ، وقد سألت نقيب لحامة البقر عن الطريقة لكشف الغش ومعرفة لحم الجمل من البقر فقال إنها صعبة جداً وحتى هويمكن ألا يفرق في بعض الأحيان .

وكان الناس يمونون اللحم من موسمه بطبخه بالدهن ويسمى القاورمة وهي لذيذة جداً وبخاصة مع البيض ومع الكشك في ليالي الشتاء ، وقد موّناها في بيتنا سنوات طويلة ثم ذهبت هذه العادة مع الذبح الطازج اليومي وصعوبة الخزن في بيوت اسمنتية كأنها العلب .

الفتوش

ومن الأكلات الدمشقية الخالصة الفتوش وأفضله يكون بخبز محمص تضاف إليه (آلة السلطة) كما نسميها في دمشق من خس ونعنع وبصل وثوم وبندورة وخيار والبقل مع الخل والزيت . وكان الشاعر الصافي النجفي يحبه عندنا ومرة دعوناه إلى إفطار في رمضان بين مقبلاته

الفـول المـدمس والفتـوش ، فقـرب الأخير اليه وقال كلمة لا أنساها : لكم فولكم ولي فتوشي ! . . .

البسما. شكات والقبوات وفتة المكدوس والشيخ المغشي والمقلوبة

ومن المـآكـل الشـامية الخاصة جداً والعريقة البسما شكات وهي شرائح لحم تحشى بارز ولحم وتخاط عليها ثم تطبخ .

ثم القبـوات وهـذه أمعـاء الخروف ومعدته وكروشه تنظف جيداً جيداً ثم تحشى بالأرز واللحم والتوابل وقد عادت السجقات الآن الى المائدة الفخمة وصار الناس يتفننون بها وبعد أن تطبخ تقلى قليلاً وتقدم وهي من ألذ الأطعمة .

أما فتة المكدوس فهي تطبخ من باذنجان صغير يحفر ويحشى لحما وصنـوبـراً ويقلى ثم يطبـخ بمرق مؤلف من البصل ودبس الرمان والماء ثم يصنـع منـه ثريـد (فتـة) على خبز محمص وفوقها لبن وطحينة وثوم وبقدونس ويصف الباذنجان المحشي باللحم فوقها، والله أكبر ما أطيبها .

ثم الشيخ المغشي وهو كوسا محفور ومحشي باللحم والصنوبر يقلى قليـلا ثم يوضـع في اللبن المشـوي ويؤكل معه الرز المفلفل . كما هناك الكوسا المحشي بالأرز الذي وضع أيضاً في اللبن المطبوخ ويسمى كوسا بلبن .

وهنـاك أخيراً المقلوبة وهي أرز يطبخ مع شرحات باذنجان ولحم وصُنــوبــر بطــريقــة خاصــة فيـوضـع اللحم المسلوق أولاً ثم تصف البـاذنجـانات في القدر فوقه ويوضع فوقها الرز على الناشف ثم تضاف كمية الماء بعناية حتى لا يختلط كل هذا وحين تنضج توضع صينية على فم الطنجـرة وتقلب فيصبح الأرز تحت مطبوخاً بماء الباذنجان واللحم، وفوقه الباذنجان فاللحم ، ولذلك تسمى مقلوبة . وذات مرة وأنا شاب وأعمل معلم قرية أحببت أن أطبخها ولكنني أضفت الماء بعد الباذنجان فسبح بالماء واختلط كل شيء فساء المنظر ولكن ظل الطعم طيباً .

الستي ازبقي والحراق أصبعه والرشتاية

ومن مآكـل الـدمشقيـين ـ وخـاصـة الـدمشقيات ـ أكلات مثل الستي ازبقي وهي شوربـا بالعدس مع قطع عجين والحمض، والحراق أصبعه وهو مثل الستي ازبقي ولكن فيه خبز مقلي وبصل مقلي وكزبرة وله شهـرة كبـيرة عنـد النســاء وقـد عاد أخـيراً يتصدر الموائد الفاخرة ، أما الرشتاية فتطبخ من قطع العجين أو الكنافة مع الحليب والسكر .

والمجـدرة بالسمن أو بالـزيت مع البصـل المقـلي لها طنـة ورنة في البيـوت ولاسيـما في الحمام حين تذهب النساء إليه ويأخذن معها اللفت المخلل والكرنب .

والمـآكـل الـدمشقية أغلبها مقلي بخلاف المآكل التركية التي يكثر فيها (التطبيق) أي السلق . وعلى كل حال فالمطبخ الدمشقي مشهور وهو مزيج من كل أنواع الأطعمة وكان يستخدم السمن العربي إلى أن

أصبح غالياً فمال الناس إلى النباتي لأنه أرخص ، وبعضهم يقول أنه أخف وهذه مسألة نتركها للأطباء ولا علاقة لها بالتقاليد ، ولو أن الغلاء والرخص هما اللذان يخلقان التقاليد الجديدة في الأغلب .

التسقية

على أن من يتكلم عن الأطعمة في دمشق لا يمكن أن ينسى (التسقية) وهي فتة الحمص مع اللبن أو البدوة والسمن ، أو بالزيت المكسور بالقلي العربي حتى يصبح كالحليب ويضاف إليه الكمون ، فهي أكلة دمشقية مئة بالمئة .

وعلى ذكر التسقية بالزيت أقول إنها كانت في صغرنا تعتبر أكلة للفقراء . ثم مع الزمن بدأ الميسورون يكتشفون إنها لذيذة ، ثم بدأوا يذهبون بثيابهم الفاخرة إلى مطاعم التسقية بالزيت المشهورة ليأكلوها مثلما يفعل الموسرون الفرنسيون حين يخرجون من الكوميدي فرانسيز بعد سهرة مع المسرح الفاخر ليذهبوا إلى سوق الهال ويأكلوا شوربة البصل .

حكاية باسمة

ومما يروى أن واحداً من كبار الوجهاء المقنزعين[1] ذهب شحطاً ورغماً عنه مع بعض الوجهاء والسيدات إلى مطعم فتة حمص كان في مصلبة عرنوس قبل حريقها لأنهم قالوا له : حسن بك سنأكل تسقية .

---

(١) المقنزع لفظة من اللهجة الشامية يوصف بها من يتعلق بالمظاهر ويقدّم نفسه دائماً على الآخرين.

قال لهم بالفرنسية كيس كوسيه تسقية؟ أي ما هي التسقية ؟ وجاء الخادم فسأ ل المجموعة وهو يمسح الطاولة أمامهم : الخانم ؟ تسقية بسمنة . الخانم ؟ بزيت . البيك ؟ حمص بسمنة . والتفت إلى حسن بك (المقنزع) وقال له : حسن بيك أنت مثل كل يوم ، تسقية بزيت ! . . . وكانت فضيحة ضاحكة لحضرة البيك ! . . .

من مآكل الصباح

ومن مآكل الصباح شوربة الكشك بالبصل والثوم والنعنع واللحم المفروم ، والحريرة وهي طحين يحمص بالسمن ثم يغلى بالماء وبعضهم يأكلها مع الملح وبعضهم يأكلها مع السكر .

وكذلك الكعك مع التماري ، فالكعك عليه الدبس ، والتماري عجين يقلى بالزيت ويؤكل مع السكر . وهي أكلة انقرضت أو كادت .

الحلويات الدمشقية

وأشهرها في دمشق : المعمول ويصنع غالباً في البيوت للعيد ويحشى بالجوز أو الفستق ، ويشوى بالأفران وكان الأولاد يسهرون حتى لا تتبدل الصواني في الفرن ويستعينون على معرفة معمولهم من شكل القالب . ثم السنبوسك بالجوز والأخير يؤكل مع الناطف وهو سكر مخفوق مع زيت السيرج حتى يصبح أبيض طيب المذاق جداً .

ـ والكنافة البصمة ، وتكون بالفستق أو بالجوز طبقتان من الكنافة المفروكة بينهما طبقة من الحشوة الحلوة . وقد تكون بصمة بالجبن أو بالقشطة .

ـ والكنافة المدلوقة وتكون كنافة نيئة مفروكة مع السكر والسمن وتغطى بطبقة من القشطة عليها رشة من الفستق المبشور.

ـ وهناك النمورة بالقشطة ، والبقلاوة بالفستق ، وبعضها صغير محمص .

ـ وهناك الكول وشكور (كل وأشكر) .

ـ وهناك النهش وهو صحن من النمورة قطعة واحدة يصنع في رمضان .

ـ وهناك المبرومة بالفستق ، والمبرومة المغشوشة التي حشوها مزيج من القشطة والفستق .

ـ وهناك لبنية القشطة وهي (والعياذ بالله) كنافة تجعل مثل الكبة أي أقراصاً مدورة وتحشى بالفستق ثم تسبح في القشطة النيئة، وقلت العياذ بالله لأنها تحتاج لهضمها إلى معدة لم أعد أملكها . .

ـ وهناك الكلاج، وهو قشدة مع قليل من الفستق المبشور ملفوفة بورق رقيق مصنوع من مادة نشوية ، ويصب عليه القطر المعطر بماء الزهر .

ـ وهناك القطائف العصافيري وهي أقراص صغيرة من عجين مشوى قليلاً توضع عليها القشطة وتغمس بالقطر . وكان لنا صديق يأكلها واحدة ثم اثنتين ثم ثلاثاً في لقمة واحدة ثم أربعا فخمساً وهكذا

حتى يبلغ أقصى ما يحتمله الفم ثم يبدأ العد التنازلي ويختم بحمد الله .

وقصص الأكولين النهمين في دمشق كثيرة .

ـ وهناك الستيتية وهي قطايف كبيرة تحشى جوزاً أو قشطة وتقلى بالسمن ثم تلقى في القطر لتتشربه .

ـ وهناك العوامة ، وهي عجين طري ممدد بالماء يلقى في الزيت الحامي فيصبح بلون الذهب ويلقى في القطر ، وهو يقرش تحت الأسنان ولذيذ جداً ، والكبيرة منه تسمى (زنكل) . ولعله هو الذي وصفه ابن الرومي حين قال في وصف الزلابية :

رأيته سحراً يقلي زلابية ... في رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقي العجين لجينا من أنامله ... فيستحيل سنابيكا من الذهب

ـ وهناك حلويات أخرى كثيرة مثل الوربات بالقشطة والفستق ، وحلويات كالتي تصنع في البلاد الأخرى ، ولكن لم أر من يصنع حلاوة الجبن أو حلاوة الأرز، وقديماً كانوا يصنعون في دمشق حلاوة السميد التي تشبه المامونية الحلبية وكان ذلك في الصالحية ثم لم يعد يصنعها أحد على حد علمي في الأسواق .

أنواع الحلويات بالحليب

وأشهر أنواع الحلو المصنوع من الحليب الألماسية التي يضعون فيها ورق النارنج لتعطيرها (١) . والمهلبية وهي أجمد من الألماسية

(١) ـ ومن القصص الطريفة أن احدهم ذهب بوالدته الأرملة المسنة إلى طبيب ←

ويـرش عليهـا السكـر الناعم ، والهيلطية وتكون فيها حبات من المسكة تطيب طعمهـا وهي كثـيرة النشـاء . ثم الأرز بالحليب المـرقـد على نار الفحم حتى يصبح أكثر تماسكاً . وكشك الأمراء الذي يضحكون على ذقـون النـاس حين يسمـونه كشك الفقرا والأصح (كش الفقراء) لأن ثمن ما عليـه من لوز وفستق يفـوق قدرتهم وهذا عادة يقدمونه في الموالد والأفراح . ثم المحلاية وهذه أكلة طيبة تجمد بواسطة (الأنفحة) أو ما يسمـونهـا الملفحة وهي خميرة تؤخذ من معدة الخروف الوليد وهي أكلة دمشقية خالصة .

وهنـاك الحبـوب وهو مجموعة من حبوب القمح والذرة والفاصوليا والفـول وغـيرهـا تطبخ مع السكر والنشاء وترش بالمكسرات وجوز الهند المبشـور وبعض الملبس النـاعم على يانسـون أحياناً وتباع في السوق أو تطبخ وتؤكل في البيوت . كما هناك أكلة تسمى الحبوب بالحليب .

رآهـا تشكـو من معـدتها ، فأحب أن يداعبها فقال لأبنها : أمك لا تشفى إلا بأحـد أمـرين ، إمـا أن تتـزوج أو أن تحتمي على المهلبيـة . فقال الشاب : بسيطة ، الحلاب جارنا وكل يوم نطبخ مهلبية . ولكن الوالدة قالت ممازحة : ولك أبني أنا بقي لي اسنان للمهلبية ؟ ! . .

حلويات أخرى

ومن الحلويات الأخرى البالوظة بالبرتقال ونوع آخر فيه طبقة بالوظة تحتها طبقة حليب مطبوخ تسمى (المبطنة) لأن لها بطانة من حليب ، وبالوظة الدبس التي تسمى (هزازة رأسها) ويوضع فيها جوز ، وسميت كذلك لأنها ترج وتهتز وهي تشبه (الجيليه) (المودرن). وقد تكون مبطنة بطبقة أخرى من الحليب .

وهناك التوتية التي تطبخ من عصير التوت الشامي مع النشاء ويوضع عليها الصنوبر على أنني لن أطيل في هذا البحث مع أنه (لذيذ) فأنا أخشى أن تكون نتائجه إثارة الشهية في مثل هذا الزمان الذي نشكو فيه الغلاء . وأذكركم بكتاب البديري الحلاق الذي ذكر أن رطل السمن صار بمصرية فضجت الناس من الغلاء والعياذ بالله ، في حين أن تنكة السمن الصغيرة اليوم صارت تباع بما يزيد على ٦٠٠ ليرة سورية ، والناس صابرون ويتحولون باستمرار من صنف إلى صنف أرخص ولا نعرف إلى أين سيصل بنا النزول . على أننا مع تكاثر السكان وتضاؤل المساحات المزروعة وتناقص الهمة في الزراعة مقبلون على مصاعب تداركنا الله منها بعنايته .

قحاطة الحلويات

ولكن أكثر ما يحرق القلب أن الفقراء يشترون من محلات الحلويات القحاطة التي تزيد في الصواني وفيها قطر وبقايا كنافة وفستق وجوز ، لأنهم لا يستطيعون أن يشتروا الحلويات التي تكلف أكثر من

عشرة أضعاف .

وهكذا الفقراء دائماً إن أسعدهم الله فلهم (القحاطة) من كل شيء .

مآكلنا والمآكل الوافدة

ولكن الدمشقيين ليسوا من أهلها القدامى فقط كما سلف الذكر وإنما فيهم القادمون والمهاجرون من كل صوب في العالم . وقد جاءهم الشركس بمآكلهم ومنها (الشبسي بسطة) وهي طحين ذرة مطبوخ بالماء ثم يوضع في صينية وفي وسطه (جورة) يسكب فيها اللحم المفروم مع البصل ، ويسقى الكل بالسمن مع البهار ويؤكل بالأصابع . وكذلك (الشركس طاووق) وطريقة صنعه أنه يسلق الدجاج ثم تصنع من مرقه صلصة هي مزيج من الخبز المبلول والجوز المسحوق حتى يصبح ناعماً كالمرهم ومعه البصل والثوم . ثم يسلق الأرز مع حفنة صغيرة من البرغل ، ويخلط جيداً حتى يصبح كالعجين ويوضع في صينية وفي وسطها منخفض فيه الصلصة وقطع الدجاج ويسقى بالسمن مع الفليفلة الحمراء ويؤكل بالأصابع فتغط كل لقمة من الرز بالصلصة ويؤخذ معها الدجاج .

وجاءهم المغاربة بمآكلهم وأشهرها الطعام أو الكُسْكُسُون وهو المغربية الناعمة وتصنع من الطحين الذي يرش بطبقة طحين أيضاً ويجفف واشتهر به المغاربة في دمشق . وقد تعلمنا على هذه الأكلة من دور الأمراء الجزائريين إذ كان المرحوم السيد عبد المجيد الجزائري من

أبناء عم الأمير عبد القادر صديقاً لوالدي . وكانت له شقيقتان إحداهما متزوجة من الاستاذ العلامة الشيخ راشد القوتلي ، والثانية من السيد مصطفى القدسي[1]، وكانت العائلتان صديقتين لنا، وكلما اشتهينا أكلة مغربية أصلية أكلناها في بيت من البيوت الثلاثة ، ثم تعلمنا صنعها حتى لا نظل نطلبها وصارت تطلب منا ، واستدركنا اوعيتها الخاصة بها وهي غير الأوعية العادية ، ولكن الحصول على (الطعام أو الكسكسو الناعم) صعب وأحياناً نجده لدى بعض العائلات الجزائرية وأحياناً نأتي به من أوروبا حيث يباع بالعلب كما تباع التوابل الخاصة به . أما المغربية الخشنة في المطاعم فتصنع من السميد وهي قريبة من الكسكسون .

فهد أبو الزنكا

ومما يذكر في الشام ان مغربياً درويشاً وظريفاً اسمه فهد أبو الزنكا كان يقيم في كل عام وليمة مغربية لاصدقائه من ظرفاء دمشق ووجهائها ، وشرطه عليهم أن يأتي كل واحد معه بملعقته في جيبه ثم يأخذها معه . لماذا ؟ ربما لكي يجعل للقصة طرفاً ظريفاً . واعتقد أن ضيوفه كانوا يردون له الجميل في أية مناسبة لما يلحقه اجتماعهم عنده بهم من السرور .

ومن المآكل التونسية والشمال افريقية عموماً أكلة الشكشوكة وهي أكلة بالبندورة والبصل مع التوابل .

وجاءنا الأرمن بطعامهم وأهم أصنافه (البسطرمة والسجقات

(١) والد الصديقين الدكتور عبد الباقي قدسي والاستاذ محمد كامل القدسي .

والنقانق) والصفيحة بالثوم والفليفلة . وترك الأتراك لنا مآكلهم وأبرزها فيما ذقت (الشوربة تربية) وهي شوربا بالطحين ومرق اللحم والبيض والحمض ، والقزارتمه وهي لحم مطبوخ بمرق البندورة مع البطاطا والأمام بايلدي بالباذنجان مع البندورة والبصل والزيت واليالنجي وهو أنواع من الملفوف أو الباذنجان أو الكوسا المحشو بالأرز والزيت ، و (القادن بضو) أي لقمة الخانم وهي لحم مدقوق مع الرز ثم يقلى وغيرها . واهل حلب علمونا مآكل كثيرة منها المحمرات وأنواع الكبب ، وأهل حماة علمونا الباطرش وهو متبل باذنجان باللبن فوقه لحم مقلي بالسمن ، وأهل حوران علمونا المناسف ، والحماصنة عندهم السختورة ، وهم مع أهل حماة علمونا (الشلكات) المغرقات وهي نوع من الحلوى ، والغربيون علمونا البفتيك والستيك ومالا أدري أيضاً ، ولكن الأكلة الشامية ما تزال تستهوينا .

وأعذروني إذا لم أكمل ، فهاهنا تنتهي معلوماتي وما ملكت في حياتي مطعماً ولا أدرته وقد صرت في أيام (الريجيم) ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الأشربة

ولدمشق أشربتها ، لا أقول الخاصة ، ولكن أقول المميزة . فالعادة أن يحضر الميسورون وغيرهم إن استطاعوا ولاسيما في رمضان ، شراب منقوع القمر الدين . والقمر الدين هو عبارة عن مشمش تنزع لوزته ويمعك حتى يصير مثل الشراب الكثيف ، ثم يصب على دفوف خاصة به تحمل اسمه أيضاً ، ويترك حتى يجف ، وعندها وقد اصبح

مثـل بسـاط طولـه متران تقـريباً وعرضه شبران يدهن بقليل من الزيت حتى يلمـع ولا يتكسـر ويحـافظ على طراوته ، ويلف ربطات . والقمر الـدين صنـاعـة طعامية شامية مشهورة وكان فيما مضى من أهم ماتورده دمشق إلى مصـر وغـيرهـا من البلدان ، حتى صارت هذه البلاد تمنعه أخـيراً خشيـة من انتقـال بعض الأوبئـة عن طريقه لانه يجفف فعلاً في العراء بدون حيطة صحية . كما أنهم في السابق كانوا يمعكونه بالأرجل الحافية ومن ذلك الموال الضاحك الذي سمعته في دمشق ويقول آخره : بوصيـك يا صاحبي لا تضمن ضمنـة فيهـا توت بيلهيـك عن المشمش أيضاً عن المعاك ، ولعل فيها تورية لشيء آخر أيضاً . . ومن الفكاهات أن واحـداً ممن سمعوا بذلك أنف ان يأكل القمردين لأنه ممعوك بالأرجل الحـافيـه وقـال ذلك لمن قدمه له ، فأجابه ذاك مدافعا : لا يا سيدي ، الآن يمعكـونهـا لا بسـين الصبـابيـط ! . . . وجاء يكحلها فأعماها كما يقول المثل الدمشقي .

أمـا الآن فيصنـع القمـردين بطرق فنية وآلات نظيفة ، فاذا جاء وقت استعـمالـه نقعـه من يريد بالماء فعاد شراباً طيباً حلواً ومريحاً للمعدة ومساعداً على الهضم وقيمته الغذائية كبيرة .

ومثـل القمـر الـدين المنقـوع ، وهـو مشمش مجفف ولكن بالحبة فتكبس حتى تصبـح مبسطـة تقـريبـاً وكـذلـك فانها عند الاحتياج إلى استخـدامهـا توضـع في المـاء وطعمهـا طيب المذاق وهناك أكثر من محل متخصص في تقـديم منقـوعـات المشمش وسواه من الفواكه المجففة مع اللوز والفستق والثلج . .

التمر هندي والعيران والليموناضه والصليبه

ويستخدمون أيضا منقوع التمر الهندي المصفى مع السكر . وفي صغرنا كان هناك بائع تمر هندي ينادي عليه باسم غريب فيقول (كوجارات) . وأنا أعرف أن هناك شايا اسمه الكوجارت .

ويحبون في دمشق اللبن الممدد بالماء المعروف باسم (عيران) وهذا هو الاسم التركي المشهور . وبعض باعته يضيفون اليه الثوم المدقوق مع الملح فيطيب مذاقا لشرابه ويسوء ريحا لمن يشم حوله . ويباع هذا اللبن من باعة يحملون مرطبانا كبيرا أو سطولا .

ومعروف أيضا شراب الليمون والبرتقال ، مع السكر والماء المسمى (ليموناضه) من الاسم الفرنجي المأخوذ أصلا عن العربية لأن كلمة ليمون عربية ثم انتقلت للاسبانية وبعض اللغات الاخرى .

وهناك شراب البزورات وهو مستحلب المكسرات والزنجبيل والجلاب ولكنه أقل استخداما في دمشق مما رأيته في بيروت . وفي بعض المواسم يشربون الصليبه وهي ماء العنب قبل أن يتحول الى ديس وكانت هدية أهل دوما لأصحابهم من الدمشقيين فيهدونهم الصليبة أو الدبس .

العرقسوس

أما الشراب الأكثر شيوعا في دمشق فهو العرق السوس . وفي الصيف يأتون بسطول السوس فتكون شرابا طيبا ونافعا . وعرق السوس يوجد في باديتنا ومنها يباع الى أنحاء عديدة في العالم حيث

تصنع منه أدوية نافعة للمعدة . وفي دمشق كما أعرف مطحنة للسوس . وعندما يراد نقع طحين السوس يبل أولاً بللاً خفيفاً ويترك حتى يتخمر ويضاف اليه قليل من بودرة ـ الكربونات ثم يلف في قماش منخلي رقيق ، ويبدأ الماء يصب عليه فيتقطر ثم يعود فيصب عليه مرة جديدة ويتقطر هكذا حتى يصبح خميرا ، وهنا يضاف اليه عطر خاص اسمه (التقطيرة) ويبرد بألواح الجليد ويشرب . ولايزال لعرق السوس هواته ومكانته ، وكان يوزع أحيانا في المناسبات على روح المتوفي.

بائع العرقسوس

وفي الثلاثينات كان يبيعه باعة العرقسوس من (دبية) لها مصب وفي طاسات نحاس ويحمل بائع العرقسوس طاستين من نحاس يحرك احداهما على الاخرى بالابهام والسبابه بنغمة معدنية حلوة ترن في سمع الناس كلهم ايذانا بمقدمه . والآن قل باعة العرقسوس الجوّالون الا في بعض الحفلات التي يراد أن تكون لها صبغة فولكلورية فيؤتى به ليصب للضيوف وقد استخدم العرقسوس كمادة فولكلورية في مسرحيات عديدة .

وأذكر أحد باعة العرقسوس كان ينادي في دمشق نداءات غريبة ولطيفة فيقول بنغمة حلوة : الميه فيجه والتلج معمل ياخال ، قرب علينا قرب ، والحلاوة زايده . هذا اللي وصفه التكتور (أي الدكتور) لابنه ياخال ، قرب علينا قرب ، والحلاوة زايده . . . وكان وجه الدعاية الصحية في ذلك الاشارة الى نظافة مائه وجليده لأن الدمشقيين

قبـل شيـوع الـبرادات في البيـوت كان لديهم معمـل جليـد في زقـاق الصخـر ، ولكن أكثـرهـم كان يشـتري الثلج الطبيعي الـذي يأتي به الباعة من مغارات في جبال حلبون العالية فيشتريه الناس ويأكلون معه الـدبس ويسمـون ذلـك (سـويقـاً) وهذا البائع نفسه كان ينادي أحياناً بقوله (تمر هندي سلطان الشراب . . الخ) .

نداءات الباعة

مادمنـا في ذكـر المنـاداة على بعض أصنـاف الشـراب فلأذكـر نداءات البـاعـة فانهم أيـام كانـوا يبيعون الخضار والفاكهة على دوابهم وعـربـاتهم كانـوا يتفننون في ذلك . ومن أشهر مناداتهم : أصابيع الببو ياخيـار (والببـو هو الطفـل الـرضيع) . هيه موز ياكوسا . عالشكليطه يامـوز (تشبيهـا للمـوز بالشوكولاته) . ياعيار بتندم عالعدس ، حوراني ومغـربـل هالعـدس . بلودانيـة يافاصوليا . يامال اللوان ، الله الدايم (للخس) دليل أنه من بساتين الربوه ولايبقى طويلا . ياكريم (بائع الكعـك) (وبعضهم يقـول عمن لا يؤمن الا عنـد الحـاجـة إنـك مثـل بائـع الكعـك لاتقول ياكريم الا عندما تصبح تحت الفرش) . حرص النيـل يانفع (لنوع من النباتات البرية) . للمونة يابصل . الهوا رماك ياناعم (للجرادق) . كل الليالي فضال ياليلة الله (لنوع من السكاكر اسمه ليلة الله) . ياملوخية طروات . هلأ طلعوا السخنات ، الغدوه الغـدوه (للصفيحـة) . فلافـل فلفلوكي . ليـة الـراس - (لرؤوس الغنم) . بردان تعا صوبي بردان ، وهلأ طاب أكل العسل (للشوندر

المسلوق) عالمكسر ياأخضر (للبطيخ) طيبة وباردة هالصبارة بتبل القلب ياحلوة ـ مزاوية ياحلوة . وبدوية ياسمرة (للكمأة) وحلي سنونك ياولد (لبائع السكر الطري) وينادون على الجانرك بقولهم شحرز يامال الوادي ، أي صار مثل الشحرور . وعلى القثاء على ضوء القمر مدت هالقته . . . الزعترات البيتيات . بلبلوكي يابليله . طلعت ايده هالنابت (للفول) ودرن درن يازعبوب . وأول فواكي الشام ياعوجة . وبوظ كبي عيران لأحد باعة اللبن الممدد بالماء .

وكان هناك بائع دوندرمة تركي الأصل ينادي بنغم لايزال في سمع القدامى (دوندرمه شكر ، دوندرمه قيمق ، دوندرمه . ستلي . شكرلي ، قيمقلي دوندرمه) . أي مبرد بالسكر بالقشطة بالحليب . . . الخ .

وبائع الحليب له نغمة معروفة هي (حليوهيب) . وبائع الفول ينادي على (فول القدر) وكان لنا قريب اسمه أبو فهمي يسكن جنبنا عمره ما اشتغل متعيشاً ولكن كان له (مراق)[1] بالمناداة ليجرب صوته فيظل وهو سائر ينادي ، هيه موز يا كوسا ، عالشكليطة يا موز فيضحك أهل الحارة .

صورة ضاحكة

وكان هناك لحام في باب الجابية شكله عجيب فرأسه صغير وجسمه ضخم وكرشه هائل وله شوارب وخال كبير ونصف أصلع . وكان من عاداته أنه حين تمر في باب الجابية في طريقها الى السنانية

---

(١) مراق: تعبير عامي شامي يعني الولع بالشيء.

(حيث كان المحل العمومي) أومن السنانية إلى البلد واحدة من بنات الخطأ[1] يمسك بألية خروف مما يعلقه أمام دكانه ويبدأ ينغم بصوت عال ليسمع أهل المصلبة : أي شوها للوايا والله مثل الجدايا خالي . . . ثم يقول بطرف حنكه الواحد (بررررر) وهي حركة كان يتقنها أبناء البلد وحدهم ، ثم يلصق على الآلية التي يرطلها قطعة من قصب الشوكولاته . . . والناس يضحكون ، وحتى تلك التي يلطش لها تضحك وقد تغمزه أيضاً .

يارب ما أكثر خلقك

كما كان هناك في باب الجابية بائع كوسا محشي ينادي نداء واحداً لا يتغير هو(ياربي ما أكثر خلقك) . فكان إذا سأله من يثق به عن سر هذه المناداة أجاب انني من ثلاثين سنة أبيع كل يوم كوسا لا يأكله أحد من سوء حشوته ، وعمره ما أحد أكل مرة وأعادها ، ومع ذلك كل يوم تنفق الحلة ! . . .

يللي بدو يصالح حماته

وللمفارقة كان بعضهم ينادي على السكاكين : (يللي بدو يصالح حماته) وهذه توريه .

---

(١) بنات الخطا تعبير عامي شامي يعني: بائعات الهوى.

من تقاليد الطعام الشامية

وتقـاليـد الطعام الدمشقية التي عرفتها في صغري وتربيت عليها عديـدة . منهـا ما هومشترك بين الناس كلهم كغسل الأيدي والبسملة قبل الطعام ، وعدم فتح الفم أثناء المضغ ، وعدم الحديث واللقمة في الفم . وكـان أهلنـا يؤ كـدون علينـا بذكـر الحـديث : كل مما يليك . وكـذلـك كان علينا أن نصغر اللقمة فيقول الأهل (كلوا نونه نونه) أي بلقـمات صغـيرة ، وأن نأكـل الادام مع الخبـز حتى يكفي الطعـام الجميع . وكان بعض الأسر تميز الكبار عن الصغار فأطيب الطعام للكبار، ولكن الأمر انعكس الآن فالطيبات للصغار.

ومنها ما هو خاص بالتاجر وصاحب الدكان الدمشقي الذي يأتيه الطعام ظهراً في سفرطاس ، ويحمل مجموعة السفرطاسات واحد مختص يلمهـا من البيـوت عند الظهر ، ويعلقها بعصا طويلة يحملها على كتفه ثمانية أوعشرة وهي تهز حتى إذا وصل إلى محل كل تاجر أخذ سفرطاسه المسمى أيضاً (المطبقية) . ويروون للضحك عن تاجر دمشقي بخيل انـه كان يديـر ظهـره للطـريق حين يفتـح المطبقيـة ليأكـل حتى لا يرى احـداً ولا يضطـر لدعـوته ، لأن زاد الرجل كما سبق القول يكفي اثنين ولكنهما يقـوم جائعـين. وحـدث مرة ان سمـع التـاجـر اثنـاء الأكـل صوت شخص يعـرفـه فالتـفت فرآه. واستحى ألا يعـزمـه فقـال له : تفضـل ، تفضـل، والـله إلا تجي . فلما رأى ان الـضيـف قبـل الـدعـوة سارع إلى تغميس لقمـة لهذا الضيف (النـاوي) وقـال له : من شان خاطري ، بس هاللقمـة . وبـذلـك كتّفـه فلم يعـد يأخذ غيرها ، كما فعل ذلك

البخيل في قصة الجاحظ المماثلة . حين قال للزائر : تفضل ، قال قد والله فعلت ، فأجاب البخيل : ما بعد الله شيء ، فكأنما والله كتّفه .

اشباع العين قبل الفم

في دمشق تقاليد اساسها اشباع العين قبل الفم لأنها هي التي تقرر الأنفة ومن المألوف ان يقولوا فلان عينه شبعانه . ولذلك فمن عادة أهل الميدان القدامى وهم مشهورون بالكرم أنهم يضعون معجن الخبز إلى جانب الضيف كي لا يحسب ان الخبز مقنن والدمشقيون عامة معروفون بانهم يحلفون على ضيوفهم الايمان المحرجة ليأكلوا ويأكلوا .

حكاية الطبيب ورديشان

ومما يروى في هذا الصدد أن الطبيب القديم (كان في أول أيامي أو قبلها) ورديشان عزموه في الميدان فذهب إليها راكباً حصانه ، وكان (المهيا) كوسا محشي وقبوات .

أكل الرجل كما يأكل طبيب صحة يعرف النتائج . فحلفوه ، فأكل زيادة مسايرة لهم . وهنا أمسك صاحب الدار (بقباوة) وحلف على ورديشان بالطلاق أن يأكلها . اضطر ورديشان إلى أن يساير حتى لا تطلق المرأة ، ثم طلب شعيراً لحصانه . اطعمه حتى شبع ، فخاطب ورديشان الحصان قائلاً (من شاني كل كمان) ، فهز الحصان

رأســه رافضــاً . حلف عليـه لم يقبـل . حلف عليـه لم يقبـل . حلف بالطلاق فظل الحصان يرفض . فقال له ورديشان : (بحضي (١) إنك أفهم مني) !

وكـان أبي لا يحتـاج أن يحلف علينـا لنأكـل ، ولكنـه كان يعرف قيمة شبع العين فلا يشتري البطيخ إلا بالشليف ، كل عشرين ثلاثين واحـدة معـاً ، وقد ينفرد واحدنا بالبطيخة ولكنه لايكملها ويشبع . ولا يشـتري الاجـاص والتفـاح والعنب الا بالسحـارة . وذات يوم قال له أخي بعـد ان عاد من أوربـا ورأى فيها عاداتها : لماذا لا نكتفي بصحن فاكهـة ممتـاز عن سحاحيرك الملأى ؟ قال أبي مبتسماً : جرب . وذهب أخي إلى دكـان جار لنـا فاكهـاني فاشترى بالغالي أنواع فاكهة صفها في جاط حتى صارت لوحة تليق بالفنان سيزان ، وجاء بها إلى الدار . وفي تلك اللحظـة شرف زائـر لا اسميـه ، وهو من أصحاب أبي المشايخ ، فقدم له أبي الجاط ، فأكل ثلاثة أرباعه بخمس دقائق . هنا عاد أخي إلى الوالد وقال له : السحارة أفضل .

وكـان أبي يعـرف التجار في سوق الهال فيبيعونه السحارة الكبيرة بما يقرب من رأسمالها وعمرنا ما أكلنا أكلة إلا وشبعنا جداً منها نحن وضيوفنا .

وبـالمقـابـل يروون في دمشق نادرة أخـرى ينسبـونهـا إلى أهـل الصـالحيـة مقـابـل ما يشاع عن كرم أهل الميدان ، اذ يسمون العزيمة الباردة بالعزيمة الصالحانية . ويقولون عن أهل الصالحية إنهم يضعون

---

(١) يمين شعبية أصلها القسم بالحظ .

المـاء بعيـداً عن السفرة فاذا عطش الضيف وقام إلى حيث الماء ليشرب قالوا له (ما حلّك تشبع) (٢) ! . . فيستحي ويعتبر انه حان وقت ان يشبع ولا يكمل طعامه .

وهـذه من الفكـاهات التي لا أساس لها تماماً مثل الكلمة المأثورة عن أهـل حلب التي يقـولها الـدماشقة : ان العزيمة حلبية أي (خيط مطـه كل من عليـه شيء بيحطـه) ، وقد عرفت في حلب انهم يسمونها بالمقابل عزيمة شامية ، واشهد لأهل حلب انهم يبالغون في الكرم والإكرام .

الولائم في المناسبات

وللطعـام منـاسبـات تولم فيهـا الولائـم منها سفرة الخلاص عندما يولـد المـولود فيقوم اهل النفساء بعد ولادتها بمدّ سفرة طيبة المآكل لتأكل منهـا القـابلة (الـدايـة) ومن كنّ حاضـرات بالطلق ومشغـولات بوجـع الأم التي تلد عن الطعـام . ومنهـا أيضـاً وليمة الأسبوع حين يمضي اسبوع على ولادة المولود .

ولائم الأفراح

وفي الأعراس تولم الولائم لكل المدعوين يوم العرس ، وأغلب ما كانـوا يقـدمـونـه . في أيـامنـا الأوزي الصـرر (من كلمـة قوزي وهي

(٢) أي ما حان لك أن تشبع .

الخروف بالتركية) وهو رز بلحم وصنوبر ولوز وفستق ملفوف بعجين ومشوي في الفرن ، ومعه (وربات القشطة ووربات الفستق) وهي مثلثات من العجين محشوة بالقشطة ، أو بالفستق أو بالجوز على حسب حال صاحب الوليمة ، وكل ذلك يسقى بمحلول السكر المسمى في دمشق (القَطْر) .

. . وولائم الأتراح

والشيء نفسه يفعلونه يوم موت الميت ويسمون الوليمة (فتح الفم) ويدعون إليها الأقارب والأصدقاء المقربين ممن حضروا العزاء وحضروا الجنازة . وقد كنت أكره أن أحضرها أو ادعى اليها وأرفض ثم عرفت فائدتها وهي إجبار أهل الميت على أن يأكلوا إذ أنهم غالباً ما يكون مضى عليهم أربع وعشرون ساعة دون طعام ، ولذلك يسمون هذه الوليمة فتح الفم ، أي فتح فم أهل الميت ليتبلغوا بشيء من الطعام رغم حزنهم . وتعاد هذه الوليمة في أربعين الميت ويدعى إليها عندئذ المشايخ ومن يسمونهم في دمشق باسم (السلتجية) أي الطفيليين الذين ينتظرون مثل هذه المناسبات ولا يهمهم لا الميت ولا أهله وإنما يهمهم بطنهم . وهم كثر ، ومن زعمائهم في دمشق الشخص المسمى (ضبضبت) وكان من أهالي سوق ساروجة ، وشعاره الذي لا يترك فمه : إيمتى ياسيدنا ؟ أي متى تدعونا ؟ وكان الظرفاء يقلدونه طلباً للولائم من اصدقائهم أيضاً حتى راجت هذه الكلمة وأصبح اسمه علماً على التطفل كما كان يفعل أشعب في زمانه .

السيارين

أمـا ولائم النـزهـات فمعـروف إنها تتركز غالباً على صنفين هما الصفيحـة وهي لحم متبـل يوضـع على أقـراص عجين ويشوى بالفرن وهي إما أن تتبل بالبندورة وأما باللبن وحمض الرمان ، وفي كلا الحالين يوضع معها بصل مفروم وصنوبر ، ولها أفران تشتهر بها .

ثم اللحم المشـوى و (المعـاليق) أي رئـات الخـروف (وتسمى الحمـراء) وكبـده (وتسمى السـوداء) مع القلوب والكلاوي وبيضات الغنم ولهـا مكـان الصـدارة أيضـاً في السيـارين . وعندما يذهبون إلى السـيران تكـون معهم العـدة وهي منـاقـل الفحم والاسيـاخ والمعاليق واللحم وأدوات السلطة فيشمر واحد أو أكثر من أجل أن يقوم بالشواء ، ويبـدأ المشـتركـون بالسـيران يتخـاطفـون الأسيـاخ ويأكلونهـا بشهيـة مضـاعفـة . أن تقـاليـد السيران الدمشقية تقاليد مزدهرة ، وقد خفف منهـا انتشـار المقاهي التي تقدم الأطعمة للميسورين في أماكن النزهات فيوفرون عناء التحضير ، ولكن العائلات الشعبية ما تزال تفعل ذلك أو تأخـذ طعـامها من البيت ، ويكون من اصنافه الفول المدمس بالحمض والـزيت والمسبحـة المصنـوعـة من الحمص والطحينـة (وهي عصـير السمسم) والحمض ، والكشكـة الخضـراء التي تصنـع من الـبرغـل المخمر بالحليب واللبن حتى إذا صار حامضاً أضيف إليه الجوز والبصل والبقدونس والزيت .

هذا وأقـول أن السيـارين الشعبية كانت شيئاً مميزاً ، وقد وصفها بصـورة كاريكـاتـوريـة ممتـازة الفنـان دريـد اللحـام في أحـد مشـاهده

التلفزيونية حين أظهر كيف كان الدمشقي القديم إذا أخذ عائلته للسيران حجبها بالستائر من كل الجوانب حتى يكاد السيران ينقلب عذاباً للنساء ، ولكن هذا التشدد خف الآن في أكثر الأوساط الشعبية .

سيارين دمشقية

وقبل أن اختم حديث السيارين أقول أن أهلي حدثوني عن أنواع منها بينها السبتيات (وهي الخروج مساء يوم السبت) إلى صدر الباز وهي الحدائق والبساتين التي كانت توجد حيث يوجد مسرح المعرض الحالي . وبينها سيارين إلى منطقة كيوان والربوة ودمر وسائر الوادي وبينها سيارين إلى بساتين المنطقة التي تعرف الآن باسم العدوى وهي التي كانت تحت الصالحية والأكراد وهي منطقة جميلة وهواؤ ها يسمى هواء العناب لجودته . ومنها سيارين إلى منطقة الصوفانية والزبلطاني مما يلي القصاع وذلك لوجود النهر والبساتين والجو المرح غالباً . وكانت فيها الملاهي العديدة والمقاهي المعروفة وغناء وموسيقا كما كان عند ملتقى القصاع بباب توما حدائق تسمى بقصر البللور بقيت حتى الأربعينات . وروى الاستاذ احمد حمدي العلاف أن الناس كانوا يذهبون في السبتيات إلى جوبر ليتفرجوا على اليهود في يوم عطلتهم لان الكنيس في جوبر ، ويوم الأحد الى الصوفانية لأن المسيحيين يعيدون هناك ، ويوم الاثنين إلى (سيدي دحية) ، والثلاثاء إلى صدر الباز ، والأربعاء إلى برزة ، والخميس إلى بساتين الميدان والجمعة إلى

الصالحية . ولكنني منذ العشرينات التي وعيتها لم أر ذلك .

وأقول بهذه المناسبة ان وجود المرأة المسيحية سافرة وتخرج إلى الطريق كان يخلق جواً انيسا إذ الفرق كبير بين ان يكون في الجو نساء أو لا يكون ، ولذلك كانت أحياء المسيحيين تعج بالناس من كل الأديان في أيام الأحد والمناسبات . ولكن يجب القول أن المسيحيين في دمشق متحفظون جداً ، وفيما عدا كشف الوجوه فهم متشددون في قضايا السلوك والأخلاق ولهم هيبة واحترام لدى الدمشقيين جميعاً . بل كانت النساء المسيحيات في حي باب المصلا يتحجبن كالمسلمات تماماً .

وما دمنا في حديث السيران اذكر لكم هذه القصة . تهاجى مرة محاميان ظريفان هما الشاعر الأستاذ هنري بيطار واحد اصدقائنا من الزملاء المحامين، وكان هذا الأخير قد هجا بعض الدمشقيين الذين عقلهم في جيوبهم . فدخلت أنا بين الاثنين بقصيدة عنوانها التدخل افتتحتها بذكر الأخوين المحاميين الاستاذين هاني بيطار وشقيقه هنري ، وهي من شعر الفكاهة بالطبع :

في شعر هنري أو فصاحة هاني ... فيض من التنظيم والدوزان
ما أن يخل ولا يزحزح شعرة ... فلقد تألق بيننا الأخوان

وبعد أبيات كثيرة في هذا الاستهلال أقول :

ولقد كبا هنري بشعر قاله ... في الطف الزملاء ، في عدنان
عدنان ليس عليه إلا مأخذ ... فالشام تعتب هجوه المجاني
إذ لم يفرق بين شهم ماجد ... يرعى الذمام وصاحب الدكان
جعل الدمشقيين داخل سلة ... فكأن واحدهم مثيل الثاني
وأنا دمشقي أحب رجالها ... وأحب أيضاً سائر النسوان

وأحب ساحات البيوت وبحرة	خداقة وطنافس الليوان
والياسمين وفلة ثرثارة	بالعطر شيء رائع رباني
لاتحسبوا أني أقلد في الهوى	نجوى نزار الشاعر القباني
فانا شميم من شذا بلدي ، أنا	كحجارة الأموي والقيشاني
وأنا القنابيز التي بحريرها	تزهو أنا الدامسكو والأغباني
وأنا كؤوس الشاي تشرب لذة	وأناقة في صبح شاذروان
وأنا البساط على التراب وأهله	يتأنقون بجعبة السيران
فاذا دمشق شتمتها فعنيتني	وهجوت كل الخير والإحسان

إلى آخر القصيدة وهي من /٦٤/ بيتاً عن دمشق لوكان لي مثل عددها من بيوت في دمشق لكنت أغنى الأغنياء . . .



لفصل التاسع

المناسبات الاجتماعية والاعياد

كنـا ونحن صغـار نظـل نسأل الـوالدة أن تحكي لنا كيف خطبها الوالد ، فتبتسم وتشيح قائلة : يوشوبدكم بهالسيرة . ولكننا نظل نلح ونضحـك حتى تقـول لنـا أن خالي المرحوم صلاح كان يعمل نجارا مع الـوالـد ، وأحبـه فعـرض عليه أن يزوجه أخته . نقول لها : فاذن أنت خطبت أبـانـا . . تقول : لاوالله العظيم . هوأرسل عمتكم الى بيت أهلي فطلبتني .

ولم يكن بين أبي وخالي أية قرابة ولكنها الزمالة في العمل . وربما كانت هذه الزمالة من أكثر مايربط الاسر لأن المعروف أن الصانع المتفتح

كان يعجب معلمـه في الحـرفة ، فيعرض عليه الاخير أن يزوجه ابنته ، فينتقـل الصـانـع الى مرتبـة الصهـر ، وبـذلـك تبقى الحرفة في العائلة ولايوجد منافس معين .

أمـا الطـرق الاخرى لتقريب العائلات وعقد الزواج فكانت أما القرابة وأما توسط بعض الخاطبات .

الخطوبة

أكثر ماكان يجري في الاسر أن تعتبر ابنة العم لابن عمها ، فان كنّ أكثر من واحدةوكانوا أكثر من واحد فبالترتيب . وعندما تولد البنت يقـولـون وهم يقطعـون حبلهـا السرّي هذه البنت لفلان ويسمون ابن عمهـا غالبـا ، وعنـدئـذ تصبح هذه الخطوبة بموافقة الطرفين ملزمة ، ومنهـا يستمـد ابن العم حقوقه على ابنة عمه حتى ليستطيع أن يعارض في زواجهـا من الغـريب ولـو أرادتـه وأرادها . وكان المثل يقول عن ابن العم أنـــه (يخطف بنت عمـــه من الجلوة) أي حتى وهي تزف لخاطب غريب لأن التقـاليـد كانت تعطيه هذا الحق (ويسمى حق الرجحان في الشرع باسم الشفعة) .

وكـان قطـع سرة البنت على فلان من أبنـاء عمهـا يحجبهـا عن سواه ، الا اذا استشير في ذلك وأطلق لها الحرية . ولما كنت أنا لاأسجل التقاليد فقط وانما لي دور اجتماعي عرفت به في تلطيف التقاليد وتعديلها ونقـدهـا ، فأقول الآن أيضا ماقلته مئات المرات في برنامجي الاذاعي أو التلفـزيـوني بأنـه ليس في الشـرع ولا في القـانون حق شفعة لابن العم على ابنـة عمـه وأنـه لا (قطـع السرة) ولا قراءة الفاتحة ولا حتى تقديم الخـاتم والبـاسـه للبنت يقيد هذه البنت أويعتبر عقدا وتظل حرة في أن تقبل اتمام الزواج أو ترفض .

وكنت أؤ كد ذلك لأسباب أهمها تعسف أبناء العم في استخدام هذا الحق لاثبات التسلط ، ولأن ابن العم قد يكون أزعر لاعمل له وابنة عمه المسكينة فتاة تستحق سواه ويستحقها سواه فلا يجب أن نسلطه عليها تحت أية حجة ، لأن الزواج عقد يقوم على الرضا المطلق فلا يجب أن يفسد بأي شكل من أشكال الضغط أو الارغام .

انما في الماضي كما قلت لم يكن الأمر كذلك ، وفي بعض المناطق وبعض الاوساط لابد من استرضاء كل الاهل واحدا واحدا ويعطى لهم (البرطيل) لكي يقبلوا زواج البنت من غريب .

السمسارة والخاطبات

ولكن اذا لم يكن هناك خاطب موجود ومسوكر ، كالصانع الخلوق الجيد في حرفة معلمه ، أو مخطوبة مقطوعة سرتها على الشاب ، فكان أهله يبحثون له عن طريق السمسارة التي تحترف ذلك وتأخذ عليه أجرا وفي أكثر الاحيان عن طريق الخاطبات من الاهل .

فتجتمع بضع نساء من أهل الشاب ويستعلمن عمن لديهم بنات للخطوبة ومن مواصفات معينة كالوسط الاجتماعي والعمر والطول ولون الشعر والجمال ، وسمعت أخيرا بحادثة لطيفة اذ أن

خاطبات طرقن بابا على سيدة يسألن عمن لديه بنات في سن الزواج ، ولكن بشـرط أن يكـون معهن بكـالوريا علمي لأن الخاطب معه شهادة علميـة ويـريد أن يكمل دراسته في الخارج ويريد واحدة تذهب فتكمل الدراسة معه . وهذا شرط حسن ودليل ذكاء بلا شك !

(فحص) المخطوبة

وسـواء أكانت الـدلالـة على البنت بواسطة السمسارة أو بواسطة الاهــل والاصحــاب والجـيران والمعـارف، فإن الخـاطبـات كنّ في العـادة - وأعني في المـاضي الذي أتكلم عنه ،يذهبن فيزرن أهل البنت ، ويطلبن منهـا كأس ماء ليرين كيف تقبـل نحـوهن وتدبر عنهن فتظهر مشيتها ، وبعضهن يطلبن منهـا أن تصعـد الـدرج أو تحمـل فراشا ليرين قوتها ، وقــد يقــدمــن لها لوزة لتــقــضــمـهــا ويــريـن قوة اسـنــانـهــا ، وعند المغادرة يقبلن فمها ليرين هل لها رائحة فم أو رائحة جسد ، حتى اذا أعجبتهن رفضن شرب القهوة ليبقى لهن نصيب ويرجعن مرة اخرى .

الاستخارة

وهنـا كانـوا يلجأون للاستخارة أحيانا وعند الحيرة لا عند وضوح المـلاءمـة فيسألون أحد المشايخ أو أحد الاقارب الصالحين أن (يبيت) الاستخارة وتكون بالمصحف أو بالسبحة أو المنام فاذا كانت الاستخارة

ايجابية أعطى الاهل الموافقة . وهذا من الامور غير المعقولة وقد تضاءل في الوقت الحاضر .

ثم بعد الموافقة على البنت يعطين اسم الشاب وعمله ومن يعرفه ويبدأ سؤال أهل الطرفين عن الخاطب أو المخطوبة ولا أزال أنا أسمع من يسألني عن بنت أو شاب من الاقارب أو المعارف أو عن سيدة أو رجل كانا متزوجين وطلقا عن طريقي وذلك بمناسبة خطوبة جديدة لاحدهما .

(فصيلة) النقد

ثم اذا تبين أن الشروط مناسبة جاء وفد من أهل العريس الى أب العروس بعد اخبار مسبق وتبدأ عملية المفاصلة على المهر ، وكانت شيئاً عاديا ولا يزال الاهل يقيمون للمهر اعتبارا ومعهم كثير من الحق لأنه يشكل رائزا يكشف حال الخاطب وكرمه ورغبته ، كما يعتبر ضمانا ضد الطلاق المتعجل . فالطلاق يمكن أن يستعجل به الزوج اذا كان غير مكلف له ، ولكن الكثيرين يكرهون الان (فصيلة) النقد أي المفاصلة عليه وصاروا يعتبرون أنها شيء مخالف للكرامة الانسانية . والرأي السائد الآن أن يكون المقدم رمزيا وأن يكثروا من المؤخر ، وهذا معقول لان المؤخر لايستحق فقط بالطلاق وانما يستحق بالوفاة ، ومعلوم أن حصة الزوجة من الميراث وهي (الثمن) في حال وجود الاولاد لاتؤمن لها أي ضمان ولو لفترة قصيرة بعد وفاة الزوج ، فاذا كان المؤخر كبيرا فهو يضاف الى المهر ويعتبر من

الديون الممتازة المقدمة على سائر ديون الميت . ولذلك فأنا أنصح به ولا أرى الخجل في شأنه شيئا مستحبا .

تلبيس الخاتم

ثم تبدأ سلسلة من المراسم منها تلبيس خاتم الخطوبة ومعه هدية سوار أو ساعة أو أكثر من ذلك ، ويبدأ تبادل الهدايا وأكثرها من الخاطب . وصار الناس الآن يتساهلون في مقابلة أحد الخاطبين للآخر باسم التعارف وفي حضور الأهل وأحياناً بلاحضورهم ، في حين كانت التقاليد الماضية لا تسمح بذلك فلا يرى الخاطب في أغلب الأحيان مخطوبته الا ليلة الزفاف .

العقد

وكان (كتب الكتاب) أي عقد القران رسمياً وشرعياً وفق التقاليد القديمة يتم في احتفال مقترن دائماً أو غالباً بقراءة المولد النبوي وتوزيع (صرر) الملبس على المدعوين بعد أن يعقد العقد ، ويكون العاقد عادة من موظفي المحكمة الشرعية . وهذه مناسبة لنقول أن العقد الشرعي ماهو إلا إيجاب وقبول وغالباً ما يقوم به أبو البنت وكيلاً عنها والزوج أو أبوه وكيلاً عنه . فيأتي موظف المحكمة ليطلب المخطوبة دون أن يراها ويسألها يا فلانة وكلت أباك بأن يعقد قرانك على فلان فتجيبه نعم ، ولا يتأكد من شخصها ولكن كان هذا يمر دون اشكالات . ثم يضع أبو البنت يده في يد الخاطب ويقول زوجتك

وانكحتـك موكلتي فلانــة على كتــاب الله وسنـة رسـولـه على مهـر معجله كذا مقبـوض (أو غير مقبـوض) ومؤجله كذا ، فيجيب الآخـر قبلت منـك زواج موكلتـك فلانـة على ما ذكـرت من المهر معجله ومؤجله ، ويشهـد شاهـدان ويـوقعـون على دفتر العقد وهذا كل شيء . أي أنه ليست هنـاك طقـوس معينـة ولا يقتضي ان يكـون من يلقن الطـرفـين كلمات العقد ويسجله شيخاً معمماً وقد يكون من (افندية) المحاكم . وقد يسأل سائل الا يمكن ان تكون البنت غير راضية وأن يؤتى بغيرها لتــوكـل؟ وتجيـب هذا يمـكن وحصــل مرات ولكن لم يكن هنــاك سبيــل للتأكـد ، كما ان البنت كان يزوجهـا أبـوهـا دون ارادتها ان كانت بكراً ويتم الزواج . على كل حال لا أريد ان يجرني الاستطراد القانوني كثيراً عن تقاليد الزواج القديمة .

قلت إن حفـلة الـعقــد التي كانت تتضمن غالبــاً قراءة مولــد نبــوي وتوزيع الملبس ليس من شروطها ذلك ولكنه تقليد مستحب . ومن بعد عقــد القــران ورغم ان البنت صارت حلا لزوجهـا بالعقـد إلا أنـه في القـديم لم يكن يراهـا حتى يوم الزفاف ؛ ولكن يدفع المهر لتجهز نفسها ويجهز هو نفسه وتبدأ حفلات الزفاف .

التلبيسة

ينقسم الـزفـاف إلى حفلتـين إحداهما للرجال والثانية للنساء . فالرجل يأخذه اصدقاؤه إلى الحمام فيغتسل ويحلق ، ثم يخرجون به إلى داره حيث يلبســونــه الثيــاب الجـديـدة في حفلة تسمى (التلبيسـة)

ويخــرجــون به بعــد ذلــك في عراضـــة إلى دار العــروس . وفي هذه العراضات يهتفون :

ـ صلوا ، على محمـد ، مكحـول العـين ، ونـير وغضـير (أي الزواج نير وأقدر عليه) .

وعـادنـا (أي ناصبنا العداوة بعد أن صار لك عروس تشغلك) وهيه وهيه . . .

ـ ياعريس كفك محنى . . وياعريس كتر ملبس . . الخ .

ـ يا أهـل العـديّـة ، يا سامعـين النـديّة ، لا يقطع لنا ولا يقطع لكم ذريـــة بجـــاه خير الـــبر يـة ، وإن كانت هالـرايـة ، ورايـة فلان (العريس وأهله وأبو العروس والوجهاء) وبيض الله وجهه . . .

ـ وقـد يداعبـونـه بقـولهم : شن كليلة شن كليلة ، شوها الليلة شوها الليلة ، والله يعينه على هالليلة . . . إلى آخر العراضات الملأى بالتلميحات الدينية والاجتماعية والجنسية أحياناً .

ولكن الشبـاب لا يكتفون بذلك مع العريس بل أنهم على طول الطـريق يشكـونـه بالـدبـابيس لكي يتلحلح ويتحرك ، وقد يكون فيها بعض التشفي أيضـاً وبعض الغـيرة . وقـد سمعت أحـدهم يقـول أنا أمشي بجنـازة ولا أمشي بجـوازة (أي بزواج) وهـذا مثـل معـروف . ولكن لما سألـوه عن السبب أجـاب هذا الظـريف لانني في الجنازة أقول الحمـد لله انـه هو ولست أنا ، أما في (الجوازة) فاسأل من شدة الغيرة نفسي (لماذا هو ولست أنا ؟) ! .

حفلة الزفاف في دار العروس

ثم يدخلون العريس في زفة إلى حيث العروس بين الزغاريد ، وهنا كانت تقوم إشكالات أحياناً . فهل يتقدم نحوها وهي جالسة أم تقوم فتستقبله من الباب أم يلتقيان في منتصف الطريق ؟ . ويحل الاشكال غالباً على حسب حال الفريقين والمداخلات . ثم يجلسان معاً على (الاسكي) وهو شبه سرير مزين بالزهور في صدر المكان ، وقد يجلس أبو العريس معه أولا يجلس حسب الوضع الاجتماعي ولكن لفترة قصيرة .

وتبدأ البنات يزغردن للعروسين ، ثم تجرى التفتيلة والعروس بين الصبايا حاملات الشموع في أرض الديار وحول بحرة الماء المزينة بالورود وهن كالنجوم حول القمر ، وكان من زغاريد العرس :

أوها باللعلعي باللعلعلي   أوها وياصبايا انجمعي
أوها ويا ليل طول طول   أوها وياشمس لا تطلعي
لولولوليش
وأوها حصنتك بياسين   وأوها يازهر البساتين
وأوها يا مصحف صغير   أوها على روس السلاطين
لولولوليش
وأوها يا جماعة كلكم   وأوها ما نسينا فضلكم
وأوها واليوم الفرح عندنا   وبكرا الفرح عندكم
لولولوليش

وغـيرهـا من الزغاريد التي تعرفها النساء . ومن العادة إن المـدعـوات يأتـين معهن بصـرر (النقـرشـة) أي المكسـرات والسكـاكـر للتسليـة والضيـافـة اثناء السهرة الطويلة وتتباهى المدعوة إذا كانت صرتها غنية .

ولا يفـوتني هنـا أن اتحـدث عن بعض المشاكل التي كانت تجري حول سفـرة العشـاء ومن يدعى إليهـا قبـل ، مداعي (أي مدعوات) العـريس أم مداعي العـروس . ولمـا كان العرس يجري تقليدياً في بيت العريس فالمفروض ان تكون الأولوية لمداعي العروس .

ثم تكـون هنـاك أم العـروس وأم العريس ـ إن وجدتا وإلا فمن تنوب منابهما ـ ومعهما القابلة التي تتدخل عند حدوث ما يقتضي المداخلة .

تعليمات للعروسين

ويقـال ان تعليـمات تهمس في اذني العـروسـين قبـل دخولهما إلى المخـدع ، وعنـد دخـولهـما يحاول العـريس كسـر جليـد الصمت لأنـه مفـروض في التقـاليد انه يرى عروسه وتراه لأول مرة ويمنعهما الحياء من أي شيء ، فيرفع غطاءها عن رأسها ويطعمها بعض الملبس من مجمع موجـود في الغـرفـة وتطعمه ويتبادلان كلمات تقليدية تدل على أنه يرجو منها أن تكون معه على الدهر . ومن المعروف ان الكثيرات (يتناوقن) أي ينظرن خلسة إلى العروسين وهما في مخدعهما من فتحات في النوافذ من قبيل الفضول وغيره : .

وعنـدمـا تسفـر المعـاشـرة عن وجـود البكـارة وتظهر آثارها يأخذ

العريس منديلاً عليه آثار هذا الدم ويسلمه فوراً إلى من ينتظرنه خارج الغرفة إشعاراً برجولته وطهارتها اذ هي كانت عذراء ، وتنطلق الزغاريد من جديد . وقد يطلق الرصاص من قبل رفاق العريس وأهله . الا أنه إذا حصلت اشكالات فالقابلة تتدخل لجلاء الأمر وذلك عندما يكون هناك عجز من جانب الشاب او بكارة لا تزول بسهولة او هي واسعة الفوهة فلا تنجرح (أي من النوع الحلقي) ، وكل هذه الأمور كانت لها أهمية تجاوز حدود المعقول وكثيراً ما كانت تحدث بلايا رهيبة ، اذ يظل اهل الطرفين مستنفرين حتى ظهور نتائج هذه (الجراحة) التي تجري بوسائل غير جراحية . وقد لمست في حياتي كمحام ان كثيرين من الشبّان صاروا يتجاوزون هذه الحكاية إذ تبين لهم ان العروس ليست بكرا ، وقد يجرح احدهم اصبعه ويلطخ المحارم بدمه حتى يستر عليها شهامة وعقلاً . ولكن كثيراً ما رأت العائلات والمحاكم المشاكل الناشئة عن هذه القضية ، علما بأن الشرع لا يقيم لها وزنا ، إذ لا يوجد خيار بكارة في شرعنا فمن تزوجها على إنها باكر وظهرت غير ذلك لزمه الزواج فان شاء طلق ولكن دفع المهر . ويجب القول بان الشرع ارحم من العرف في هذا المجال لانه يفترض ان البكارة يمكن ان تزول بعارض صحي او قفزة فلا يجعلها من شروط الزواج ، وبخلاف ذلك اليهود والنصارى والدروز فهم يقيمون للبكارة وزنا ويضعون على زوالها آثاراً تتعلق بالمهر وحده .

ومن أبشع العادات ـ ولكن كانت مألوفة قديماً ـ أن يجري تسليم البنت على أنها بكر إلى أهل العريس بعد فحص تجريه القابلة ،

وتصـوروا حال البنت الخجـول العفيفة وهي تضطر إلى أن تنكشف في أعمق مجالات خفرها وحيائها . ومع ان الزمان تجاوز هذه العادات فقد حدثتني سيــدة مثقفـة حاملة شهـادة عاليـة ورائعـة أن أهـل عريسهـا اشترطوا هذا التسليم، وانه كان أقسى عليها من كل ما مر بحياتها.

هدايا الزفاف

وهدايا الزفاف تكون عادة على أنواع ومراحل منها ثمن الشعر إذ لا ترضى بأن يحل لها ضفـيرتهـا ليلة العـرس أو يمسها إلا بعد أن يدفع ثمن شعـرهـا مبلغاً متفقاً عليه وكذلك فعليه صباح اليوم التالي أن يدفع لها هدية ومبلغاً اسمه الصبحية .

وعلى كل حال فان ما ذكـرتـه هو ما سمعتـه ، ولم أشأ أن يكـون الــوصف ناقصــاً في هذا المجـال الشعبي ، ولكنني لم أذهب وراء هذه الأمـور في تتبـع مبالغ فيه ، وربما كان غيري من القدامى قد كتب عن ذلـك أمـا جيلنـا الذي تزوج في الأربعينات وما بعدها فما عرف إلا بقايا قليلة من هذه العادات .

الولادة

تقـاليـد الـولادة لها أهميـة ، فتحضـر أولاً (ديـارة) الـولد وهي الملابس الـلازمـة له ، ثم تكون القابلة على أهبة . وكانت ولادتي أنا على يد القـابلة التي اسمها (ام مستو) من سوق ساروجة وظلت لها دالة

علي حتى توفيت فهكـذا كان العـرف ويقـولـون عن الـداية أنها ليست عليهـا مخبـاية . وكان لدى القابلة كرسي خاص للولادة اسمه (كرسي الداية) وهو يسمح للمرأة أن تكون جالسة وأن ينزل الولد لأن الكرسي له تجويف من ناحيـة المقعـد ، فكـان إذا (دب الطلق) بالمـرأة الحامل جيء بالكـرسي وجـاءت معه (الداية) وتجمع بعض النسوة من أقاربها فبعضهن يسنـد رأسهـا وبعضهن يعاونّها بالتوجع معها أو حملها على الصبر ، وكانت الكلمة المشهورة هي (عيني ولدك) تقولها الداية ومن حولها للحامل حتى تساعد الولد بالضغط واحتمال الآلام لينزل سويا .

فاذا كان صبيـاً فالبشـارة والـزغـاريـد ، وإذا جاءت بنتـاً بدأت مواسـاة الأم فيقولون : اللي تأتي بالبنت تأتي بالصبي ، وعقبال أخوها (أي العقبى للأخ) ، ومن الأقـوال المعـروفـة أنـه إذا صمت الجميـع صمتـاً مستمـراً قال أحـدهـم : (ولدت بنت) دليل الحزن ، كما يقول المثـل هم البنـات للممـات ثم يبـدأون بالتخفيف من هذا الحزن بمدح جمال البنت والإشارة إلى أن رب العالمين يساعد أبا البنات ويرزقه ، أو بقـولهم : الحمـد لله على قيـام الأم بالسلامة والله هذا أهم شيء إلى آخر ما يدخل في باب التعزية وتخفيف الوقع .

وبعـد الـولادة تمد سفـرة اسمها سفرة الخلاص تأكل منها الداية وكل من شاركن في الترقب ، وفي الأسبوع وليمة لاسيما إذا كان المولود ذكـراً ، وللزائـرين المهنئين مشروب الكراوية ، وهو مغلي مادة الكراوية بالسكـر مع أصنـاف المكسرات من لوز وفستق وجوز وبندق وهي شيء فائق الغنى في التغذية . وأهل دمشق يقدمون الكراوية ساخنة بينما أهل بيروت يقدمونها باردة ، ولا أعرف ما يفعلونه في البلاد الأخرى .

ومن تقاليد الولادة النقوط ، وهو على حسب جنس المولود وقرابته واعزاز أهله ومركز المهدي ويتراوح بين الدراهم وقطع الذهب من اساور وحلق وتعليقات (مداليات) فيها (ماشاء الله) أو آية الكرسي ، ومن الملابس ولوازم الطفل من عربة أو حرامات أو سوى ذلك . والنقوط غالباً ما يكون دينا ووفاء ، وهو نوع من أنواع التعاضد بين الناس تعاضداً مستحباً .

الختان

والصبي المسلم يختن إما في الأسبوع الأول من الولادة ، وهذا صار الآن هو القاعدة المفضلة ، وإما أن يختن عندما يبلغ الخامسة إلى السابعة من العمر لتقام له حفلات مفرحة . وقد ختنت أنا في نحو السابعة ، فامسكني رجل قوي في وضع القرفصاء مباعداً مابين الركبتين ، وقطع (المطهر) هذه الزائدة فآلمتني كثيراً ونزفت وشتمته ، وهنا حاولوا جهدهم ان يسكتوني بالكلام والطعام والهدايا والبسوني قنبازاً ابيض مطرزاً ووضعوا على رأسي طربوشاً صغيراً عليه بعض الحلي ، ومشيت أياماً وأنا أرفع بيدي اليسرى قنبازي من الأمام كي لا يؤلم الجرح . وكانت تقام في هذه الحال احتفالات اشعاراً بدخول الولد في شريعة أهله وبدء مرحلة الرجولة لديه .

احتفالات المولد النبوي

حضرت طول عمري احتفالات المولد النبوي واحببتها وشاركت فيها لأنها كانت تصحب كل المناسبات البهيجة .

يقـع المـولـد النبـوي الشـريف في الثاني عشر من ربيع الأول من العام الهجري وكان في الأصل يوم الاثنين ولكن الآن وعند الاحتفال به لا نتقيـد بان يكـون يوم الاثنـين وانما حسبما يقع يوم الثاني عشر . وهذا اليـوم ينتقـل على مدار السنـة بين الفصول المختلفة لأن السنة الهجرية اصغـر من السنـة الميـلاديـة بثـلاثـة عشـر يوما كما سيأتي ذكر ذلك عند تفصيل المواقيت واختلافها بين الميلادية والهجرية .

وكنـا في دمشق نحتفـل بعيـد المـولد احتفالاً شعبياً كبيراً يتجلى بالـزينـات في الأحياء والزيارات بين الأحياء ، كما يتجلى في احتفالات تقـام في المسجـد الأمـوي الكبير وفي المساجد الاخرى ، وما تزال هذه الأخـيرة تقـام حتى الآن في حين انكمشت احتفـالات الأحياء عامة في السنوات الأخيرة .

وكـان المـولـد الـذي يقرأ فيها هو إما مولد (الجوزي) وإما مولد (العـروس) وهنـاك من وضعـوا قصصاً عصرية عن المولد فيها حديث أصبـح تاريخيـاً وأقرب الى الروح الجديدة . وتتخلل قراءة المولد اناشيد في مدح الرسول وبيان مناقبه وحمد آل البيت والخلفاء الراشدين ، ويدار خلاله عطر ماء الزهر بالقمقم حتى إذا وصل القارىء الى اللحظة التي يتحـدث فيهـا عن المخـاض ويقـول (ولـد الرسول) قام الناس جميعاً واقفين واشترك جميع الحاضرين في انشاء نشيد يقول :

صلوا عليه وسلموا تسليماً حتى تنالوا جنة ونعيما
فالله يجزي من يصلي مرة عشراً ويسكن في الجنان مقيماً

وغير ذلك من الأناشيد المشتركة المعروفة من جميع الناس ومن بينها :

طه يا حبيبي .... سلام عليك سلام عليك
يا مسكي وطيبي سلام عليك سلام عليك

إلى آخر هذه الأناشيد

ثم توزع صرر الملبس الدمشقي المحشو باللوز أو الفستق ملفوفة بورق ملون . كما كانت تلاوة المولد النبوي تقليداً في كل احتفال عائلي هام كعقد القران أو الولادة أو غيرهما من المناسبات العائلية ولكن صار الميسورون الآن يوزعون بدلا عن صرر الملبس الملفوفة بالورق علباً أو آنية من البلور أو المعدن غالية الثمن وفيها بضع حبات ملبس وهذا للتباهي . وفي دمشق مثل يقول ان من عنده فلفل يرش على المخلوطة . . .

رجب وشعبان ورمضان

ولكن المولد لم يكن الاحتفال الديني والاجتماعي الوحيد ، بل معه احتفالات عديدة في مناسبات شتى . فالدمشقيون المسلمون يحتلفون بالسابع والعشرين من رجب احتفالاً دينياً في المساجد وكذلك بليلة النصف من شعبان حيث تقرأ العائلة مجتمعة الدعاء المعروف وأوله (اللهم ياذا المن ولا يمن عليك) ، وبالمناسبات الأخرى كعاشوراء ،

وبعيد الميلاد والفصح وغيرهما عند المسيحيين ، ولكن أكثر الاهتمام يكون لشهر رمضان .

اثبات الشهر واثبات العيد

ومن المعروف أن هذا الشهر لم يقبل فيه عندنا حتى الآن الاثبات بالحسابات الفلكية مع أنها دقيقة وذلك عملاً بالحديث : صوموا لرؤ يته وافطروا لرؤ يته (ويعني هلال رمضان وهلال شوال) . وكان من يترقبون الهلال يذهبون عندما تظن ولادته إلى أماكن مرتفعة ليرقبوه عند الأفق (١) فإن رأوه ذهب من رآه إلى المحكمة الشرعية فشهد وتقبل في ذلك شهادة الفرد .

وكان الظرفاء من أهل دمشق يتضاحكون دائماً حول الاثبات الذي يأتي غالباً من حماة ويقال ان شخصاً بعين واحدة (بفرد كريمة كما يقال هنا) هو الذي يراه دائماً ، وقد يكون هذا ـ ان صح ـ صحيحاً لأنه يعني قدرته على التركيز وقد تكون العين الواحدة حديدية البصر تعويضاً عن الاثنتين . كما كانوا يتضاحكون حول مصلحة تجار اللحوم في اثبات العيد . وأنا في هذا لست أتهم أحداً ، وحاش لله أن أفعل ، وإنما أردد الأقوال الباسمة الشائعة بين الناس وهي جزء من فولكور رمضان .

وربما كان من الأصح الأخذ بالحسابات الفلكية ويكون هذا بتفسير (الرؤ ية) بأنها لا تقتضي دائماً رؤ ية البصر وإنما يمكن ان تكون

---

(١) ويقال ان عائلة الشواف اخذ اسمها من اعتياد رؤ ية الهلال عند ولادته .

رؤية العقل واليقين والآلة . على أنني لست أفتي وإنما اتمنى أن يوجد من يفتي بذلك ليتوحد الصوم والعيد في البلاد العربية .

تكريزة رمضان

وعندما يثبت الشهر تطلق المدافع ايذاناً بذلك ويقبل الناس بعضهم على بعض يتباشرون ويهنئون ، ثم تبدأ الاستعدادات للصوم .

على أن من أغرب الاستعدادات للصوم ما يسميه الدمشقيون (تكريزة رمضان) وهي أن يسبقوه باحتفال يأكلون فيه ما يريدون ، وغالباً ما يكون ذلك بسيران أو سهرة حافلة وبعضهم ممن اعتاد شرب الخمرة تساهلاً في الأيام العادية ولكن يمتنع عنها مطلقاً في شهر الصوم ، تكون (تكريزته) ليلة سكر وشراب ، ثم بعدها يقوم فيغتسل ليتطهر وينوي الصيام ويقلع عن الشراب .

كل شيء لحاله

وهذه اللمحة من أخلاق بعض الدمشقيين تستحق الوقوف عندها ، إذ أن هؤلاء - ولا أظنهم ينفردون في ذلك عن أمثالهم في المدن الأخرى - قادرون على جمع المتناقضات تحت شعار (كل شيء لحاله) . ولأنهم يعتقدون ان الله غفور رحيم وان الانسان إذا كانت له (كاسات محدودة) فلا بد أن يشربها ، تراهم في رمضان يتوبون

ويصومون ولكن عينهم تكون على رأس الشهر حتى إذا انطلقت مدافع العيد عادوا فوراً إلى الشراب، وكان زوعيمهم وشيخ فصيلتهم في هذا هو الشاعر احمد شوقي حين يقول :

رمضان ولى هاتها ياساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

وما أغربه - في نظري - من شهر طاعة محصور بين معصيتين احداهما تسبقه والثانية تختمه وعن سابق تصور وتصميم .

وهذه الـ(كل شيء لحاله) نراها أيضاً عند طائفة صغيرة من الذين يظهرون التعصب والتمسك ولكن ربما قام أحدهم - غفر الله لنا جميعاً - فأكل لفة النبي أي عمامته كما يقول المثل الشامي .

على كل حال أنا لست واعظاً هنا وإنما أشير إلى ملمح متناقض في أخلاق بعض الدمشقيين (وهم قلة بالنسبة للأكثرية الطيبة) ، ثم أرد على نفسي بقول من قال : قد يكون هذا أفضل من معصية مستمرة .

اذن ففي رمضان يقلع الناس عن الشراب المحرم ، وهذه حقيقة واقعة لا ريب فيها عند أكثر من نسميهم (المرتكبين) أي للمعصية ، فان الصوم تقليد صارم، ولاسيما أنه أمر تمكن مراقبته اجتماعياً.

ولذلك فمن يستتر بمعصيته لا يستطيع ان يستتر بافطاره ، فأهله ونساؤ ه وأطفاله يصبحون شهوداً عليه . اذن فرمضان ظاهرة اجتماعية أيضاً والرقابة فيه على الصيام أشد من الرقابة على الصلاة وبقية الالتزامات الدينية .

السحور والمسحر

ان يوم الصـوم يبـدأ بلحظـة الامســاك عن الطعام قبل الفجر ، ولـذلـك فان التقاويم التي تطبع من أجل تعيين مواقيت رمضان تسمى (الامســاكيـة) وكـانت جهـات كثـيرة تتبارى في طبعها وتوزيعها على الناس حسبة لوجه الله ودعاية أيضاً لبعض الاسماء والاصناف التجارية وهذه لا تنفي تلك .

والسحـور هو الطعـام الـذي يأكله الصـائم في آخـر الليـل حتى يحتمـل ساعات الجوع والعطش الطويلة ، والناس يفيقون على طلقتي مدفع بينهما ساعة ، كما يوقظهم (المسحر) الذي يدور ويدق على طبلة وينـادي : قوم يا نايم وحـد الـدايم وغـير ذلـك من أنواع المناداة . وقد يوصيه بعضهم بأن يطرق الباب عليهم أيضاً حتى يستوثق من أنهم افاقوا لقاء مبلغ اضـافي . ويأخـذ المسحـر نوعـين من الأكـرام : العيـدية في نهاية الشهـر ، وشيئـاً من الطعـام ولما كان يختلط الطعام . بعضه ببعض إذا جاء من بيـوت مختلفـة فان تعبـير (صحن المسحر) يدل على هذه الفوضى غير المنظمـــة ، بينـما الصحن المسمى الصحن الانكليـزي او(آسيت آنكليـز) فوضى منظمـة . وفي بعض الحفـلات التي تكون فيها عزيمة سخية مجانية ومائدة حافلة بالأطعمة أي (بوفيه باردة) انظر الى الذين يسكبـون صحنـاً مقـوبعـاً من كل الالـوان بعضهـا فوق بعض فأتـذكر صحن المسحر ، والجشع قد ينزل بذوق الانسان .

وأكثـر النـاس صاروا يتضـايقـون الان من المسحـر لأنـه إذا كان سيبـدأ من أول البلد لينتهي في آخـرهـا فانـه يوقظ الأولين عند منتصف الليل ، ووجود الساعة المنبهة يغني عنه .

قصص باسمة

ومن الطف مناداة المسحرين ما سمعته وأنا طفل في معرة النعمان إذ كان المسحر وأقول ذلك من الذاكرة ـ ينادي : قوم يا بو الحج قنبور ، قوم لحق لك مشداق مشداقين (أي ما يملأ حنكا أو حنكين) الصبح بجيبي ورايح بدشه (أي أجعله يطلع) .

ومن الفكاهات المتصلة بالسحور ان رجلاً مفطراً لا يصوم كان يجبر زوجته مع ذلك على ان تقوم فتهيء له السحور كل ليلة . تضايقت من ذلك وقالت له : هذا الطلب ماله طعمة مادمت لا تصوم . قال لها : يا امرأة ، تركنا الفرض ، تريدين ان نترك السنة ؟ ! . .

ويروون أيضاً هذه القصة ، فقد دخل أحد الصائمين في رمضان إلى قرية فرأى كل من فيها يأكلون نهاراً ، استغرب وقال لهم ، أما عندكم رمضان ؟ قالوا بلى ، ولكن شيخنا يصوم عنا . ذهب إلى دار الشيخ مستغرباً ودخل ـ وكان الوقت نهاراً كما قلت ـ فرأى امامه سفرة طعام طولها كذا ذراعاً وعليها المآكل والشيخ يلوش (أي يلوك) الطعام ـ قال له : شيخي بعلمي انك تصوم عن أهل البلد ! . . قال له الشيخ : يا جاهل ، من يصوم عن أهل بلد ألا يتسحر مرة كل نصف ساعة ؟ ! . .

ساعة الافطار

أمـا منظـر دمشق في السنوات الأخيرة قبل الافطار بنصف ساعة فهو يثير الدهشة وربما الضحك . الناس يتراكضون والسيارات العامة الكبيـرة تكـاد تأخـذ بطـريقها المارة من سرعتها ، والسيارات الصغيرة وهي الآن عشرات الوف تثير وراءها موجات من الهواء الساخن المعطر بالبنزين والمازوت والدراجات تتسلل بين مارة مستعجلين ، وكل واحد يحمـل معـه شيئـاً ولاسيـما من مآكل السوق وحلوياته التي يكون أوصى عليهـا ، وفي الحـارات يصعـد الكثـيرون إلى السطوح تسلية لجوعهم وارتقاباً للمدفع او لضوء المأذنة وصوت المؤذن ، والآن تفتح الاذاعات على امتـلاء صوتهـا بتلاوة الآيات وتكبرها مكبرات الصوت من أعلى المـآذن ، والتلفـزيون يعرض صورة القارىء يقرأ القرآن ، وكل ذلك في ارتقـاب اللحظـة الحـاسمـة . وفي البيوت تنهمك السيدات في المطابخ بالسكب وتـرتيب المـوائـد ويعـاون في ذلـك الرجال والاطفال . وفجأة يعلن المـذيعـون والمذيعات بأصوات غير جائعة ولا كهفية ولا تصدر من بطـون خاويـة : حان الآن موعـد الافطـار ، وينطلق المدفع والآذان ، ولكن لو أن أصـوات المـلاعق التي تصطـدم بالصحـون لتأخـذ اللقمـة الأولى جمعت في صوت واحـــد لطبق صليله الآفــاق ، ويبـــدأ الأكـل والشرب بنهم . . . أما المدخنون فيبدأو بالسيكارة .

الا عند عدد محدود يعرف ان الصوم له حكمة ، وهؤلاء يقلون من الطعــام عنــد الافطــار، ويجعلون من الشهـر شهـر ضبـط للنفس وشهـر

صدقات وتوسيع على الفقراء لاشهر اكتظاظ للمعدة بأطيب الاصناف .

ومن المعروف أن رمضان شهر استهلاكي كثيف ، خلافاً لما هو المرتقب ، اذ يكثر فيه الانفاق على الطعام وتطيب به الاصناف ولا يكتفى بلون أو اثنين . دعوت مرة نفسي لدى الصديق العزيز الصائم كل رمضان رجاء الشربجي وذلك قبل الافطار بربع ساعة حتى لا يستعد ويتعب وينفق ويكثر وهو الكريم . وذهبت على الميسور اليومي فكان (المهيا) كما نقول في دمشق أي قائمة الطعام كما يلي : تمرهندي وقناني شراب منوعة ، باذنجان مقلي مع سلطة ممتازة وبصل وثوم وبقدونس ، فتوش الباذنجانن ، لوبيا بزيت ، وهذه كلها مقبلات ، ثم احبسوا انفاسكم : رزمفلفل ، ملوخية ، أرضي شوكي ، كبة لبنية على البارد وبسماشكات وهي لحم يحشى بالأرز واللحم ويخاط كما تخاط القبوات ، أما الحلوى فهي نمورة بقشطة حقيقية وبكمية كبيرة ، وفواكه . . .

وأكلت حتى كدت انفزر ، وتحققت حكمة الصيام عندي إذا كانت (أن نأكل كثيراً بعد أن نجوع كثيراً) . . . ولكن الرجل كريم ، والطعام طيب ، وضحكنا مع القهوة حتى هضمنا الطعام ، ولولا التزامات مسبقة لبقيت وتسحرت عنده خاصة وان العشاء كان في صحن دار دمشقية في القنوات من أجمل بيوت دمشق ! . .

هذا ومن المألوف ان يكون على سفرة رمضان التسقية بالسمن والفول المدمس ونقوع قمر الدين والمشمش المجفف . وخاصة الفتوش

الـذي هو خبـز محمص مع خضار سلطة منوعة تتبل به مع الخل والنعنع والزيت وهو طيب المذاق جداً .

المساكبة

ومما يلفت النظر ويبهج في رمضان المساكبة التي جئت على ذكرها في مكـان آخـر فان النـاس يهدون جيرانهم من أطيب ما عنـدهم ويـرد عليهم هؤلاء فتمتلىء السفـرة هنـا وهنـاك بالأطـايب . ولكن الفقراء تظـل سفـرتهـم كالعـادة، والتسقيـة يأكلونهـا كل يوم فتبْـل الحلوق وتملأ البطـون ولا شيء سواهـا . وقـد دعيت مرة لكتابة بعض الأغنيات عن رمضان لاحدى الاذاعات العربية فكتبت قطعة غنائية تبدأ هكذا:

ساعـة الافطـار لو تتـذكـروا   الـعـائـلات المـعـسـرة المعـترة
وشـوفي صُفَـر جردافقـيرة بتقـدروا   تعـمـلوا للكـون صورة مغـيرة

وأعني (الموائد الجرداء) لدى الفقراء .

صيام الاطفال ويوم زوغلت

أمـا الاطفـال فيستقبلون رمضـان باحتفال مضاعف لان السماح لهم بالصـوم يعني دخـولهم في حلقة الكبار . ولكن جرت العادة أن يبدأ الاطفـال بالصيـام (درجات المأذنة) ففي أول يوم أو أول سنة يصومون حتى الضحى ، ثم حتى الظهـر ، ثم حتى العصـر ، وأخيراً يكملون النهـار والعـادة ان الطفـل متى صام يومـه الأول حمله افراد العائلة على

ظهورهم ومشوا به تكريماً واحتفالاً .

وقد صمت درجات المادنة في صغري فعلاً ولو أنني اذكر مرة انني جعت فلم أصبر فأكلت بالسر قطعة كعك وشربت فوقها ماء من الحنفية حتى استطعت أن (أضاين) أي أصبر إلى المغرب ، وبذلك أكون (زوغلت) ولكن أبي حملني مساء على ظهره وربما لم يكن يجهل لعبتي الصغيرة وأغضى عنها حناناً .

حلويات رمضان

ومن أنواع الحلوى في رمضان ما ذكرته في باب الحلويات ، وأبرزها النهش والبرازق والجرادق وهذه الأخيرة نوع من العجين يقلى بالزيت او السيرج وترش عليه رشات من الدبس وينادي عليه الباعة بـ (يللي الهوا رماك ياناعم) . كما يصنع الخبازون خبزا معروكاً يرش عليه السمسم خاصاً برمضان .

صلاة التراويح والاعتكاف

وفي رمضان يذهب أكثر الأتقياء الى المسجد ليصلوا صلاة العشاء وبعدها صلاة التراويح وهي عشرون ركعة اضافية بعد صلاة العشاء .

وفي العشر الأخير من رمضان يعتكف بعض الاتقياء في المسجد فيبيتون فيه الليل بكامله في صلاة وتسبيح ، وكان أبي يفعل ذلك حتى

تقـدمت به السن فصـرنـا نرجـوه ألا يفعـل حرصاً على صحته ولم يكن سهلاً أن نرجعه عن عادة تأصلت فيه بالقناعة .

سهرات رمضان

ثم ان رمضـان بطبيعتـه يقلب مجرى الحياة العادي لدى من يقدر على ذلك . فما دام الجوع والعطش من الفجر إلى الغروب ، فلماذا لا نسهـر الليـل وننام أكثر النهار ؟ ولذلك فالقادرون يفطرون مساء افطاراً معقولاً ، ثم تبدأ سهرتهم بعد التراويح في المقهى أو في بيت من البيوت وبعضهم كان يذهب إلى الحكـواتي او الى كركـوز ، وكـلاهما يعمـل خاصـة في رمضـان ، ويبقى كذلـك حتى السحـور فيتسحـر وينام إلى وقت متأخر من الضحى أو حتى الظهر ويكون الباقي من النهار محدوداً ويحتمل .

والحـرفيـون يرون غير هذا ، اذ انهم بعـد ان يتسحـروا يبدأون العمـل من الفجـر حتى الظهـر ثم ينقطعـون للراحة ، كما ان بينهم من يعمـل طول الليـل لينـام في النهـار ، وأقصـد بهم من لا يرتبـط عملهم بالناس ، ومثالهم الحذاؤ ون وبعض النساجين وأمثالهم .

ليلة / ٢٧/ رمضان

وفي ليلة السـابـع والعشـرين من رمضـان يسهر الكثير ون حتى الفجر عساهم تطلع على وجوههم ليلة القدر التي يقال ان من رآها كان

دعـاؤ ه مستجـابـاً . ويطـوف رجال الاذكار في بعض المساجد فيقيمون فيها حلقات الذكر ولاسيما في عدد من البيوت المعروفة بأنها تفتح ابوابها لذلك كبيت (أبو الشامات) في القنوات وبيت (العيطة) في النوفرة ، ويدور المولويون فيها فيفتلون على أنغام الناي والدفوف ، ثم تختتم في المسجـد الأمـوي ، وهو مشهد رأيته أكثر من مرة ويحتشد لرؤ يته أجانب ومستشـرقـون وأنـاس آخرون من أبناء البلد يروقهم المشهد كطرافة ولو أنهم عمرهم لاصلوا ولا صاموا .

الاسواق والاستعداد للعيد

وتفتـح الاسـواق والـدكاكين أبوابها في العشر الأخير من رمضان ليـلاً لتسهـل على النـاس ابتياع حاجاتهم للعيد فتنشط التجارة نشاطاً كبيراً ورمضان يكون فعلاً كريماً على هؤ لاء ويربحون كثيراً ، ويوصي الكثير ون على حلوى العيد ، ويتفقد الميسور أقرباءه المعسرين ويوزع عليهم صدقة العيد المسماة بالفطرة .

عيد الفطر

سأصف الآن عيد الفطر بالنسبة للكبار قبل ان انتقل الى حديثه عنـد الصغـار . فما إن تعلن المـدافـع العيد ويصيح الناس (ثبتوه) أي اثبتوا ولادة قمر شوال، حتى يتباشر الناس ويهنىء بعضهم البعض الآخر ويبدأ الاستعداد لمآكل العيد وحلواه .

حلوى العيد

ومن حلوى العيد المعمول والسمبوسك الذي يصنع في البيوت وتجتمع من أجله العائلة . فيعجن الطحين مع قليل من السمن والسكر ، وتحضر الحشوة وهي أما جوز مطحون وسكر وإما فستق وسكر وأحياناً عجوة مقلية بالسمن ، وبعد أن تملأ الحشوة باليد توضع في قالب من خشب عليه نقوش تنتقل إلى قطعة المعمول ، وبعد أن يرص القرص في القالب حتى يأخذ شكله يقلب القالب ويدق من طرفه فينزل قرص المعمول او السمبوسك ويصف على الصينية ويؤخذ إلى الفرن وكما سبق القول يرافقه الأولاد ليرجعوا بالصواني سالمة ويميزون معمولهم من سواه من نقشة القالب . والقوالب كانت تشترى او تستعار .

فأما المعمول فيرش عليه سكر ناعم جداً ، وأما السمبوسك فيغط في (الناطف) ويؤكل والناطف حلوى تصنع من سكر وزيت السمسم فتصير مستحلباً ابيض طيباً جداً .

والناس يقدمون المعمول باعتباره حلوى العيد ، ومن لم يصنعه يشتريه من السوق جاهزاً ويقدمه للضيوف ، ولكن كان الاصل صنعه في البيت فهو أطيب وأنظف . ويجمع العائلة في سهرة عمل وسمر لطيفة .

ولكن هذا لا يمنع أيضاً من شراء الكنافة المبرومة والبقلاوة والـ (كل واشكر) لتقديمها إلى المعايدين .

طبيخ العيد

أما ما يطبخ في العيد فأكثره اللحم والرز ، وكان تعبير (فخده ورز) يعني الشيء الفاخر جداً ، وإن كانت الأمور تسمح فيصنع الأوزي (أي القوزي وهو الخروف باللغة التركية) وذلك بأن يطبخ الأرز واللحم ويلف بصرر من العجين تشوى بالفرن أو يوضع في الصواني وعليه طبقة العجين الرقيقة .

ومما يروى في هذا الصدد أن الرز لم يكن شعبياً أي واسع الانتشار ، والبرغل هو المتداول أكثر في الأوساط المتوسطة ولاسيما الفقيرة . وكان بعض البسطاء يسمون البرغل أرزاً أمام أولادهم ، فاذا طلب هؤلاء الأرز الحقيقي قالوا نريد (رز العيد) . ولذلك كان هناك مثل شعبي يقول (العز للرز والبرغل شنق حاله) .

على أن البرغل ولاسيما المحمص بالسمن الجيد صارت له الآن قيمة أكثر لأنه تساوى في الغلاء والندرة مع الرز وهو أطيب ، وفي دمشق يسمون البرغل (مسامير الركب) دليلاً على أنه يقوي العزيمة والتماسك .

على ان العيد يأتي بطعام متكرر وغير منتظم على عدد الساعات في النهار فيحدث كظة عند الكثيرين ، وقلما نجا واحد من الاكرام المبالغ فيه اثناءه .

جولات عيد الفطر

يخرج الـرجـال صبـاحـاً باكـراً ومعهم الأولاد غالبـاً لزيـارة قبور موتـاهم ووضـع اضـمامات من نبات الآس على القبور لأن هذا النبات لطيف المنظـر ويعيش طويــلاً . وعلى القبـور يلقـاهم أهلهم الـذين يزورون نفس المتـوفى ، فيقـرأون الفـاتحة على أرواحهم ويسلم بعض الـزائـرين على البعض الآخـر، ثم يكلفـون من يقـرأ القـرآن على القـبر لقاء مبلغ . وهنـاك عدد كبـير من الصبيـان الفقـراء يذهبـون صبـاح العيد ليقـرأوا القـرآن لقـاء دراهم يتقـاضـونهـا من أهـل المـوتى ، فينـافسـون بذلك المشايخ الذين يحترفون هذه الحرفة .

ومما يروى ـ لتلطيف الجو وما هو بلطيف ـ ان شيخاً أعمى طلبت منه امـرأة عجـوز ان يقرأ لها سورة من القرآن على روح زوجها العجوز المتـوفى واعطتـه مبلغـاً زهيـداً ، ولنقـل ربـع ليرة . فبـدأ الشيخ قراءته بقوله : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلّوه ثم في سلسلة ذرعهـا سبعــون ذراعـاً فاسلكـوه ، انـه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعـام المسكـين . . فاوقفته العجوز وقالت له : شيـخي ، أمــا رأيت غير هذه الآيــات ؟ قال لها خانم ، بربــع ليرة تريدين ان يدخل الجنة ؟ فزادته فغير القراءة إلى آيات الرحمة .

وقد تزور النساء القبور ولا سيما إذا كان المتوفى عزيزاً وقد توفي من قريب وتكـون الـزيـارة قبـل طلوع الشمس فهكـذا تقضي التقـاليد . وبعض النســاء يجلبن معهن الـورود والشرائط الحريرية لتزيين القبور ،

وقد تنصب لهن خيمة تستأجر من حفار القبور المشرف على تلك المقبرة لأيام معينة

ثم بعد أن ينتهي الرجال من زيارة القبور يذهبون - أغلبهم - إلى صلاة عيد الفطر وتكون بعد خطاب يلقيه إمام الجامع من على المنبر ويتناول مناسبة العيد وفي الأغلب الحض على بر الأقارب والفقراء .

ثم يعودون إلى منازلهم ، ومن أراد ذبح خروف للأكل والتفريق ذبحه ، ويبدأ توزيع العيديات على الأولاد والأقارب وحتى أبناء الجيران وكل من جاء فقبل يد الكبير أو الكبيرة وقال : كل سنة وأنت سالم (أو سالمة) .

ويزور الصغير الكبير أولاً بترتيب القرابة والنسابة ، ويرد الكبير الزيارة بعد ذلك وفي كليهما سكاكر وحلويات وقهوة وأحاديث . وقد تطوف جماعة من عائلة على البيوت فيدخل كل خمسة أو ستة معاً وبعض العائلات والأحياء تفتح بيتاً في أول يوم أو في اليوم الثاني للمعايدة فيأتيه الجميع .

وقد تلاشت معظم هذه التقاليد أو ضعفت ، وكان الناس من عشرات سنين يعنون بارسال بطاقات المعايدة .

وكانت بطاقات المعايدة يصحبها قصص باسمة . فاحد الوجهاء قال لمرافقه هات (الكروت) لنعايد ، ثم ذهبا . وكان يوعز للمرافق أن يصعد إلى كل منزل من منازل اصحابه فيدق الباب ويناولهم (كرتا)، وهكذا تمرّ بضع ساعات حتى سأل الوجيه مرافقه أخيراً: كم كرتا بقي معك ؟ قال له : الأص السباتي . . ونظر الوجيه فوجد

مرافقه لم يفهم عليه المقصود وإنما أخذ (كروت الشدة) أي ورق اللعب ، وكلما دق على باب اعطاهم كرتا معها على حسب حظهم ، وترك (الأص السباتي) للآخر . . .

وقصة أخرى فيها وجيه يريد أن يعمل الواجب ولا يحب الزيارات، ذهب في وقت فيه أكثر الناس في بيوتهم وهو وقت صلاة العيد، فدار بالعربة وكلف العربجي ان ينزل فيضع لكل واحد بطاقة ، ولكن في آخر بيت مد صاحب البيت رأسه من الشباك قائلاً أهلاً وسهلاً ، لحظة ! . . قال له الوجيه انزل خذ الكرت وخلصنا . . . ولم يدخل . . .

ولكن حتى عادة المعايدة (بالكروت) خفت هي الأخرى في الوقت الحاضر، وكاد العيد أن يصغر وتنزل قيمته إلى أيام راحة فقط و«سيارين» خارج المدينة وكفى الله المؤمنين الضيافات، وهكذا تمضي الأيام الثلاثة.

عيد الأضحى

ومن المألوف ان يقال عن عيد الفطر انه سعيد وعن عيد الأضحى انه مبارك ، فاذا جاء عيد الأضحى امتاز بذبح الاكباش يوم الوقفة وتفريق أكثرها على الفقراء والأهل المستحقين ، أما التقاليد فتبقى هي ذاتها ولكن أيام العيد تمتد إلى أربعة أيام .

أعياد الصغار ومباهجها

يوم شربنا (خروفاً) برمته

ومن ذكـريـات الطفولة أيضاً أننا ذهبنا ذات يوم من أيام العيد ، نحن ابنـاء الحـارة في بستـان الكركه لنعمل سيراناً في دمر وحدنا . وقد كان من تقـاليـد العائلات الدمشقية ان تسمح لعصافيرها الصغيرة ان تجرب اجنحتها إذا جاء العيد ولكن على أن يكونوا معاً وان يكون بينهم واحـد (تكلة) بضم التـاء أي يصـح الاتكال عليه ، وكان التكلة بيننا ابن عمة لي أكبر منا بسنوات .

كنـا في ثيـابنا الجديدة ومعنا العيدية التي أخذناها من الأب والأم والعم والعمـة اذ نطـوف عليهم جميعـاً صباح العيد فنقبل ايديهم ونقول لهم (كل سنـة وانت سالم) ويطعمـوننـا المعمول والسنبوسك ويعطوننا العيدية كل حسب حاله .

استكـرينـا (أي استأجـرنـا والكـراء هو الأجرة) عربة بحصانين وتســابقنــا إلى من يجلس إلى جانب العـربجي ، ثم اتفقنـا على أن نجلس الى جانبــه بالــدور ، واذكـر انـه لما جاء دوري فرحت أولاً ثم ندمت بعد أن أخذت الخيل تطلق غازاتها وهي ماشية كما تفعل سيارات المازوت في هذه الأيام . . .

ومضت بنـا العـربـة من حارتنـا إلى جسر فكتوريا فجسر الحرية فصـدر البـاز ، ثم الى كيـوان فالـربـوة فالشـذروان فدمر ونزلنا في قصر شمعـايـا وكـان مطعماً ومنتزهاً فاخراً على ضفة النهر . جلسنا كما يفعل

الكبـار ، مبسـوطـين لاننـا ملكنـا زمـامنـا ، ولعبنـا ، ثم طلبنا الطعام والفاكهة . وكنا في اثناء ذلك نعد دراهمنا تباعاً حتى نطلب على القد .

ولما انتهينا وكان بقي معنا ثلاثة قروش فقط ، اقترح احدهم ان نعود ماشين وان نتسلى على الطريق بالتدخين ، وكنا اكثرنا في العاشرة اونحـوهـا . وفعـلاً وافقنـا واشتر ينا علبة سجائر ماركة (الخروف) وكـان يصنعهـا فيـما اذكـر معمـل الشـراباتي ، اذ انه كانت قبل عملية (حصـر التبـغ والتنباك ، أي المونوبول والكلمة تعني الاحتكار) كانت توجـد معـامل خاصة أحدها يملكه المرحوم عثمان الشراباتي ، وتلصق على كل علبة لصيقة اسمها (البندرول) أي ما تلف به العلبة .

ولكن لم يبق معنـا ثمن الكـبر يت على قلته ، فاشعلنا السيكارة الأولى من عنـد البـائع واتفقنا على ان نشعل من كل واحدة اختها قبل ان تنطـفـىء . . . ومشينـا على طريق دمشق ندخن ونسعـل وتأتي الدموع إلى أعيننا ولكن نحتمل لأننا صرنا نعمل ما نريد .

ووصفت هذه الحادثة بعد عشرات سنين في حديث اذاعي فقلت اننا صرنا نحن السبعة المشاركين في السيران مثل القاطرة ، اولنا يدخن ويسعـل ، والبـاقـون وراءه صفـاً حتى نصـل إلى الأخـير الـذي كان (بيتـونـه) أي حذاؤ ه الجـديـد قد جرح أعلى كاحله فصار يظلع مثل (الدريزينه) أي عربة العمال المكشوفة الصغيرة التي يقطرها القطار في آخـره . . وظللنـا كذلـك حتى وصلنـا إلى دمشق منهكين ، ولكن كنا (شربنا) الخروف بأكمله .

ألعاب الأعياد

وعلى ذكـر العيـد ومبـاهج الطفولة اذكر مما رأيت أن العيد كانت فيه مباهج كثيرة جداً للصغار . اولها شراء (فرود الفلين) التي نتقاوص بها فكأننـا في ساحـة حرب ، وكـان هذا يغـذي في نفوسنا روح المقاتلة أيام محاربة الاستعمار فلم يكن في ذلك ضير .

ثم اننـا كنـا نجـد في مركـز المـدينة القلابة والدويخة مما يرى حتى اليوم في مدن الملاهي ، أما في كل مصلبة حي فكانت هناك عربات من نوع الكراجة يرتجل لها مثل الخيمة او العرزال فوقها ويركبها الأولاد دورة فاما ان تجرها الدابة أو يجرها صاحبها ، وهو يصرخ والأطفال يردون من ورائـه : يا ولاد محارب ـ جوجـو ، شدوا القـوالب ـ جوجـو ، قوالب صيني ـ جوجـو مثـل الفليني ـ جوجـو ، والي مامـات ـ جوجـو ، خلف بنـات ـ جوجـو ، بناته سود ـ جوجو مثل القرود ـ جوجو ، بناته بيض ـ جوجو ، مثل العفاريت ـ جوجو .

ثم إذا نزلنـا من هذه الـرحلة الممتعـة جلسنـا على الكـراسي الصغيرة نأكل الفول النابت ونلك الفولة بمزيج من الملح والكمون ثم نشـرب زبـديـة مرق فول عليها ملح وكمون وعصرة ليمون . ثم نتركه ونـذهب إلى بائـع الكعك (الشرك ـ فتح الراء) والمخلل فيعطينا مخلل اللفت ، ونغمس الكعـك بمرق المخلل وبالخردل فنكاد نعطس ولكننا نحب ذلـك كثـيراً . ثم نتركـه ونـذهـب إلى بائع الملوق ، وهذا يصنع أنواعاً كثيرة من القطر بعضها باللوز وبعضها بالبندق وبعضها بالفستق وغيرها ، ومعه ملعقة من حديد يضعها في كل ركن من الصينية ويلوقها

(أي يبرمهـا) فتخـرج بها لقمة يضعها في فم الطفل (ومن فم إلى فم تموت الأم) كما بدأنـا نتعلم حتى لا تنتقـل الجـراثيم ولكن أكثرنا يغريه الطعم فينسيه ما نبهوه اليه .

وكـانت هنـاك غالبـاً مشـاهد على حيوانات كاسرة مثل ضبع أو ذئب أو سعدان يرقص ومما كان ينادى عليه في تلك الأيام : تعالوا شوفوا الضبع الذي أكل بياع الحلاوة على طريق جوبر .

فندخل خائفين لنرى الضبع يكشر عن انيابه البشعة ويقنفذ شعر ظهـره فنخـاف ونخـرج ولكن نكون دفعنا (الفوتة) أي أجر ما (نفوت) به على هذا المشهد، وفي دمشق نستعمل هذه الكلمة أي (فات) بمعنى دخل.

أمـا إذا كان المشهـد على سعدان فكان صاحبه يأمره أن يضرب سلامـاً فيفعـل ، ثم يقـول له كيف تمشي الصبية فيمشي برشاقة ، ثم كيف تعجن العجـوز فتظهـر علامـات الأعيـاء والتخـاذل ويضحـك الأولاد . وكثـيراً ما كان مشهـد السعدان في الطريق ويلم صاحبه عليه من المتفرجين ما تجود به النفس .

السينما

ثم تكون النشوة الكبرى عند دخولنا السينما ، واذكر من سينمات تلك الأيـام سينـما الكـوزمغـراف التي كانت جانب ساحـة الشهداء ، وسينـما العبـاسية في نفس مكانها الآن ولكن ببناء قديم ، وسينما الزهراء وكانت أيامها تطل على ساحة الشهداء من الشرق واحترقت ، وسينما

النصر وكانت في أول سوق التبن واحترقت وشهدت حريقها بنفسي عام ١٩٣٠ تقريباً ، وهي غير سينما النصر التي في الدرويشية وهي أحدث بكثير .

وكانت السينما صامتة ، وعلى الباب تجلس فرقة موسيقية مؤلفة من بيستون وكرنيطة وطبل تهيج المشاعر ، ثم ترافق المشاهد الحاسمة في الفيلم . وكان لكل نوع من المشاهد موسيقا تناسبه فالمطاردة لها نغم حماسي والعرس له نغم مفرح . وكان ابطالنا في تلك الأيام هم جوبو نومو ، وأيدي بولو ، وجاك الصاعقة ، ووليم دزموند ، ورودولف فالنيتنو وغريتا غاربو وماي وست وماري بكفورد وغيرهم ، وأشهر المسلسلات التي تعرض مع الفيلم الطويل كان (الفارس المتخفي) ففي آخر كل حلقة يمد واحد يده ليزيح عن وجهه اللثام فتنتهي الحلقة ونجنّ من شوقنا إلى معرفة الباقي فندخل إلى الحفلة التي بعدها وهكذا حتى نعود مساء وما عرفنا من هو الفارس المتخفي ولكن نتحازر عليه .

وكان من الأشخاص المعروفين في دمشق لدى رواد السينما ولاسيما الأطفال في تلك الأيام (أبوحاتم) الذي كان متعهد سينمات ويذكرون اسمه في الاعلانات وواحد نسيت اسمه كان يجر عربة كراجة عليها اعلان سينما متنقل ويصرخ على موضوع الفيلم واذكر مرة انه جاء فيلم عن الثائر الفرنسي (دانتون) فكان هذا المكلف بالدعاية يصرخ (على تانتون !) ، وقبل بدء الحفلة يهيج الأطفال ويشوقهم للدخول بالكلام عن موضوع الفيلم بصوت عال . أما أصحاب السينما فكانوا من آل الشماس وأحدهم توفيق الشماس كما نراه في حينا إذ سكن هناك .

وكـان الأولاد حين يدخلون السينـما ويستبطئـون بدء الفيلـم لأن أصحـاب السينـما يكـونون في الخارج ينتظرون المزيد من الرواد ، كان هؤلاء الأولاد يصـرخـون (ياشـماس شغلها) ويكررون ذلك بضجيج متزايد حتى يرن جرس البدء فيصرخ الجميع ابتهاجاً . فكانت الفرجة على الأولاد تمتع مثل الفرجة على السينما .

أول السينما الناطقة

وأذكر أن أول سينما ناطقة جاءت إلى دمشق في أوائل الثلاثينات كانت فصـلاً غنـائيـاً للمطـربـة (نادرة) التي كانوا يسمونها الشامية ، وكـانت أغنية اسمها (أنشودة الفؤاد) وتبدأ هكذا : آمسعدي ، أنت في مرادي ، أيها البلبل الحنون ، ننشد انشودة الفؤاد ، لا حزن فيها ، ولاشجون . . ويومئذ طار عقلنا من الدهشة فكيف تفتح فمها فنسمع الكلام وهي صورة ؟ .

وكان لممثلي السينما اسماء حسب أدوارهم . فهناك البطل والحبيبة ورئيس الحـراميـة والحـرامي . في حمص ـ وزرتها في تلك الفـترة وأنـا صغير ـ يسمونهم القبضاي والمحبوبي والخاين .

وكـان للأولاد ولـع باقتنـاء صور أبطـال السينـما بما في ذلـك (الكرديلات) أي قصاصات من الأفلام عليها صور هؤلاء الأبطال ، ويشترونها بما يوفرونه من الخرجية وقد أولعت بذلك زمناً أنا أيضاً .

وما أزال أذكر في بداية الثلاثينات أول فيلم سوري صوره رشيد جلال وكان من ابطاله فريد جلال ونشأة التغلبي فيما أذكر ، وكان اسمه

(تحت سماء دمشق) . ولو أن همة السينما استمرت منذ ذلك الحين لكانت أثمرت خيراً كثيراً ، ولكنها توقفت عند هذه المحاولات وتلك التي قام بها نزيه شهبندر وسواه من العاملين في هذا الميدان .

كركوز

أما كركوز فكان الفنان الذي رأيته هو أبو صياح من آل (المصور) ، وكان يحتل مقهى في سوق ساروجة . وأول ما أخذني أبي إليه كان ذلك في رمضان . وفي كركوز ستارة من قماش تكون في الزاوية مائلة للأمام وهي شفافة نوعاً ، فاذا وضع عليها الخيال الملون استقر عليها وتراءى بالوانه . والخيال هو عبارة عن قطع من الجلد عليها صورة الشخص ، وتتمفصل بحيث تتحرك الأيدي والأرجل والرأس وأحياناً القبوعة أي الطاقية كما في شخصية كراكوز ، وتحرك هذه القطع من الخلف بعصي صغيرة يمسك بها الكركوزاتي فتراه يحرك بيمناه ويسراه أكثر من عصا وبالتالي أكثر من شخص ، ويضرب بقدمه وينقر على طبلة أمامه ويزمر بزميرة في فمه أحياناً ثم يتكلم بعدة أصوات حسب الشخصيات والقصة تدور أمام المتفرجين المبهورين صغاراً كانوا أم كباراً .

الكلام الفلتان

وكركوز سوق ساروجة الذي عرفته والفته يديره الكركوزاتي (أبو صياح) وهو بارع جداً في الأصوات والحركة ولكن لسانه (فلتي) أي

يحكي على الطـالـع والنـازل وكلماتـه فيهـا اجـتراء على الأدب وحتى تلميحات جنسية ولا تنسوا إننا كنا قبل عام ١٩٣٠ أو نحو ذلك . وقد كان أبي يعلم أن مثـل هذا الكـلام موجـود في كراكـوز ، ولكنـه كان موجـوداً في الطـريق أيضـاً . فالـدمشقيـون حين يشتمـون فلسـانهم زفـر وصوتهم يعلو بأنواع الكلام الرذيل فلم يكن من الممكن منع سماعنا لهذه الكلمات ولكن الحشمـة كانت في الا نتكلمهـا نحن (المؤدبـين) . ولـذلـك كنـا في جو (كـراكـوز) نعيش البيئـة الشعبيـة بكـل ما فيها من صراحة .

وكـان الأولاد حين يستبطئـون بدء الفصـل يبدأون بأن يصرخوا مجتمعين وبصورة منغمة :(دوس دوس إي والله، أبو صياح ما شا الله ، حلوسي ملوسي وي ، زيـده بارك له شوي) حتى إذا صعـد أبـو صياح بين التصفيق إلى المـرتبـة التي يقف عليهـا خلف الستـارة التي نسميهـا (الخيمـة) بدأ الجميـع يصفقون بصورة رتيبة ويقولون : (لبسوا الغاز النـونيـة) لأن الاضـاءة كانت بمصبـاح نقول عنه انه غازي (لوكس) لأنـه يضـخ الكـاز إلى الكيس الـذي يضيء ، فاذا أراد أبـو صيـاح أن يبـدأ ، غطـي هذا المصبـاح من أسفله بغطـاء نصف كروي يشبـه (النونية) وهي الوعاء الذي يرتفق به الصغار للتغوط كما هو معروف .

ولم نكـن نسـتـحي من هذه الكلمات داخـل كراكـوز لأن روح الجـماعـة تغمـرنا ، ولكن أنا كنت لا أرددها أبداً خارج كراكوز لأن مثل هذا الحديث غير مألوف في دارنا التي يسود فيها الكلام المحتشم .

وفصـول كراكـوز فيهـا شخصيـات ثابتـة هي كركـوز الـذي هو الشخصيـة الـرئيسيـة وهو رجل نزق عصبي لسانه رذيل وأخلاقه كذلك

ولكنـه لايخلو من بعض الشهـامة أحياناً . وعيواظ وهو المتأدب المحذلق المتفيهق البارد الغليظ ، والمدلل وهو الولد المفسود الرذيل ، وكرش وهو حمار ناطق ، وبكـري مصطفى وهـو السكـير الـذي لا يرفـع الخمر من رأسـه ، وقشقـو آغـا وهـو الضابط التركي الغبي المسؤول عن الأمن ، وحـاج قريطم وهـو الحشـاش المصري ، وشمقرين الساحرة وهي المرأة العجـوز اللعينـة وطـرمـان وأبـو أركيلة والأفيوني ، وأعداد من الشباب والصبايا والشخصيات الأخرى التي تتغير بتغير موضوع الفصل .

وأذكر من الفصول التي كنت احفظها تقريباً عن ظهر قلب فصل الحـمام ، وسأعـود إلى الحـديث مفصـلاً عنـد الكلام على شخصيات القصـاص الشعبي حكمت محسن المستمـدة من كركـوز في مسـرحيـاته الاذاعية المشهورة التي كانت تقدمها الفرقة السورية .

وكـراكـوز كان يستمـد تعليقـاتـه من الحـوادث الجاريـة ولا يخلو أن يداعب المـوجـودين ، وقـد أكلنـا نصيبنـا من هذه المـداعبات وسيأتي حديث ذلك في مناسبته .

أعياد المسيحيين

وكنا وما نزال نأنس بأعياد اخوتنا المسيحيين ونعطيها مثل اهتمامنا لاعيـاد المسلمـين ونتبادل معهم الزيارات في مناسباتهم ومناسباتنا ، بل حتى اختلطت بعض التقـاليـد فصـارت عامـة ومنهـا شجرة الميلاد التي تضعهـا بيـوت مسلمـة كثـيرة في عيـد الميـلاد وتبقيها حتى رأس السنة الميلادية وتزينها بكل الزينات عدا تماثيل السيد المسيح والسيدة العذراء .

وفي الأعياد يكون المسيحييون قد تجمعوا في كنائسهم حسب مذاهبهم المتعددة ، وفي دمشق من هذه المذاهب كثرة من الروم الأرثوذكس وأقل منهم من الروم الكاثوليك الشرقيين ، وأقل من هؤلاء اللاتين الغربيون والسريان الأرثوذكس والسريان الكاثوليك والانجيليون (البروتستانت) والأرمن من أرثوذكس وكاثوليك . وقد حضرت وحضر الكثيرون من المسلمين هذه الاحتفالات في الكنائس سواء في الأعياد أو في مناسبات الزواج والوفاة ، فالأخوة تجمع الناس كلهم حتى أن كثيرين منا يظلون عمرهم وهم لا يعرفون هل زميلهم فلان وصديقهم مسلم أو نصراني ، إذا كان الاسم من الاسماء المشتركة مثل عبد الله وفؤاد ورياض ، وهناك كثيرون من المسيحيين اسموا أولادهم بمحمد ومحمود ومنهم فيما أعرف الأديب الكبير مارون عبود وكنيته أبو محمد . وللمداعبة فقط أقول ان بين بعض القدامى المتعصبين من الطوائف المسيحية المختلفة من التباعد أحياناً أكثر مما بينهم وبين المسلمين .

وأبرز الأعياد عيد الميلاد ، ويجتمع المسيحيون فيه في منتصف ليلة الرابع والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام في كنائسهم ليستمعوا إلى القداس ، وعندما صار عندنا إذاعة وتلفزيون صارت هذه المناسبة تنقل ـ وغيرها من المناسبات المسيحية ـ عن طريق الاذاعة والتلفزيون ويأنس بها الناس جميعاً .

وفي يوم ٢٥ كانون الأول التالي تعطل دوائر الحكومة جميعاً ويزور الناس كلهم والمسلمون قبل غيرهم اخوانهم أصحاب العيد مهنئين ومتناولين الحلوى . وكنا أحياناً نفرح بتعدد مذاهب المسيحيين لأن هذا

يجعل لكل طائفة عيد ميلادها فالشرقيون يعيدون في يوم والغربيون في يوم آخر ، ونحن نعطل مع هؤلاء وأولئك . ثم وحد المسيحيون أعيادهم فصارت في يوم واحد إلا عيد الفصح ولا الأرمن فيما يزال عيدهم مستقلاً .

وعيد رأس السنة ليس عيداً مسيحياً في الواقع ولو أن الغرب المسيحي اعطانا اياه على اعتبار ان المسلمين يحتفلون برأس سنتهم الهجرية . ولكن رأس السنة صار الآن موضع احتفال عدد كبير من الناس ويسهرون له ومن مآكله المشهورة الديك الحبش أو الديك الهندي ، وتبقى شجرة الميلاد فيه مزينة بالأشكال والألوان والأنوار ، وعندما تدق الساعة الثانية عشرة أي يحين منتصف الليل صار بعضهم الآن يطفىء الأنوار ويتبادلون قبلات التهنئة إذا كانوا من الأقرباء والأصدقاء الحميمين ، ولكنها عادات وافدة وليست أصيلة .

وعيد الفصح أساسه ان المسيحيين يصومون أنواعاً عديدة من الصيام ، فهم لا يأكلون اللحم والدهن وما يخرج من الحيوان من حليب وبيض في أيام الأربعاء والجمعة ويكتفون بأكلات الزيت ، ولذلك يسمون النوع من هذه الأكلات (صيامي) ، فاذا قالوا كوسا صيامي فمعناه أنه لم يدخله اللحم والسمن . أما الصوم الكبير الذي يدوم سبعة أسابيع فيكون في الربيع وينتهي بعيد الفصح . وفي عيد الفصح (يفطر) المسيحيون فيأكلون اللحوم والدهون ومن علاماته بيضة الفصح المسلوقة التي يلونونها ويوزعونها على الأصدقاء من كل الطوائف ، وصارت تقليداً فولكلورياً حتى صاروا يصنعون الشوكولاتة على شكل بيض الفصح .

ومن الأعياد المسيحية التي تأتي بعد الميلاد والفصح في الأهمية والتلوين الشعبي والفولكلوري عيد البربارة وهو عيد قديسة كان أبوها وثنياً فآمنت وهنا سمل أبوها عينيها وأحرقها ولذلك فهي تعتبر (شفيعة) العيون ويبدأ عيدها في مساء ٣ كانون الأول فيطوف الأولاد بالشموع ويسلق الناس القمح الذي نسميه (السليقة) ويضيفون اليه (الشمر) والسكر المدقوق والزبيب والجوز المحمص واللوز والفستق والرمان والملبس الفضي ، وهو من الأعياد التي لا عطلة فيها ولكنها ذات بهجة غير عادية .

وهناك عيد الشعانين (والشعانين هي أغصان الزيتون) وهو يكون في يوم الأحد السابق لعيد الفصح وفيه يحمل الأولاد الشموع المزينة باغصان الزيتون ويسيرون في موكب يتقدمه الرهبان بالصلوات وبالبخور ويطوفون حول الكنيسة بضع مرات ، وتباع في هذا العيد كميات ضخمة جداً من الشموع الكبيرة الملونة المزينة وله بهجة عند الاطفال لانهم يلبسون فيه ما يشتريه الأهل من ألبسة جديدة .

وهناك عيد آخر هو عيد مار جرجس (الخضر) وفيه أيضاً يحمل الأولاد الشموع المزينة بالورود وله بهجة كبيرة ويصبح فرجة للناس جميعاً .

وهناك عيد التجلي في ٦/ آب ويكون فيه طواف بالمشاعل ، وعيد الصليب وفيه يشعلون النار في كثير من الساحات فيأتون بالحطب والأغصان وتقام نيران كبيرة .

أمـا اليهـود فنعـرف من احتفالاتهم الاحتفال بعيد الفصح حيث يوزعـون على اصـدقائهم الخبز الفطير ، وعيد الغفران الذي سمعنا به أخـيراً منـذ حرب تشـرين ، ولا نعـرف الكثير عنهم لأنهم هم مغلقون على الناس وليس لأن الآخرين لا يهتمون بهم .



ـصل العاشر

الحمامات

لم يكن في بيتنا الصغير حمام ، ولا كان موجوداً في أكثر البيوت الدمشقية ، وانما كان الناس رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً يقصدون حمام السوق ، وهو بالنسبة إليهم نظافة ومسرة وتقاليد وأشياء أخرى .

ومن جهة أخرى فلعل أشهر معالم دمشق بعد مساجدها ومدارسها ، حماماتها لأنها مدينة المياه . وحمامات دمشق تمتاز عن سواها بالمياه الجارية الكثيرة جداً التي تدخل إليها من نظام توزيع المياه فيها وقد سبق ذكره .

ونظام هذه الحمامات ان الماء الذي يدخل إليها يسخن قسم منه في طرف من الحمام يسمى القميم والقسم الآخر يبقى بارداً . واسم القميم مشتق من القمامة وهي الزبالة وكان أصحاب الحمامات يشترون روث الحيوانات لأنه يشتعل بحرارة شديدة وهذا أمر معروف في القرى إذ يستدفىء القرويون بأن يحرقوا أقراص (الجلة) المصنوعة من روث الحيوانات أي الزبل ، وكذلك يفعل أصحاب الحمامات . وكان القميمي يجلس عند الطاقة التي يدخل منها (الزبل) إلى حيث يحرق ويعطي ناراً قوية وهادئة وعمل القميمي تلقيم الزبل . ولذلك فأهل

الشام يضربون المثل فيه بالوساخة فيقولون عن الوسخ انه قميمي اومثل القميمي .

قدر الفول

وقبل ان انتقل إلى بقية أوصاف الحمام أقول من جملة ما يصنعه القميمي انه يؤتى اليه بالقدور التي يوضع فيها الفول ويحكم سدها فيضعها في القميم من طرف هذه النار الهادئة طيلة الليل فينضج أو (يستوي) كما نقول في دمشق ، ومثل ذلك يفعل ببيض يوضع في التنكات ويخرج مشوياً ، وهذه الطريقة تستخدم أيضاً في أكلة معروفة باسم اللحمة بالجرة التي تدفن بالرماد ، ولا تخرج في المبدأ عن طناجر (البرستو) التي تنضج الطعام بالضغط . ولذلك كان الفول المدمس يسمى كذلك لأن المدمس في اللغة هو المغطى والمدفون والمخبأ ، لأن قدوره توضع كما قلنا في القميم . ولكن هذا لا يؤثر على نظافته ولا على طهارته بطبيعة الحال لأنه يكون محكم الاغلاق .

السخن والبارد

والماء يجري بعد ذلك ساخناً ، إلى أقسام الحمام ، وينفذ من فوهات كانت فيما مضى (وقبل استيراد الانابيب) تغلق بإصبع من خشب ، فيسيل فوق الاجران . وكان إلى جانبه أحياناً مجاري الماء البارد واحياناً يؤتى بالبارد بالسطول من بحرة

الماء الموجودة في البرّاني من أجل مزجه بالماء الساخن الذي يكون كاوياً في بعض الأحيان فلا يكفي ما يأتي منه بالحنفيات العادية ، وكان من سوء الخدمة أحياناً أن يتعذب المستحم بتأخر الماء البارد عليه ، ولذلك يروج في دمشق تعبير يقول (طاسة باردة وطاسة سخنة) دليلاً على التعذيب والتنكيل أو عدم التوازن في المعاملة .

البراني

وينقسم الحمام من حيث البناء والاستخدام إلى أقسام : البراني وفيه بحرة ماء وأماكن مرتفعة على أطرافه وخزائن فيها بقج المناشف وفي كل بقجة (١) أنواع المناشف وهناك حبال تنشر عليها المناشف المبللة لتجف ، ويجلس المعلم صاحب الحمام على طرف منه أمام صندوق فيه الصابون والليف وأكياس التفريك وسائر العدة .

وفي البراني حيث المساطب والأرائك يدخل الزائر فيختار ركناً ويبدأ يخلع فيه ثيابه ، وان كان معه دراهم أو نفائس سلمها إلى صاحب الحمام ، ويظل يخلع ثيابه ويصفها بعناية حتى يصل إلى السروال فيأتيه خادم الحمام البراني بمنشفة يمسكها مفرودة أمامه ليخلع ثيابه فلا ترى عورته ، ويأخذ المنشفة فيلفها حول خصره فتستره إلى ما تحت الركبة ويكون تهيأ للدخول إلى الجواني . ثم لما ينتهي من

---

(١) كلمة تركية شائعة تعني الصرة .

الاستحمام كما سيأتي يعود أخيراً إلى البراني فتتكرر العملية ويلبس سراويله خلف منشفه يمسك بها خادم الحمام مفرودة لتستره عند الارتداء . ثم يعطى قبقابا يلبسه ، وكانت أكثر القباقيب عالية فيما مضى ، وتسمى القبقاب الشبراوي لأن ارتفاعها شبر ، وليست مثل القبقاب المنزلي الذي صار شهيراً حين لبسه (غوار الطوشة) في مسلسلاته الطريفة .

الوسطاني

ثم يدخل المستحم وعلى خصره المنشفة التي تسمى أيضاً (فوطة) وتكون مقلمة بألوان حمراء وبيضاء ، إلى القسم المسمى بالوسطاني وهو أكثر حرارة من البراني ، وفيه أجران ماء ، ومكان للاستراحة ، وبعد أن يتأقلم لحظات عند الدخول ـ والأهم عند الخروج كما سنرى ـ يدخل إلى الجواني حيث توجد أجران في ساحة وحول كل جرن يجلس شخص أو أكثر من المستحمين على بعض الكراسي الخشبية ويعطى لكل منهم طاسة وصابون وكيس وليفة ، ويبدأ كل واحد بفتح الماء الساخن على الجرن ومعه الماء البارد فيعد لهما على مزاجه واحتماله ـ وقد يطلب البارد من الخادم كما سبق القول فيؤتى به بالسطل ـ ويبدأ بالاغتسال ، إذا كان يستحم لوحده . وقد أخذني أبي إلى الحمام مرات عديدة وأنا ولد صغير ورأيت كل هذا بعيني وسررت به .

المفرك والمصوبن

وهنا يتدخل غالباً (ولدى الميسورين دائماً) عامل اختصاصه التفريك والتغسيل بالصابون . فبعد أن يكون الانسان تعرق من فرط حرارة الجواني ، وصار جسده طرياً بما يصب عليه من الماء ، يلبس المفرك كفاً في يده مصنوعاً من قماش وبري غليظ نوعاً ، ويبدأ يفرك به جسد المستحم . وهذا التفريك عمل فني ، ففيه شيء من التدليك (المساج) المعروف الآن ، وفيه شطارة في إزالة طبقة البشرة التي تكون تماوتت واتسخت فيظل المفرك يداورها حتى تصبح فتائل سمراء يريها للمستحم فيفرح بأنه تخلص منها ، وتكون بشرته صارت حمراء مثل الشوندر بما انقشر من جلده . وتسمى كل جولة من هذا التفريك (تم) والمستحم يتفرك تماً أوتمين أوأكثر حتى لا يبقى من الكمخة التي على جسده ولا حتى من جلده القديم شيء وتظهر الطبقة التي تحته حمراء نظيفة .

وهنا يبدأ عمل (المصوبن) أي الذي يغسل الجسد بالصابون والليفة ، وذلك بأن يلقى الصابون في وعاء فيه ماء ساخن ويحرك فوقه الليفة حتى يرغي ويبدأ يصوبن المستحم وكل مرة تسمى (تم) أيضاً .

إزالة الشعر

وما دمنا نتحدث عن الحقيقة كما كانت تمارس فلا بد من القول بأن الدمشقيين كان من عادتهم رجالاً ونساء أن يزيلوا شعر الجسد كله

أحيانـاً وشعـر العـانـة دائماً وذلك بأن يطلوا الجسد أو الأماكن المطلوبة بمـزيـل للشعر مؤلف من مزيج من الكلس والزرنيخ وذلك في مقصورة خاصـة يدهن بها الجسـد كله بالمـزيـج ، وتسمى هذه العملية (ضرب الـدوا) لأن هذا المـزيـج نوع من الـدواء . ولكن بعض المستحمـين يفضلون إزالـة الشعر بالموس (ويسمونه موس الوسط) ويقومون بالأمر هم أوحتى من يقـوم بذلـك من عمال الحـمام ولا يستحـون من ذلـك ، ولـذلـك فانـه كانت لا تقبل شهادة هؤلاء العمال أمام المحاكم الشرعية قديـماً لأنهم يرون عورات النـاس ولا يستحون ، ومن لا يستحي يفعل ما يشاء ويقول ما يطلب إليه أن يقول ولا يكون أهلاً للثقة .

نعيماً ، والى الوسطاني

وبعـد أن يتم المستحم ضرب دوائـه وتفريكه وصوبنته وينشطف بالكثير من الماء ، يقول له المصوبن نعيماً ، أوحمام الهنا ، وينادي على عامـل المنـاشف فيأتي وعلى رأسـه هذه المنـاشف ويقف أمـامه . يفرد منشفـة تسـتره كما سبق ، وعنـدئـذ يترك التي كانت عليه والمبتلة تسقط إلى الأرض ويلتف بالجـديـدة ، ويعطيـه منشفـة ثانيـة على نصفـه الأعلى ، وثالثة أصغر يلف بها رأسه ، ويخرج وقبقابه يرن على أرض الحـمام حتى يبلغ الـوسطاني فيجلس ليرتاح ويتخلص من العرق الذي ينضحـه الجسم بكثـرة نتيجـة للحرارة العالية في الجواني . وهنا يغير له طقم المنـاشف كامـلاً مرة ثانيـة ، ثم يخرج إلى الـبراني حيث يجلس

ويرتاح بعض الوقت ويغير له طقم مناشف ثالث .

فأما الفقراء فمناشفهم مستعملة قبلهم ، وأما الأغنياء أو من يشترطون ذلك فيعطون مناشف جديدة من البقجة لم تستعمل قبلهم ، وبعض الناس كانوا يأخذون مناشفهم معهم إلى الحمام ، وتفعل ذلك النساء بصورة خاصة إذا كن يحرصن على النظافة .

ولكل من هؤلاء العمال حلوان يأخذه عند الخروج عندما يقول نعيماً ، ثم لصاحب الحمام الأجر المعلوم .

دور الحمام الديني

والحمام فوق انه للنظافة له دور ديني ، إذ ان كل متزوج يعاشر زوجته يعتبر في حالة (جنابة) وهي كلمة لا تعني النجاسة ولكن تعني ان صاحبها لا يحق له ان يلمس مصحفاً أو يصلي قبل أن يزيل الجنابة بالاستحمام (أو بالتيمم) ولذلك فكان ذهاب الرجل إلى الحمام في تلك الأيام القديمة التي لم تكن توجد فيها حمامات في الدور انما هو اعلان من المتزوج عن أنه (فعلها) ومن الأعزب عن انه شاهد حلماً أدى به إلى (الاحتلام) وهو تعبير كان شائعاً للدلالة على انزال الشهوة الجنسية فيصبح (جنباً) بضم الجيم والنون ، أي في حالة جنابة .

ولذلك كان الناس يتمازحون حول الحمام بطرق شتى ملمحين لهذه الاشياء والعلاقات الجنسية . أنا مرة سمعت في الصباح الباكر ، وكنت أمام دكان اشترى منها أشياء ، هذا الحوار : مر رجل فسلم على

صاحب الـدكـان . سألـه هذا : مبكـر يا أبـا فلان . قال والله كنت بالحـمام . قال له : أي كل يوم ؟ ما بيسـوى . أحـابـه الآخر ، اتركها لله . . . (تفشيش) ! . . . وكان بذلك يشير إلى أن العلاقة الجنسية التي استـدعت الـذهاب إلى الحمام نوع من مكافحة الهم ، وفي دمشق كانـوا يسمـونهـا (محلي الفقير) إذ ليس عنده ما يتحلى به أويتفشش به إلا هذا . . . (ولعل هذه الظاهرة تفسر كثرة الانجاب عند الفقراء لأنه ليس عنـدهم من أنـواع المسـرات إلا هذه ! . .) . ولـذلـك كان من يخجلون أومن الـذين يستطيعـون الاستحـمام من الجنابة يزيلونها في دورهم بأن يسخنـوا ولـوقليـلاً من المـاء يسكبونه على أجسادهم مقروناً بنية الاستحمام من الجنـابـة، وكـان التعبـير عن هذا النـوع من الاستحمام السريع بلا تفريك ولا صابون هو (السكب). فاذا قالوا (سكبت) اليوم فمعنى ذلك اغتسلت من الجنابة.

وبالمناسبة كان هذا (السكـب) يلعب دوراً مؤذياً إذا كان الرجل متـزوجـاً من اثنتـين في الـدار نفسهـا، فلهـذه ليلة ولتلك ليلة، فيـا ويله ان (سكـب) وهـو عنـد (الجـديـدة) . ولم يسـكب إذا كانت الليلة (للقديمة) لأن هذا اعلان عن التمييز والحرمان ، وعندئذ (تنصب) عليه النقمة (وتنسكب) المعاتبة وما هو أكثر منها على رأسه وجسده ! . .

ونكتة أخرى عن الحمام والمضاحكة بشأنه ، فأحدهم وكان بائع فول وحمص يفيق قبـل الفجـر ويراقب الذاهبين إلى الحمام ، رأى رجلاً مسنـاً يدخـل الحـمام ثلاثـة أيـام متتـاليـة . في اليوم الثالث سأله : أبا فلان ، أليس كثيراً أن تذهب إلى الحمام في هذا العمر ثلاثة أيام ؟ قال

له الآخـر : اسكت يا أبـا فلان ، هيـه مرة واحدة ولكن ما خلصت الا اليوم ! . . . وعفو الأدب مرة أخرى . . .

الحمام سيران

ولاتسغـربـوا فقـد كان الشبّان يجتمعـون ويتفقـون على أن يذهبـوا سويـة إلى الحـمام وهـذا يعني إنهم ذاهبون للتسلية . ويحدث احياناً إذا كان هؤلاء الشبّان من الميسـورين أن يذهبوا معاً إلى حمام يستأجرونه من بابـه ، على حسـابهم لهم وحدهم ويكون ذلك بعد سهرة حافلة ، وقـد يسبقهم إلى الحـمام فرقـة موسيقـا وغنـاء ، وطعـام كثير وفواكه ، فتكون سهرة كيف وطرب وضحك ولعب وأقلها الاستحمام وتدوم حتى الصباح ولا أزال اسمع حتى الآن بمن يلتقون لهذه الغاية رغم ان كل واحـد منهم عنـده في بيته حمام وتدفئة مركزية ومياه ساخنة دائماً ، ولكن القصد الاجتماع والتسلية والضحك و«الأنكلة»(١) .

حمامات الشباب في القرى

وفي القرى يكون الحمام مناسبة لاظهار القوة ، ويتشاطرون بمن يحتمـل تدليـك الآخر ، وحدثني صديقي عبد القادر حتيتاني وهو معلم أصله من الحتيتـه وهي قريـة من الغـوطـة وإقـامته في المليحة ، أنه كان يتبـارى مع شبـاب المليحـة القبضـايـات في الحمام ومن يحمل (دعكا) أكثر ، وهذا تعبير دمشقي ، فكان الخارجون من تحت يده يظلون أياماً لا يستطيعون حراكاً من كثرة الدعك .

---

(١) يستحسن شرح معنى اللفظة العامية «الأنكلة» ليفهمها غير السوري من قراء الكتاب .

الحمام والغناء

ومن المعـروف أن الحـمام يبنى عادة ولـه قبة أو أكثر وفي هذه القبة فوهات كثيرة للاضاءة يوضع عليها زجاج يدخل منه النور ويسمى هذا الزجاج (قماري) جمع قمرية وهي الفوهة . وبسبب هذا التكوين فان الصـوت الـذي يتردد في جنباته يتضخم ويصبح له رنين ، ولذلك كان من يغني في الحـمام يستطيب صوتـه ، ويضحك الناس في دمشق عندما يقولون ان فلان صوته حلو في الحمام . .

وممـا قرأتـه أن المغني الأشهـر (معبد) كان جاء إلى دمشق ودعاه حاكمهـا إلى جلسـة طرب في الحـمام ولكن الحاكم مالبث أن دعا مغنيه الخـاص ليغني ، والظـاهـر أنه من النوع الذي يطيب صوته في الحمام ، فغـضـب معبـد وحلف ألا يعـود إلى هذه البلدة أبـداً ، وهــذه من حساسيات الفنانين .

الحمام والنمورة !

وكـان من المشهـور عن الحـمام انـه يوصف بنعيم الـدنيا . سمع بذلـك بدوي فجاء إلى دمشق ليرى نعيم الدنيا ، وتصادف أن مر أمام بائع نمورة فاستطاب الشكل ولما ذاق الطعم وهو أطيب قال : أي بالله هذا هو الحمام ! . .

حمام النساء

وحمام النساء له تقاليد نسمعها من قريباتنا . ولكن كل صبي لا بد أن يتـذكـر ـ كما تذكـرت أنا ـ يوماً أخيراً ذهب فيه إلى الحمام مع أمه وسمع من بقية المستحمات هذا التعليق : في المرة الجاية جيبي أبوه (أي هاتي معـك الأب في المـرة القادمة) وذلك اشعاراً بأنه كبر ولم يعد طفلاً لايدرك وتستحي النساء من الانكشاف أمامه في نوع من التعري الجزئي .

ومن المعـــروف عن حمام النسـاء أنـه يكـون عادة من الظهـر إلى المغـرب (بينـما الرجال من المغرب إلى ظهر اليوم التالي) وأنه تكون فيه المعلمـة والبـلانـة وهي التي تسكب على الجسـد البيلون وهـو نوع من الـترابـة الحلبية المعطرة ، ومن تفرك الجسد ومن تصوبن الرأس وتسمى (الأسطة) ، ومن تأتي بالبارد وبالمناشف . وكانت النساء عموماً حين يذهبن إلى الحـمام يعتـبرنـه تسليـة لها طقـوسهـا ومـآكلهـا ومن جملتها (الكرنب) النيء يكسرنه ويأكلنه ، والسفرجل الذي تفضله النساء ، ومن المـآكـل المجـدرة ومخلل اللفت ثم الأصناف التي تلتم عليها النساء ولاسيما (الحراق أصبعه) وما أشبهه ، كما يكون معهن أنواع من النقل والمكسرات . وأكثر ما يكون الحمام (عزيمة) أي دعوة فمن تذهب إلى الحـمام تدعـو من يرافقنهـا من صاحبـاتهـا وتـدفع عنهن ، لاسيما عندما يكون الحمام لعروس يوم زفافها و(جلوتها) على عريسها ، أو للنفساء وهي المرأة التي ولدت حديثاً .

حمام النفساء

ومما يلفت النظر في حمام النساء على ما سمعته أن النفساء تذهب إلى الحمام مرتين : الأولى اسمها حمام الفسخ وتكون بعد الولادة بسبعة أيام ، والثانية حمام الأربعين وتكون بعد أربعين يوماً من الولادة . وفي حمام الفسخ يدهن جسم النفساء بمزيج من حبة البركة المدقوقة الممزوجة بالعسل ، وتجلس على مصطبة تحتها ممر للنار (وتسمى بيت النار فيكون حجرها حامياً) وتكون تحت النفساء منشفة مبللة وعليها تفقس بيضة دجاج وتجلس النفساء فوقها .

أمام حمام الأربعين فان جسم النفساء فيه يدهن بمزيج أصفر اللون من العسل مع الزنجبيل (ماعدا الصدر الذي يغطى بقماش) وهذا يجعل النفساء تبدو في مظهر جميل وملائكي ويبدو ان فائدة هذه الأنواع من الدهون شد الجلد وسحب الرطوبة من الجسم . ثم تسقى النفساء مستحلب اللوز مع الحليب وهو يدر حليب الرضاع .

حمام العروس

أما حمام العروس يوم زفافها فتكون فيه شموع وزلاغيط وتحيط به البهجة وتلبس به العروس فوطة حمام مقصبة غالية الثمن وتمشط بمشط من نوع (سن السمك) ثمنة ليرة ذهبية في تلك الأيام ، كما تتبارى النساء في طاسة الحمام الغالية الآتية من الحج أو من الهند ، ويتباهين ببقجة الحمام التي فيها مناشف من نوع (الصرمة) الغالية الثمن لمن

تستطيـع شراءهـا . أي كان الحمام فيه (دلال) كثير لمن يستطيع أهلها أو زوجها الانفاق عن سعة .

مناشف العرس

وتحفـظ منـاشف العـرس فلا تستخـدم كثيراً إلا في المناسبات ، وأعرف قريبة لنا في بيروت أرتني مناشف عرسها وقالت إنها لم تستعملها منـذ ذلـك الـوقت (نحو أربعين سنة) وإنها تخبئها لكي تنشف بها يوم وفاتها بعد غسلها .

كما ان من هدايـا الـزفـاف المتبـادلـة بين العروسين طاسة الحمام والمناشف ، وبرنس الحمام تهديه العروس لعريسها كتقليد له مغزاه لأن فيه معنى حميما يتصل بالحمام ! . .

قصة فكهة

وحتى لانـترك الحـمام دون أن (نبـل) ريقنا بضحكة (نتنشف بها) كما يفعلون بلقمـة الجبن الطيبـة بعـد غداء لطيف ، احكي لكم قصـة واحـد من القبضـايـات كان (استلط) (١) على صاحب حمام فدخـل واستـحم ثم ادعى انـه سرق له شيء وأخـذ «يقـروش» فاعطـاه الحـمامي ما فيـه النصيب . ولمـا جاء يدخـل مرة جديدة رفضه صاحب

---

(١) أي تسلط واعتاد .

(٢) يستحسن شرح معنى لفظة «يقروش» العامية ليفهمها القارىء غير السوري .

الحمام إلا إذا حلف بالطلاق أنه لن يدعي بسرقة شيء . حلف الرجل ودخل ، فتآمر الحمامي مع الزبائن وجمع ألبسة القبضاي وأخفاها من أجل الضحك . خرج الأخ من الحمام وبحث عن اشيائه فلم يجد منها إلا الخنجر المعلق بحزام وكان موضوعاً على مسمار في الحائط وقد نسيه الحمامي . الرجل قال في نفسه إذا ادعيت بان اشيائي سرقت أو فقدت طلقت المرأة .

فكر ثم لبس الخنجر بالحزام على الزلط وأخذ يتمشى عارياً حول البحرة بين ضحك الناس والتفت الى الحمامي يقول : أنا ما انسرق لي شيء ، ولكن بذمتك بدينك ، أنا هيك جئت ؟ ! . .

بعض تفاصيل الحمام الداخلية

ويجدر بالذكر أن الحمامات المعروفة في الأسواق والمفتوحة لكل الناس كان بعضها أكثر فخامة وجمالاً من بعض ، وأغلى سعراً عند الدخول ، وأنا كنت معتاداً على حمام الخانجي في رأس سوق الهال وكان أحسن من حمام الورد وحمام الجوزة وهما أقرب منه .

وفي كل حمام كانت توجد مقاصير أي غرف صغيرة للاستحمام لها أبواب وتوضع عليها فوطة فتكون حاجزاً عن الانظار ، ويستأجرها أفراد العائلة أو الاصحاب لينفردوا بها عن سواهم .

كما كان فيها مصطبة حارة فوق بيت النار من أجل ان يجلس عليها من يشاء فيتفصد عرقه بسرعة وغزارة .

ولايخفى ان في الحمامات مراحيض ، وفتحات تهوية تؤمن تبديل الهواء ، ومجار لنضح الماء الذي ينشأ عن الاستحمام

حمامات خاصة

وكانت في بعض البيوت الكبيرة والفخمة حمامات خاصة مصغرة عن حمام السوق بأقسامها البراني والوسطاني والجواني ومقاصيرها وأجرانها وكل تفصيلاتها ، ومن يذهب إلى قصر العظم (متحف التقاليد الشعبية) يجد الحمام وفيه تماثيل شمعية تمثل كل مراحل الاستحمام .

وقد تطورت حمامات السوق الآن فدخلتها الكهرباء ومياه الفيجة وصار ماؤها يسخن على المازوت ، ولذلك فلم يبق إلا المظهر الخارجي ، ولكن الناس ما زالوا يذهبون إليها إما للتسلية وإما للاستحمام ، وعددها في دمشق ولو تضاءل مازال كبيراً .

حمام الهنا

وقد عاش الحمام في مخيلة الناس حياة واضحة وجميلة من خلال مسلسل حمام الهنا للفنانين دريد ونهاد والسبيعي ، ولم تستطع القصة الجميلة ان تخفي حياة الحمام وتقاليده ، والفن يخلد الأشياء الجميلة .

لفصل الحادي عشر

أنا والأسرة

مولدي ، زماناً ومكاناً

بعـد أن تكلمت عن دمشق وضعـاً ومجتمعـاً وتقـاليد وعادات ، يسعني أن أتحـدث عن قصتي وقصـة أسـرتي معها منذ ان ولدت وحتى نهاية العشرينات .

فمن الأشيـاء اللطيفـة التي رافقت حيـاتي وتـركت أثـرهـا في تكويني ، أنني ولدت في الثامن من آذار عام /١٩٢١/ في دمشق ، في بستان الكركه المطل على بوابة الصالحية وفي نفس الخمسمئة متر مربع التي قضيت فيها معظم أيامي حتى الآن .

تاريـخ مولـدي لم يكن معـروفـاً في الأصـل لأن النـاس لم يكونوا يأبهـون في أيـامنـا بتسجيـل اليـوم بالـذات إلا نادراً ، ومن يسجـل ذلـك فعلى مصحف الدار . ولكن والدي رحمه الله سمع من صديق العائلة العقيد المتقاعد المرحوم شفيق حمدي انه سجل تاريخ ولادتي في مذكراته فكان الثامن من آذار . ولكنني في صغري كنت اسمع من والدتي كلما دار الحديث عن ميلادي أنني ولدت في شهر رجب ، وأن طعام الاسبوع الـذي أولمـه والـدي بهذه المنـاسبـة كان الأرز بالفـول والقطـائف

العصافيري ، والفول الأخضر يكون في الربيع .

بطاقتي الشخصية تحمل في مكان عام الولادة /١٩٢١/ ثم شطباً عليها وإلى جانبه (١٩١٩ تصحيحاً) . ذلك أنني عام ١٩٣٧ خطر لي أن أدخل المدرسة الحربية والتقدم اليها شرطه يومذاك ان يكون الطالب من مواليد /١٩١٩/ ، فأقام والدي دعوى لتصحيح تاريخ الميلاد وكبروني سنتين . غير أنني لم أقبل في فحص المدرسة الحربية ، ولا أعرف أكان هذا لحسن حظي أم لسوئه . إنما أذكر أن بين المتقدمين في هذه الدورة المرحوم عدنان مالكي الذي صار فيما بعد معاوناً لرئيس الأركان . ولذلك فقد كتبت عام /١٩٥٥/ مقالاً عنوانه (العقيد المسرح أو المرحوم) ذكرت فيه قصة محاولتي الدخول إلى الكلية الحربية وفشلي في ذلك ، وأضفت أنني لو كنت قبلت فيها فبحسب القدم كنت صرت عقيداً، وبحسب المزاج كنت أما عقيداً مسرحاً وإما عقيداً مرحوماً . . وأظن الاشارة في هذا تغني عن التصريح بكلام أكثر . . .

ولعب دوراً في استقراري النفسي ـ وهو شيء غالب في مزاجي ـ أنني فيما خلا سنوات قليلة عشت فيها خارج بستان الكركة الذي ولدت فيه ، أمضيت كل عمري ولا أزال في المكان نفسه ، وليس هذا أمراً يمر بلا تأثير . ولذلك فأنا ألوف ، أحب الأماكن التي ذهبت إليها ذات يوم وأحن إليها ، ولا أحب التغيير والتبديل كثيراً ، ولولا أنني مع التطور لكان هذا ترك في نفسي ميلاً إلى الجمود . اذكر قول الشاعر :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا   لفارقت مشيبي موجع القلب باكياً

فأقول انه يصورني. أنا في بيتي لا أحب تبديل الأثاث كلما أمكن الاحتفاظ به ، ولا أحب تبديل الثياب إلا إذا اقتضى ذلك الحاح

الـزي الجـديـد حتى لا أتهم بالتخلف ، ولا أحب تغيير السيارات إلا إذا لم تعـد تسـير أو أوشكت . . . كتبت في احـدى السيارات بعد أحد عشر عاماً من تملكي لها :

سيـارتي عتقت وصارت تظلع أبـوابهـا من دفشـة تتخلع . .

واحـــدى بنــاتي كانت تسمي سيــارتي هذه (طنـبراً) ومـع ذلـك فلم أتــركهــا بسهــولــة . فقد كنت أرى أن السيارة ليست آلة فقط وإنما هي مكــان للذكـريــات ، فمن باعها كأنما باع الكثير من قصص الرحلات ومن سمر العشيات في عصر أصبحت السيارة فيه تضم قسماً ذا بال من وقت الانسان .

على أنني وأنــا أقــرب إلى الثبـات في المكــان والـزمـان ، أعمل جهـدي وبقـرار صارم لأكـون متطـوراً باستمرار وابن وقتي . ذلك انني رأيت أن الفارق بين جدي وأبي معدوم وأن بين أبي وبيني جسوراً كثيرة تصل الحياتين والمشربين ، أما بيني وبين بناتي فيجب أن أركض وألهث حتى لا يعتبرنني متخلفاً ، فالى مثل هذا الحد بلغت وتائر التاريخ من قلب العـادات والمفـاهيم والقيم . فأنـا اذن اسعى الى مسـايرة التطور قراراً لا مزاجـاً ، ولـولا انني أرى ما في الجـديـد من عظمة وعمق لكنت أقرب إلى (الرجعية) في العادات والسلوك . . .

العائلة

العـائلة التي تربطني بأفـرادها رابطة العصبية والاسم (ويقال ان جدنـــا الأعلى جاء من العــراق ، والله أعلم) ، ليست لا كبـيرة ولا عريقـة بين العـائـلات . كل الأحيـاء من رجـالهـا ونسـائها لا يكادون

يبلغون الخمسين عدداً ، غير أنها ، ككل العائلات الدمشقية ، تربطها روابط النسب والرحم والمصاهرة بكثير من الأسر فاذا تابعت السلسلة أوشكت أن ترى دمشق القديمة في أيامنا كلها كتلة من أقرباء .

غير أن قلة العدد لم تمنع من أن يعرف الكثيرون باسمها . فلقد تعرفت إلى كثيرين من قدامى الشيوخ والأدباء ، فسألوني عما يصلني بالمرحوم سليم افندي قصاب حسن ، التاجر الشاعر الظريف وعشير الأدباء والكبراء في مطلع القرن العشرين ، وصاحب ديوان مطبوع اسمه (نسمة الصبا في نشأة الصبا) (١) فيه كل مزايا الشعر المصنوع للمناسبات المحلى بالمحسنات .

ديوان سليم قصاب حسن

قد كنت أمر بهذا الرجل دون وقوف عنده لولا أمران انه شاعر وانه ظريف . ديوانه المطبوع من مئة عام تماماً في دمشق جاء في مئة وستين صفحة من المنتخبات الشعرية ، وفيها قصيدة ذكر فيها مئة وستين نوعاً من أنواع البديع ، كما فيها مدح وهجاء ومداعبات واخوانيات وغزل وابتهال . فالرجل كان تاجراً ميسور الحال ولذلك جاءت قصائده على (مقتضى حاله) . وأكثر ما أعجبني فيها أن تصدى للغناء الدارج الشائع في أيامه فنظم على وزنه (أي عروضه)

---

(١) ذكره العلامة محمد كرد علي في (خطط الشام) كما ترجم له خير الدين الزركلي في (الاعلام) .

شعراً جديداً أو جيداً . ومن ذلك ما نظمه على (عروض أغنية بفتا هندي وهي من نغم رصد ماهور) واخترتها دون سواها لأن نغمها عاش من جديد وهو في ذاكرة الناس واسماعهم ، قال :

ماس يهدي ، رشف شهد ... لذة للشاربين
أهيفٌ يزهو بقد ... زانه عطف ولين
اشعل القلب بنارٍ ... بدر حسن قد أنار
وجهه يكسو الدراري ... نور اشراق مبين
كم وكم تنفي وعودي ... عاد جسمي رق عود
فاجلُها في صوت عود ... بين أحلى حور عين
أمزج الراح بريق ... من لما ثغر بريق
خمرة تطفي حريقي ... من يد الظبي المهين

ومثلها قصائد كثيرة . لما أطلعت عليها منذ فترة حين وقع الديوان في يدي رأيت انني فعلت دون أن أدري الشيء نفسه حين تصديت لكتابة شعر حديث على أوزان ملحنة قديمة ، فلم اتجاوز التقاليد العائلية .

وأكتفي من حديثه بهذا المقدار فليس في ديوانه الا ما ذكرت من الأغراض وهي اليوم لم تعد تحرك أحداً .

ثم تعرفت إلى كثير ين ممن هم دونهم سناً ، فاستفسروا مني عن قرابتي مع العقيد المتقاعد ابراهيم قصاب حسن ، عمي شقيق والدي ، الذي شغل مناصب كثيرة مرموقة في أكثر انحاء البلاد ولعل صغر العائلة وانقطاع الأسباب بينها وبين الثروة الموروثة أو الجاه العريض ، هو الذي جعل كل افرادها يسلكون جادة العصامية فيوفق

منهم من يوفق ويعيش الآخرون . ثم لعل هذا المنبت الشعبي في الأصل ، هو العامل في تكوين الكثير من صفاتنا الخلقية والفكرية ، منذ جدي حتى الساعة .

جدي محمد رشيد

كان جدي المرحوم محمد رشيد نجاراً عربياً ، وعنه أخذ والدي حب هذه المهنة فاتخذها مكسباً للعيش حتى آخر حياته وعنه أخذت أنا نفسي حبها ، وحذقت بعض أصولها حين كنت الزم والدي في العطل الصيفية ولكنني لم احترفها .

لم يغادر جدي دخلة (الكمار) في حارة الورد من حي سوق ساروجة الذي ولد فيه وتزوج وربى اولاده ردحا من الزمن . غير انه حين ورث من أمه وهي من عائلة شرف قطعة من الأرض في بستان (الكركه) المجاور لبوابة الصالحية نقل العائلة إلى حوش صغير فيه كان مسرح طفولة أبي قبل طفولتي والمربع الأخضر الزاهر الذي فتح عيني على الجمال وحب الجمال .

رجولة هدّارة

لم أعرف جدي ، ولكن ملامحه كما رسمها لي أبي في أحاديثه صورته رجلاً ذا هيبة وحسن سمت . قامة فارعة وشعر أشقر أحمر ، ولحية ناعمة خفيفة تعلوها عمامة الأغباني الصفراء الذهبية شعار المعلمين البارعين في الحرف . وكان ديّنا شديد التقوى . والصورة التي

في مخيلتي عنه نقلاً عن أبي هي صورة عمي ووالدي يتقدمانه ، صبيين صغيرين يحملان الفانوس في الطريق إلى جامع الشامية في دمشق لتأدية صلاة الفجر فيه. كما كان من اتباع الطريقة الصوفية المعروفة بالقادرية.

ثم كان إلى جانب نعومة التقوى والدين ، يملك رجولة هدارة . ويحدثني والدي عنه بنبرة الحب ، انه اضطر فترة من الزمن إلى السكن في مزرعة (بيت سوا) العائدة لقريبه (عطا افندي الكيلاني) في الغوطة فقطع فيها دابر الأشقياء . ولعل الشي الوحيد الذي رأيته من آثاره ، سيف عريض من النوع المعروف باسم (القاما) ، أكل رواءه الصدأ حين اضطر والدي إلى دفنه في الأرض أيام الثورة السورية .

وكان جدي صلب العقيدة ، خاشعاً أبداً من ذكر الله . ربى ولديه ابراهيم وسعد الدين (عمي وأبي) على مزيج من الحنان والهيبة ، وقدمت الحنان على الهيبة لأنه كان كذلك يفعل كما روى لي والدي عنه في كل مرة يرد فيها ذكره ، فيذكره بالحب الاعجاب ودمع العين .

صورة أخرى لجدي ، حدثني أبي بها ، وأنا ملقى الرأس حالماً على ركبتيه قال : أبداً ما نظرت في عيني أبي ، على حبي إياه . كنت اتهيب نظرته لما فيها من حلاوة وهيبة الحلاوة غير أنه لا يكاد يلفت عينه عني ، حتى تشد أبصاري إلى وجهه الوقور ، الى عينيه الصافيتين . والبريق الغريب في عيني أبي حين كان يتحدث عن جدي ، كان يلقي

في قلبي كثيراً من المرارة . فلقد نشأ أبي نصف يتيم ، وماذا تسمون من مات أبـوه عنـه وهـو في الثـالثـة عشـرة من العمر ، في السن التي يأنس الصغار فيها ليد تمسح شعرهم ، لقبلة تطبع على وجناتهم ، لزند قوي يلاعبهم ، ويبعث في أذرعهم الطرية اشعاعاً من قوة وحياة ونماء ؟ ! . .

وحـين حضـرتـه الوفاة فيما يروى أبي عنه ، نادى جدتي فودعها وأوصاها خيراً ، ثم طلب منها أن تخرج من الغرفة للحظة فامتثلت ولما عادت بعـد وقت قصـير وجـدتـه قد فارق الحياة . لقد وفر عليها شهود الخاتمة الاليمة رقة وعطفاً .

جدتي زاهدة

أما جدتي واسمها زاهدة ، فكانت قصيرة القامة عبلة (١) حلوة وجـه وشـمائـل ، وكـان من حسن تهذيبهـا لاولادهـا أنها تستخدم هيبة زوجهـا في ردعهم دون أن تعـرض هذه الهيبـة للاصطـدام فعلاً بنزوات الصغار . وقد أعطت جدي أربعة أولاد هم عمي وأبي وبنتين إحداهما توفيت عن أولاد وهي شابـة والثـانيـة هي عمتي رقية التي سبق الحديث عنهـا في هذه المـذكرات . وقد ظلت ترعانا وتعيش معنا وقربنا ، نشيطة حتى حين جاوزت التسعـين . ولـوقـارناها الآن بصبايا جيلنا الناعمات نؤومات الضحى ، لبدون أمامها في النشاط أكثر من صورة باهتة .

(١) ـ أي ممتلئة سمينة .

وروى لي والدي عن جدتي أن جدي كان يحسن معاملتها وأنه ما آذاهـا ولا انتهـرها قط في حياته ، وكان يدللها فيناديها باسم « زادو » أو (زاد الخـير) . ولـذلـك فعـل ابي مثله في معـاملة والدتي ، وهذا دليل على أن المثال اهم من الموعظة .

كان عمي ووالـدي رفيقـين بينهـما ثلاث سنوات ، وقد ترافقا في المدرسة الابتدائية حتى أخذ كل منهما شهادتها ، فاما عمي وهو أكبرهما فأرسـل بعـد سنـوات إلى الاستـانـة حيث دخـل المـدرسـة العسكرية (بمسعى من قريب لنـا هو المـرحـوم عطا افندي الكيلاني) (١) وتخرج منهـا ضابطـاً في الـرشاشات ، وأما أبي فاختار العمل في مهنة أبيه ، في النجارة ، ونعما فعل . ولما أغمض جدي عينيه على شوق للغائب وثقة بالصغـير النشيـط المكـافـح ، نهض الصبي بعبء العـائلة بشجـاعـة وهمة ، واسعفـه ذكاؤه ونشاطه العجيب في أن يبرع في النجارة إلى حد أمن لأهله مستوى من العيش لا يحتاجون معه أحداً ، وهو بعد في سن يلعب لداته فيها « بالكعاب » .

إن في والدي كل صفات جدي وجدتي ، وأكثر منها . انه رجل نادر في زمن اصبح النادرون فيه أكثر من نادرين ، انه صاحب الفضل الأول في كل ماتفتـح فينـا ، نحن أولاده ، من مزايـا ، وفي دفعنـا إلى اصلاح كل مافينا من نقائص .

حبنـا له ، نحن أولاده ، أكـبر من أن يفي به القلم المعجـز ،

---

(١) ـ بدون مثـل هذه الـواسطـة من رجل متميز من الأكابر لم يكن أحد يجد سبيله إلى الكلية العسكرية أيام الأتراك .

فكيف العاجز ؟ . انه أب وأخ ومعلم وصديق ، واحسبني لا أجاوز الأدب إذاقلت انني أحبه ، فوق ذلك كله ، كقطعة من كبدي ، كولدي . ! .

وإليكم ما كتبته عنه في صحيفة الرأي العام سنة ١٩٥٤ :

أبي

في عام ١٩٤٠ ، وفيما كنت اجتاز ساحة المرجة مع صديقي الاستاذ سامي دروبي وكنا يومذاك طالبين في دار المعلمين ، تعرض لنا رجل قصير القامة ، خفيف اللحية تحت عمامة اللام ألف الصفراء المزركشة ، ضاحك الوجه والنظرات :

ـ مرحباً يا شباب ! .

وانطلقت كفه القوية الخشنة ترن على كفينا في مصافحة ودها ود المصارعين وسأل : إلى أين ؟ قلت إلى عند (مهنا) بائع الحلوى ، نأكل كنافة . قال ضاحكاً : وحصتنا محسوبة ؟ .

وبين « تفضل » ملحة واعتذار بشوش ، وانسحاب خفيف الخطو غابت معه الملامح الانيسة والثياب العربية عند أول منعطف ، سألني سامي : من هذا ؟ .

قلت : ألا تعرفه ؟ إنه أبي ! . .

ـ أبوك ؟ ! أفي الدنيا آباء من هذا النوع ، ألطف ظلاً من اخوان وأصدقاء ؟ .

بعـد أربعـة عشـر عامـاً ذكرني ، بالقصة الصديق نفسه ، على الهـاتف ، وعتب علي أنني انسيتهـا . ومـا من قلة تقـدير غابت في زوايا اللاشعور ، ولكن من ان هذا الحنان الذي ارتفع بالابوة حين هبط الى مظهـر الاخـوة ، وهـذه البشـاشـة التي تفعل في التهذيب أكثر من فعل التقطيب كانـا رفيقي عمـري ، والسلك النـاظم لكـل موقف في كل ساعة ، منذ أن وعيت وجود أبي ، وعرفت الدنيا طيبة من خلال طيبه .

في سلوكه الكثير مما قد تنسبه إلى زمن قديم : تصلب في الفصل بين الحـلال والحـرام ، بين الجائز والممنوع ، وأخذ من كل شيء بأوثقه وأبعـده عن الشبهـات . وتـدين بلغ حد التصـوف وقـارب التقشف والـزهـد . ولسـان عف ما سمعته شتم ولا قذف ولا تعرض لغائب ولا لحاضر بما يكره . الناس كلهم في قلبه ، فما أوسع ما أحب ، وما أقل ما كره . فاذا غضب فغضب الحليم ، وترده إلى الموعظة الحسنة الكلمة الحسنة .

ما تعلم في المـدرسـة كثـيراً ، ولكنـه نصب نفسـه ـ وهو العامل الكادح ـ طالب علم . ما من شيخ سمع بأنه ذو علم وفضل إلا لحق به آخـذاً من علمـه ، ومـراقبـاً فضله ، حتى إذا وجـد اعـوجاجاً قام اليه كالسهم المنطلق . وكثيراً ما شهده المصلون في المساجد ، والمجتمعون في المحافل ، واقفاً وقفة الرجلِ الذي يسأل نفسه عن كل شيء ، ويرى في السكوت عن الباطل باطلاً مثله .

المسكنة لايراها من العقيدة ، فالدين عنده رجولة وسعي وخدمة وسلوك . الدين في ساعده مثلما هو في قلبه ، في كدحه لصغاره مثل ما هو في صلاته . والقاعدون ، في نظره ، ادعياء اصلحهم الله . حفظ من

كلام النبي العـربي الكثـير ، وعمل به كله ، وعنه أخذ «إذا كبر ولدك آخـه» فأسعـد طفـولتنـا وشبـابنـا بحب غامـر ، وصـداقة رائعة . واني لاخجـل - وافخـر - إذا اصـرح انـه ، ليبعث فينـا الاعتـزاز وليشعـرنـا بالاحترام لانفسنا عن طريق احترامه لنا ، ما دخلنا مرة وهو متكيء إلا جلس أو وقف ، ويكـاد الا يكـون خاطب أحـدنـا إلا بلفـظ الجمع . وبهـذا الاحـترام لنـا المبالغ فيه ، فوق كل سلوكه ، جعلنا كلما كبرنا ، احسسنـا أكثـر من قبـل اننـا صغاره . وهو إذ يرانا امامه شباباً وصبايا ، ويعانقنا عناق المشتاق للمشتاق يدفع في كل عروقنا نسغ الحياة والقوة . كأنـه يفـرغ فينـا حبه ، ما أودع في نفسه من حنان كعرض السماوات . كأنه يفرغ فينا قوته : صلابة زند العامل ، وثبات روح التقي النقي ، المؤمن بلا خوف ، الصافي بلا كدر ! .

أحبـه ؟ ! ومـا يفي بحبه القول . طفولتي كلها تقضت آمنة إلى جنبـه . لا أزال اذكـر اذ انـا صغـير ، كيف كنت أفيق في بعض الليالي بذعـر من اثقلتـه هواجس الأحـلام ، فالتصق بصدره بالتجاء الضعف إلى القـوة ، واهمس : أبي ، أقـرأ لي ! فيتمتم لسانه بآيات ، ويمسح على رأسي بيديه في الظلمة ، ويضمني إلى صدره بقوة لا أزال احسها في ضلوعي حتى اليوم فآنس ، واطمئن ؟ وأعود إلى أحلام ذهبية .

ولا أزال اذكـر اذ أنـا صغـير ، يوم اضطر فضربني ضرباً رفيقاً . فقـد بكى بكـاء اليـما اوجعني أكثـر من ضربي ، وهتف بربه الا يشقيه بي ، الا يجعلني الخروف الشارد من القطيع .

وكيف أنسى ، يوم اتعبتـه بحثـا عني تحت الـرصاص المنهمر وأنا بعـد دون الثـانيـة عشرة أركض من مظاهرة إلى مظاهرة سحابة النهار ؟

حتى إذا جئت مع المساء ورأيت في عينيه تصميم المؤدب ركضت هارباً أمامه إلى الشارع استقبل الظلمات . في تلك اللحظة والوقت ليل ، لمحت الاشفاق اضاء تحت العبوس . وكما يردون المهر الشارد بكلمات المؤانسة والاقتراب الرفيق جاءني تسعى بين يديه العبارة الحلوة الرحيمة : تعال يا أبي ، يا حنوني (١) . . واطمأنت نفسي فعدت ، واخذني إلى الدار عناقاً وحملاً بين ذراعيه .

منذ بلغت الخامسة عشرة ، منحني حرية واسعة عرف كيف يراقبها بعين الذكي الذي لا يريك انه يراقب ولا يظهرك على انه ذكي . دخلت مرة ناديا من نوادي الشباب بعد استشارته فجاءنا أكثر من مرة زائراً على حين غرة ، رقيقاً كأنما ليرافقنا لا ليراقبنا ولم يشعرنا إلا أنه واحد منا ، فلما اطمأن تركني وشأني .

كان يريدني رجلاً ، والتضييق لا يخلق رجالاً ، كان يريدني واسع الأفق فلم يسد علي المنافذ ، وسكت عن كثير مما لا يعجبه لانني صدقته القول ، وأغضى عن كثير مما لا يحب أن يراه ، يكفيه في تهذيبي أنني احبه وأحس حياله بالحياء .

حمل الكثير من المتاعب من أجلي . في ذات يوم من ١٩٤٧ ، بلغت الخصومات السياسية حداً جعلني أتعرض لهجوم من بعض غاياته قتلي(!) وجعل أبي يتعرض وأهله وبيته لاقتحام الباب عليهم من قبل أناس أعرفهم حتى اليوم باسمائهم ، فحطموا ما حطموا ، ومزقوا ما مزقوا ، ولولا أن أبي نجا بالنساء والأطفال من الدار

---

(١) وكانت هذه كلمته المفضلة يخاطبني بها .

عن طريق السطح ، لكان الشأن غير الشأن . كانت الهجمات قد تجاوزتني إليه ، وكان الكثيرون قد ضيقوا عليه المسالك تهجماً ، وأنا متخف عن المطاردة اتنقل ـ ولا يعلم ـ من بيت إلى بيت . وخيل إلي أن كيله لا بد قد طفح ، وان المزعجات التي احاطه بها سلوكي السياسي قد احرجته فأخرجته . اعترف أنني قد ظلمته يومذاك ، وبخسته حقه من الثقة به . بيد انه كان أعلى من ظني ، ومن العتب المستحق فجاءني ذات ليلة يقابلني خطفا في الطريق ، ويشجع ، وينفّس عن قلبي شعور المذنب ، ثم يقدم لي على استحياء كل ثروته وكانت ست ليرات سورية .

ليس في وسع هذا الحديث ان يحيط بفضله ، وما ينبغي له ، وسيكون معنا أيها القراء الأعزاء ، في كل الطريق الطويلة التي سرتها وأحب أن أعود أدراجي معكم اليها ، نرافقها من جديد بعين من سبق له علم فترة من الغيب ، فأحب ان يستكثر من الخير .

التشدد والخلاص منه

على أني وقد تصديت للحديث عن والدي لابد لي أن أكمله ، فلا يوجد انسان ايجابي كله . وقد كان رحمه الله ، في بداية أمره ومن جراء التعصب الديني الشديد قد ضيق على بناته فأخرج الأولى من المدرسة وكانت متفوقة في الدراسة ، مفضلاً أن تتعلم الخياطة ،ولم أكن أستطيع بعد أن أؤثر في هذا الشأن كما ان البلد لم تكن تطورت بما يكفي . ولكن البنات الثلاث التاليات تعلمن أفضل ، فواحدة (وهي

أميرة) أصبحت معلمة ، والثانية وهي (عفاف) درست المرحلة الاعدادية ، والثالثة وهي (نجوى) بلغت الجامعة . وللانصاف أقول أن نجوى كافحت بجهدها وبصبر وعناد حتى استطاعت أن تكملها ، إذ كان ذلك على مضض منه وتشدد في حقها ، في الثياب وسواها إذ كان بكل صراحة غير مقتنع بدخولها الجامعة بسبب تعصبه . ولكنها بعد أن نجحت وحملت شهادة الدكتوراة وشقت طريقها باحترام في العمل الجامعي رضي عنها كل الرضا وأبدى فخره بما وصلت إليه .

ولما كانت العلاقة بينه وبيني ممتازة وما فترت يوماً عن ان تكون ملأى بالحرارة فقد تفاعلنا ، وكان لي أثر في تلطيف تدريجي لتعصبه الشديد ، وفي اقتناعه بكثير مما كان غير مقتنع به أصلاً ، حتى صار بعد في النصف الثاني من حياته رجلاً متطوراً ، فعمل في الحركة النقابية ، وفتح بيته ليضم المؤتمر الأول للعمال السوريين ، وحمل الفراش لكنته السجينة إل الحبس ، وكانت إذا رجعت من مهمة في ساعة متأخرة من الليل تجده في انتظارها ليهيء لها العشاء بنفسه عطفاً وتعاطفاً .

وللدعابة أقول أنني في الستينات حين كنت مديراً للفنون كنت ألاحق بناء المسارح ، في حين كانت هوايته ملاحقة بناء المساجد . فقلت له مرة : عال ، تقاسمنا . أنت تبني جوامع وأنا أبني (تياتروات) ! فضحك ، ولا يخفي أن المسرح اسمه بالأجنبية الايطالية تياترو ، وهو مدرسة ثقافة وتهذيب أن احسنت ادارته ، ولكن كلمة (تياترو) كانت لها في دمشق دعاية سيئة ! . . .

ابراهيم قصاب حسن (١)

في الزمن الماضي كان تسجيل الولادات لا يتم بالدقة التي يجري بها اليوم ، ولذلك فكثيراً ما نرى تبايناً بين السن المسجلة والسن الحقيقية كما هو الشأن في عمري وقد سبق ذكر ذلك . وقد سلمني المرحوم عمي ابراهيم قصاب حسن (١) مذكراته وفيها يقول : كانت ولادتي في /١٢/ ربيع الأول من العام الذي يصادف في /١٨٩٤/ . بلا شك ، اذ انه أكبر من أبي بسنوات ، ومع ذلك فأبي مسجل انه من مواليد /١٨٩٠/ وعلى ذكر هذا الفارق في السن بين عمي وأبي يظل أبي يشكو ـ ولكن بلطف ودعابة ـ من أخيه الأكبر منه الذي ما زال يصر بعد أن جاوزا كلاهما الثمانين على أن يعامله على أنه الأخ الأصغر الذي يجب أن يؤمر فيطيع . ولعل هذا من آثار التربية العسكرية ومن أدب أخيه معه لأنه الأكبر .

الصبيان والبنات

ويقول عمي أنه جاء بعد سبع بنات فكانت فرحة كبيرة في العائلة . ذلك انه حتى الآن يستقبل الصبيان استقبالاً حسناً وبالفرجة في حين ان البنات يستقبلن غالباً بالوجوم . في دمشق يقولون إذا سكت الساهرون كلهم فجأة : هل ولدت بنت ؟ وقد كنت أتمرد على هذه

---

(١) ـ توفي في شهر آب ١٩٨٣ . ومن العجب ان وفاته ووفاة والدي ووفاة جدي وعمتي وقعت جميعاً في أيام متقاربة من شهر شوال في التاريخ الهجري .

القاعدة ولاسيما أنني ما عاش لي إلا بنات ثلاث وراح صبيان أحدهما اسقط قبل الآوان والثاني ولد وعاش أربعاً وعشرين ساعة فقط إذ لم يصرخ صرخة الولادة . ولكنني حين أرى ما تعاني البنت في بلادنا ـ والعالم في أغلب مناطقه ـ أرى أن الناس ما يقفون هذا الموقف عبثاً ، فالبنت تحتمل ويحتمل أهلها معها الكثير وقديماً قيل : هم البنات للمهات وسيظل الأمر كذلك إلى عهد طويل ، وستبقى بقاياه حتى لو فرضنا تحقيق المساواة الكاملة ما دامت البنت هي التي تحمل وتلد ، وفي ذلك عظمتها وضعفها في آن معاً .

حرب جناق قلعة

ويمضي عمي في سرد ذكرياته فيقول أنه تخرج من المدرسة الرشدية بعد ذلك وذهب إلى القسطنطينية ليتعلم في المدرسة الحربية ، ثم تخرج منها ضابطاً في الرشاشات وكان ترتيبه الأربعين بين أربعمئة طالب . صغير الحجم ولكن ذكي ومقدام . وقد شارك بنشاط في معارك (جناق قلعة) وكان على رأس سرية رشاشات أثخنت في الفرنسيين والانكليز ، ولما احتاطوها وطوقوها كان من شدة القصف وغبار المعارك ان اختلط الأمر فأصبح الجنود كلهم يغطيهم الغبار فلا يعرف العدو من الصديق ، ثم شن الأتراك هجوماً معاكساً وحرروا هذه السرية بعد أن كانوا اعتبروها وضابطها في عداد المفقودين ، وأعطي الضابط ابراهيم الوسام الحربي لبسالته ، بأمر من السلطان ، ورفع إلى رتبة الملازم أول .

أبو لبادة وكلمة (عباية)

وبهـذه المنـاسبـة فمن المعلوم ان السلطـة الـتركيـة كانت تجنـد الـدمشقيـين وغـيرهم لتأخذهم إلى الحروب ، وقد أكلت الكثير منهم حروب معـروفـة ضاريـة مثل معركة (جناق قلعة) في تركيا التي ذكرها عمي ، وكـذلـك معـركة الترعة حين حاول جمال باشا صد الانكليز ، وحـرب اليمن وغـيرهـا . والتجنيـد ويسمى (الأخذ عسكر) وكذلك (السوقيات) كان عشوائياً لأنه لم تكن هناك قيود منتظمة للسكان ودعوة أصولية كما هو الشأن الآن في خدمة العلم ، وإنما كانت تطوف جماعات التجنيد في الشوارع يقودها شخص كريه لدى الدمشقيين القدامى لقبه (أبـو لبـادة) لأنـه يضع على رأسه لبادة ويلبس عباءة فيسير ومعه كوكبة جنود وكلما شاهدوا أحداً في سن الشباب أو الرجولة حتى ولو كان صغيراً في الخامسة عشرة ونحوها ، إذا كانت قطعته فحلة أي جسده يبدو عليه أنـه بدأ سن الفتـوة ، أو كان في الأربعـين ومـا بعـدهـا ، أخذوه وكتفوه بالحبـال وسـاروا به مع سواه قافلة مربـوطـة كأنها الدواب ويساقون إلى الحـروب (١) ولـذلـك كان أهـل دمشق قد اصطلحـوا على تهريب

---

(١) ـ كان من المعـروف أيضـاً أن هنـاك ما يسمى (بالانكلـريـة) أي السخـرة الاجبـاريـة فيلمـون عدداً من الطريق كيفما اتفق ليقوموا بعمل ثم يطلقونهم بعد انتهاء العمل .

ومن الحكايات الباسمة التي كانت تروى في دمشق ان الشاميين كانوا يعـرفـون في وسط طابور تركي كامل من أول يوم . فواحدهم إما أن يضرب الشاويش أو (ينسف) التعيين وهو الطعام المقرر للجندي أو (يطلع فراراً) . .

المطلوبـين والتنبيه لقدوم اعوان السلطة (ويسمى واحدهم عواني) بأن يقـول أحـدهم بصوت مسموع (عباية) وتتناقل الأفواه كلمة (عباية) فينتبـه النـاس ويفـرون منـذعرين في كل صوب . وما يزال الدمشقيون يقـولـون هذه الكلمـة دعـابة إذا جاء واحد لا يريدون أن يكملوا امامه حديثاً كانوا قد شرعوا به .

اتقان اللغات

ويتابع عمي مذكراته فيقول ان سريته سيقت بحراً ، على ظهر الـدارعـة برسـلاو الالمـانيـة ، الى القفقـاس حيث ساهم في معـاركها هنـاك ، ولمـا هدأت الجبهـة بعـد الثورة البلشفية أتيح له وقت تعلم فيه اللغـة الـروسيـة حتى صار يتكلمهـا بطـلاقة ، وأصبحت اللغات التي يحسنها هي الفرنسية والالمانية والروسية والتركية والعربية ، وهذا نادر في تلك الأيام .

هل كانت قصة حب ؟

ويـروي عمي في مذكـراتـه قصـة خفقـان قلبـه لفتاة روسية من عائلة ثريـة ، ساعـد في اعطائها بعض الأدوية حين كان ساكناً قربهم ، فدعـاه أبـوهـا إلى زيـارتهم ، وقـال إنها حين قدمت القهوة له ارتعشت يداهـا ، ولم يكن هو أقـل اضطـرابـاً وحين ودعهم كان ينوي العودة مع هديـة منـاسبـة ، ولكنـه سرعـان ما نقل من المنطقة . على أن عمي لم يلبث أن تزوج من زوجه التي رافقته حتى الآن ومنها كل أولاده الستة .

مصطفى كمال

وقد عرف مصطفى كمال ورافقه وأملى عليه القائد التركي برقيته الأولى التي أعلن فيها انفصاله عن الاستانة ، وكان في الأناضول . ثم انـه استأذن بعـد اعـلان الهـدنـة في العـودة إلى سورية فأذن له ضباطه تقـديـراً لبسـالته ، فعاد والتحق بالجيش الفيصلي ، وعينه قادته مدرساً لمادة الطـوبـوغـرافيا في المدرسة الحربية ، وألف فيها كتاباً بالعربية ، ثم بعد حل الجيش الفيصلي بدخول الفرنسيين التحق بسلك الدرك وبقي فيه حتى بلغ رتبه العقيد .

عمر من المناصب الادارية العالية

وقد كان في كل حياته وطنياً مخلصاً ، وموظفاً نزيها نقي اليد نقاء مطلقـاً ، وانسـانـاً حازمـاً بلطف لا يرفـع صوته ولا يشتم ولا يتغطرس ولكنه محبوب وصاحب هيبة . وقد تولى مناصب في معرة النعمان وفي دير الـزور وحمص وحلب وفي دمشق ، ثم في الجـزيـرة وفي ديـر الزور عندما تحقق الجلاء ، وساهم في توطيد السلطة الوطنية مساهمة جيدة ، وتولى مديـريـة الشـرطـة العـامـة كما كان مديـراً للغـرفة العسكرية في القصر الجمهوري حتى تقاعد في أيام حسني الزعيم .

وبعـد التقـاعـد ، ولأنه همام ولا يستطيع القعود ، تولى متطوعاً ادارة مدرســة لتعليم العـرَبيـة وأصـول الـدين لأبنـاء البـلاد المسلمـة البعيدة ، وما تزال هذه المدرسة حتى اليوم تنشط وقد استطاع ان يحصل

لها على مركز علمي بمعادلة شهادتها بشهادة ازهرية .

وقد ولد له ستة أولاد منهم صبيان هما العميدالمهندس خالدقصاب حسن والعميد سامي قصاب حسن . وقد توفي والدي قبله واخفينا عنه النبأ قدر ما نستطيع ، ولكنه أدرك ذلك مع الزمن وتقبل الأمر بهدوء المؤمن الصابر .

وقد ترك عمي أثراً كبيراً في حياتي ، إذ كنت المولود الأول في العائلة ، لأن أبي تزوج قبل عمي وكنا نعيش في دار واحدة لسنوات طويلة تناهز العشر ، وقد شجعني كل حياتي ورعاني كأني ولده البكر وأنا مدين له بالكثير ، وسيراه القارىء مطلاً بوجهه الأنيس في كثير من صور الذاكرة . وكان هو الذي أهداني أول ساعة حملتها ثواباً على أبيات قلتها في عيد ميلاد ابنه خالد ، وهو الذي اهداني أول كتاب أدبي اقتنيته وهو كتاب (عمر بن الخطاب) لمعروف الأرناؤوط ، وهو الذي اشترى لي أفخر الثياب وأنا صغير ، كما كان من وراء كثير من الأمور ومنها تعلقي بالهواية الموسيقية كما سيأتي .

رحمه الله وأجزل ثوابه .

سعد الدين اجيرا

أعود إلى الاسرة فأقول ان الحرب العالمية الأولى المسماة بالـ (سفر برلك) فاجأت الأسرة بعد أن توفي جدي بقليل . وكان أبي قد اضطر وهو بعد فتى صغير إلى العمل نجاراً ، في صنعة أبيه ، ولكن عند رجل كأن ابن عم جدته من آل شرف ، أذكره أنا فقد عاش حتى

نهاية الثلاثينات ، وكان بارعاً في مهنته ولكنه قاس في المعاملة ، وحدثني ابي كثيراً عن شدته عليه شدة صبر عليها حتى استكمل الصنعة فغادره إلى معلمين آخرين .

التنظيم الحرفي القديم

ذلك ان التنظيم الحرفي في أيامهم كان يتألف من سلسلة لا تختلف هي المعلم والصانع والأجير ، ويترقى الأخير بتعلم الصنعة حتى يصبح صانعاً ، والصانع لا يستقل بعمله الا متى اذن له (شيخ الكار) بذلك بعد فحص يرى فيه براعته وقدرته على الاستقلال وعندها يلبسه العمامة الاغباني دليل اكتمال مقدرته أي أنه يحمل شهادته مرئية على رأسه تقدم له في احتفال .

وقد تدرج سعد الدين الصغير ، أبي ، لدى ابن عمه اذ بدأ أجيراً ، وذكاؤ ه جعله يفهم بسرعة أصول المهنة ويحذقها ، ولكن ابن عمه تأخر في ترقيته إلى صانع فغادره إلى معلم آخر . وكان أبي عميق التأثر من هذه الحادثة إذ أنه كان يرى أنه ظلم بتأخيره ولاسيما أنه كان هو الذي عليه من أجره ومردود البستان البسيط أن يطعم العائلة في غياب أخيه الكبير ابراهيم في استانبول للدراسة العسكرية .

الحرب العالمية الأولى

ولما نشبت الحرب جند سعد الدين وأخذ فوراً إلى ورشات الجيش ليعمل نجاراً وسرعان ما لفت بذكائه وبراعته انظار رؤ سائه ،

وبعد فترة قليلة صار هو (الاسطة باشي) أي رئيس المعلمين في ورشة النجارة وتنقل في هذا العمل بين دمشق وزحلة . يعمل نهاراً في الورشة وينـام ليـلاً في داره ـ إذا كان في دمشق ـ ويعني بالبستان الصغير الذي تقـع ضمنـه دار العـائلة وسـاعد هذا على تأمين مؤونة البيت من الخبز والخضار وتفادى الجوع .

وكـانت هذه الحـرب قاسيـة على الجميع اذ بلغت المجاعة مبلغاً عظيـماً جعـل النـاس يقتـاتـون بالاعشاب ويوجدون موتى مهزولين في الطـرقـات ، وبلغ ثمن رطـل الخبـز ـ عدا خبز الحكومة السيء القليل المسمى خبـز الـوثيقـة ـ ليرة عثـمانية ذهباً ولا يوجد لا الخبز ولا الليرة . وذات يوم سمـع المجنـد سعـد الـدين ، اسطـه باشي ورشة النجارة في الجيش ، أن جمال باشا سيزور المصالح متفقداً ، فأمر المعسكر العاملين عنده بأن يضع كل منهم جرزة حشيش على منضدة العمل . وجاء جمال باشا وتفد الورشات ورأى جرز الحشيش الذي يطعم للخرفان والدواب أمام كل عامل ، ولكنه لم يسأل عن سر وجودها ، لأن الأمر لم يكن سراً ولا هو موضع اهتمامه ! .

وفي هذه الـورشـات تعرف سعد الدين إلى شاب يدعى صلاح الطـرابيشي ، نجـار هو الآخر ولكن يعمل في صنع الخزائن والاثاث ، واحب أحـدهما الآخـر ، وكـما يحدث عرض صلاح على زميله ورئيسه سعـدَ الـدين أن يزوجـه شقيقتـه ديبـة ، ولكن هذا لم يتم إلا بعد انتهاء الحرب العالمية واعلان الهدنة .

ديبة الطرابيشي

زفت ديبة (١) - الطرابيشي - إلى سعد الدين في حفل بسيط جداً ، وكانت صبيةرضية الخلق صبوراً على العمل أميل إلى الامتلاء فالبدانة ، وقد سبق أن تعلمت قليلاً في مدرسة من مدارس الارساليات وكانت تضاحكنا حين تقرأ الأرقام من الواحد إلى العشرة بالانكليزية ، وحتى تكون صورتها قريبة إلى ذهن القارىء أقول إنها جميلة العينين ، وتشبه إلى حد كبير المطربة سميرة توفيق ولكن على سمنة أكثر . ولذلك أكاشفكم بأن المرحوم والدي كان لا ينظر إلى التلفزيون إلا إذا ظهرت سميرة توفيق ،فنناديه جميعنا فيقعد ويتطلع إلى التلفزيون مسروراً ومتذكراً صبا زوجته ، ونضحك نحن ويشاركنا المضاحكة لأنه كان دائماً خفيف الظل .

وكان سعد الدين يحبها لاسيما بعد ان ولدت له على التوالي أولاد اولهم محمد نجاة والثاني برهان الدين والثالث اكرم ، وتتالى الأولاد حتى بلغوا عشرة عاش منهم سبعة وتوفيت ثلاث بنات . وهذه النسبة من وفيات الاولاد أي ثلاثين بالمئة كانت هي النسبة الطبيعية في العائلات التي تحسن الالتفات الى صحة ابنائها بسبب الكثير من الأمراض المستوطنة في سورية ونقص الرقابة الصحية وعدم وجود مبيدات الحشرات والأدوية المضادة للحيوية الموجودة الآن بكثرة .

---

(١) - كانوا يسمون ديبة حين لا يعيش لهم أولاد ، وهذا من خرافات ذلك الزمان .

وممـا نذكـره نحن اولادهما أنـه ما خاطبهـا أبـداً بقسـوة أو بكلمة نابية ، كما انه لم يقل في حياته كلمة نابية لاحد .

كانت الجملة الوحيدة التي يقولها إذا استنكر غباء من أحد هي : (يضـرب الحـمار والـلي بيـاكله) ومن باب أولى اذن أن أقول أنه لم يمد عليهـا يده طول حيـاتهـما بأذى أو ضرب . بل أكثر من ذلك . كان هذا الرجل المعتبر رجلاً قديماً - وهو كذلك بكثير من المعاني - ومن أصحاب الحـرف الخشنـة ومن المتشـددين في أمـور الدين ، لا يخاطب زوجته إلا بكـلام رقيق ودعـابـة ، فيسميهـا (الملكة) وكان هذا هو الأسم الذي يطلقه عليها إذا جاء يسأل عنها فيقول من الباب : (أين الملكة) وكان يدللهـا بل يصـبر عليها بما لا يصبر علينا نحن أولاده . فقد كان يوقظنا للصـلاة مبكـرين وقـد يرشنا قليلاً بالماء لنصحو ، ولكنه لا يوقظها لهذه الغاية ولا يتشدد في أمر صلاتها كما يتشدد في أمر صلاتنا ! . . .

الكنة وابنة الأحما

لم تكن أمي على وفـاق مع عمتي التي تعيش معنـا في الـدار نفسهـا ، وكـانتـا تختصـمان احيـانـا في النهـار ، ولكن أبي يصلح الحـال بينهما في العشية . وقد حردت أمي ذات مرة وأنا على يدها طفل رضيع وذهبت إلى بيت عمها في القيمرية فلحق بها أبي ومعه ابن اخته راغب . طرق البـاب ففتحت له فقـال : أرني الصبي ، فاعطته إياي لأنها كانت محبة ولأنـه كان صاحب هيبـة ، فأخذني وسلمني إلى ابن اخته الذي انطلق بي إلى حينا بينما أبي واقف يسد الباب فلا يلحق أحد بالولد المخطوف

والـولـد الخـاطف . وفي المساء كانت أمي قد لحقت بصغيرها الذي هو أنا ، ولم تحرد بعد ذلك ثانية أبداً .

وكنا كلما ذكرنا الحادثة أمامها تقول ان حليبها (طف) أي فاض فلم تستطـع صبراً عن الارضـاع ، فنـرد عليهـا بأن قلبهـا هو الـذي (طف) لتعود إلى بيتها .

وقد عاشت أمي مع أبي فترة ما في بيت مشترك بينه وبين عمي وكـانت عمتي المطلقـة من زوجهـا وهي الكبيرة والمدبرة ترأس البيت . ولكن بعـد مدة حدث ما كان لابـد أن يحدث فاستقلت أسـرة أبي ، وصـارت أمي هي الـرئيسة حتى عادت عمتي فساكنتنا فترة صابرة على اختلاف المواقع . وكنا نحن نصلح بينهما إذا اختلفتا ـ وذلك دائماً على أمـور بسيطـة ، إلا أن أخي كان يحرش بينهما ليضحك ، واحياناً تنتقل الحكـايـة من مزاح إلى جد وتحمى الحديدة بينهما . ولكن ذلك كله كان يدور في نطـاق التهـذيب والاحـترام . حزن صامت ، والـواحـدة إذا تكلمت فعتاباً ، ولا كلمة نابية على الاطلاق .

ظروف عمل منزلي صعبة

وكانت أمي تخدم العائلة كلها في ظروف كان فيها العمل المنزلي صعبـاً . فلا توجـد كهـذه الأيـام غسالات ولا جلايات ولامواد منظفة للأواني . الجـلي يكـون بالاشنـان وهو نبات أصفر قلوي منظف وبرماد الحطب المحترق أي (الصفوة) ، وحين تغلى (سمطة الجلي) المؤلفة من الـرمـاد والصابون تهترىء الأيدي وهي تنظفها . ولذلك فان تكون

امرأة مسؤولة عن عشرة أشخاص أكلاً وتنظيفاً وغسيل ملابس وخياطة للملابس وترقيعاً لما يهترىء ، فهذا يعني أنها تكون غاية في الارهاق : فكانت إذا استبد بها التعب وضاجت من لعبنا وشيطنتنا دعت على نفسها بالحمى لتخلص منا وتستريح ، ولكنها أبداً ما شتمت ولداً ولا ضربته ولا دعت عليه كبعض النساء القديمات . اطلاقاً لم يحدث هذا ولا نعرف يد أمنا إلا يداً رحيمة تقبل ، ولا نعرف كلامها إلا محبة ولطفاً وكلاماً مهذباً .

موقف تربوي موحد

ومن الأمور التي تلفت النظر في تربية هذين الابوين تفاهمهما في تربية الأولاد . فالأب له الهيبة والأم تهدد به ، ولكنه هو لا يضرب ولا يشتم ، يكفي أن يعبس ويعتزل حتى تصمت الدار كلها ويعتريها الوجوم . أما الأم فكانت تهدىء الأمور بالتدريج .

وكذلك فيلفت نظرنا الآن أن حياة الدار كانت تدور كلها في نطاق التهذيب الشديد ، فليست هناك كلمات نابية ولا تلميحات (جنسية) مما يسمع في كثير من العائلات . وكانت لنا قريبة لسانها طويل بكلام طالع نازل إذا جاءت وحكت مثل هذه العبارات عندنا ، استغربنا وفررنا كي لا نسمع او وضع بعضنا يده على فمه ليكتم صيحة استغراب .

اشاعة زواج

وحدث مرة ـ وكنت فتى في نحو الثالثة عشرة ـ أن ذهب أبي الى الزبداني يشرف على بناء جامع هناك وكانت هذه هوايته . وسمعنا من أحد الناس أن أصحابه في الزبداني عرضوا ان يزوجوه امرأة من عندهم ، فطار صوابي أنا وكتبت له رسالة قلت له فيها انني سمعت بهذا الخبر وانه إذا صح فلن يرى لي وجها . وسرعان ما جاء والدي بابتسامته الحنون يعانقني ويقول ان الكلام كله كان مزاحاً ودعابة وانه لايستبدل بعائلته وبنا شيئاً ولم تفتح هذه السيرة مرة أخرى على الاطلاق .

هذا مع العلم ان الزواج من ثانية في تلك الأيام كان أهون من شربة ماء ، وترضى النساء بقدرهن فيه وبالمساكنة ، وقد روت لي زوجتي ما رأته في صغرها في حيهم من حوادث الزواج بأكثر من امرأة ومما قالته انه في حال عقم الأولى واصرار الزوج على ان يكون له أولاد كانت تضطر هذه الزوجة ان تذهب فتخطب له وتحضر عرسه وتزف عروسه اليه بنفسها حتى تدخلها مخدع الزوجية ثم تبكي بحرقة ، وهو يقدم لها في هذه المناسبة هدية اسمها يدل عليها وهو (اللوعة) ! . .

وكذلك أنه حين يأتي أولاد من الجديدة تأخذهم القديمة عند الولادة فتنزلهم من طوقها ، أي تمرر الولد من فتحة ثيابها من فوق وتنزله من الأسفل كأنما ولدته وتعتبره كولدها ، وهناك تقاليد ترقص فيها القديمة وتغني : أنا العتيقة محبة ورفيقة . بينما الجديدة تقول : أنا الجديدة على قلبه لديده .

الزواج من أكثر من واحدة

وكان الزواج من أكثر من واحدة له أسباب . فالغني يفعلها لكي يجدد ، لكي (يغير على ضرسه) كما نقول في دمشق ، فيأخذ صبية حلوة بعد أن تكون الأولى كبرت بعض الشيء ، وكان الزواج فيه شيء من الشراء حتى من الناحية القانونية . فالمرأة إذا لم تتسلم مهرها حق لها أن تحبس نفسها عن الزوج وتمتنع عن متابعته ، ونفقتها عليه تستحق لقاء استمتاعه فاذا تركت وامتنعت فلا نفقة لها . لنترك زواج الغني فأمره مفهوم ولنبحث في زواج المتوسط والفقير . كان له سببان الأول العقم كما قلت ولكن الرجل كان يبحث عن (الحل) مفترضاً مسؤولية المرأة دون أن ينظر فيما إذا كان عدم الانجاب منه وبسبب يتعلق بصحته . والسبب الثاني وهو الأهم هو أن المرأة يد عاملة مجانية . أعرف سماناً عنده زوجتان ، والاثنتان تقومان في البيت بعمل الحليب واللبن والجبن والزيتون والقريشه ، أي تهيئان ما يلزم للدكان ، وفي القرى يكون الأمر اوضح اذ تعمل المرأة كل اعمال الحقول فيما يسند الرجال ظهورهم إلى الحيطان أكثر ايام السنة ، فالزوجة الثانية لم تكن مكلفة بقدر ما هي مربحة ، كما ان الاقتصاد العائلي كان يسمح بتقليل النفقة إذ يعيش الكل في بيت واحد وعلى سفرة واحدة .

ولتجسيد هذا الواقع وتلطيفه اتت امثال شامية تهون الأمر منها : مرة (أي امرأة) ما بتاكل مره ، كله كذب وزعبره . ولكن الحقيقة ان الأمر كان قاسياً على النساء . احداهن من معارف أهلي قالت مرة تكشف عن مشاعرها الخبيثة ان موت شاب لها كان أهون من ليلة زواج

زوجها من ثانية . استعملت حتى تعبير : تلقيحة الأولاد ـ أي رؤيتهم وواحدهم مسجى في فراش موته ـ أهون من العروس .

وثانية ، بعد الصبر الذي تفرضه المواضعات الاجتماعية ، لم تملك نفسها من ان تقتحم الباب على العروسين زوجها والجديدة.

ومما يضحك ويبكي في هذا الشأن ، الزواج من أجل الصبي . كان الجهل يجعل بعض الرجال يعتقدون ان هناك نساء يأتين بالبنات واخريات يأتين بالصبيان، وكانت هذه من حجج الرجال للزواج من ثانية.

وقد جربت أن أغير الصورة عندما كبرت، في برنامجي الاذاعي ، وفي اللجان التي شاركت فيها لتعديل قانون الاحوال الشخصية ، ثم (اقتنعت) انا ان المسألة لا تتعلق بالقناعة ولا بالاقتناع وانما هي مسألة اقتصادية في الغالب . والذين كانوا يحتجون في وجهي بان الشرع سمح ، كنت اجيبهم بأن الشرع ولو سمح فالحياة الاقتصادية إذا منعت فلا زواج جديداً ، وتكون الضرورة أقوى من الاباحة . وقد تضاءل الزواج من أكثر من واحدة عندما اصبح واحد الرجال لا يستطيع ان يقوم حتى بأمر امرأة واحدة من ناحية النفقة ، حتى ولو شاركته العمل والانفاق .

على ان هذا استطراد نقلتني فيه المناسبة من الماضي إلى الحاضر ومن الواقع الانساني الى التأملات الفكرية ، فأعود إلى ما كنت فيه وأقول اننا في عائلتنا الصغيرة لم نعرف الزواج من ثانية ولا الطلاق ولا امتدت يد رجل على امرأة بما تكره .

ثم لماذا أقول هذا ، لأرد على بعض كتاب القصص

والمسرحيات والمسلسلات الاذاعية والتلفزيونية الذين يصورون العائلة السورية على أنها عائلة متفككة يسودها تعسف الرجل و(عترسته) كما نقول في دمشق تحريفاً لكلمة غطرسة . وقد كتبت مرة مقالاً في جريدة الثورة - بعنوان (أشياء في نفسي) تحدثت فيه عن أسرتنا واستغربت: من أين يأتي الكتاب بهذه الصور المريضة ، علما بأن اسرتنا لم تكن الأفضل وكانت أسرة عادية كألوف غيرها ؟ وقلت ان حكمت محسن رحمه الله حين صور الرجل في صورة (أبورشدي) والمرأة في صورة (أم كامل) وابن الشعب في صورة (ابوصياح) لم يصور الحقيقة الغالبة وانما النماذج الشاذة ، وان هذه الصور منقولة عن (كركوز) وسيأتي حديث ذلك في القسم الفني من هذه المذكرات . انها أجدها مناسبة لأقول ان صورة الشعب العادي أفضل مئة مرة مما تصوره أقلام كتابنا بطريقة مشوهة .

من دهنها سقيناها

أعود إلى أمي فأقول إنها قبلت في كل حياتها ان تكون ثانية في الظاهر أمام والدي صاحب الهيبة والرجولة ، ولكنها في الحقيقة كانت تؤثر عليه بنعومة ودون مناقشة ومشاحنة وتنقلب الأمور غالباً في جانبها وما تقترحه . وكنا نسميها (الخزنة) اذ تكون عندها الدراهم التي نحتاج اليها ، وما خبأ أبي شيئاً عنها . ومرة كشفت أنا (جزدانها) المخبأ في طيات الملابس حين كنت (انكش) كعادتي ، فأعطيته لأبي ، فناداها قائلاً : أم نجاة ، تعالى خذي ، واعطاها كمشة

دراهم . فرحت وقـالت له كعادتها (تجي لك العافية) وذهبت لتخزنها مع رفيقاتها ، فلم تجد الجزدان ، وسرعان ما اكتشفت اللعبة حين رأتنا نكـر من الضحـك ، أبي وأنـا ، وأدركت اننـا لعبنـا معهـا ومن دهنهـا سقيناها كما يقال في دمشق .

أن أمي كانت موضـع عطفنـا ومحبتنا ولكن أبي كانت له في ذهننا صورة أعلى . ونحن الآن حين نذكـر حنـانهـا وعطفهـا وبرها بنا وعدم مداخلتهـا في شؤ ون أولادهـا وعـائـلاتهم وعـدم فرضهـا الـرأي على الكنائن والأصهـار ، نرى انها كانت سيدة تعرف كيف تحترم الآخرين ومـا اعتقـد اننـا وفينـاها حقها اوكان يمكن ذلك مهما فعلنا ، على أننا جميعـاً كنـا في غايـة الأدب معها . وقد صحبت والدي ورعتنا لمدة سبع وخمسين سنة من زواجها ، حتى توفيت ذات صباح دون أن تزعج أحداً أو تمرض مرضـاً مقعـداً ، ولحظـة وفـاتهـا ناجاها والدي بأرق الكلمات واعذبها حزناً ولوعة ، رحمها الله .

أختي من أمي

قد يأتي العنوان مفاجئاً لمن قرأوا هذا الفصل ، ولكن مفاجأتهم أقـل حتـماً من المفـاجأة التي حصلت لي أنـا . فقـد عشت حتى بلغت الحـاديـة والثلاثين وأنا أجهل أن أمي كانت متزوجة قبل والدي وطلقت وأن لها بنتـاً اسمهـا ليلى ولهـذه الأخت أولاد سبعـة كلهم نابه وقوي ،

وكلهم يعـرف أنني خالـه ولكن لا أحد يراني . فقد كنت مرة أمام عمتي وأنا ابن ثلاثين ونيف أقول لها مداعباً وهي تشكو من ألم في ظهرها : أنا اشفيه لك بأن أدوس عليه لأنني بكر البكرين . قالت لي عمتي : لا ، أنت لست بكر البكرين . استغربت وقلت لها كيف ؟ قالت الا تعرف ان لك اختــاً اسمهــا ليلى ؟ ناديت أمي وأنــا أفتـح عيني إلى أقصى درجـات الاتسـاع من الـدهشـة : أمي ، أنـا لي اخت اسمهـا ليلى ؟ أجـابت الـوالـدة بصـوت منخفض كأنهـا مستحيـة مني : نعم . قلت وكيف سكت عنهـا حتى الآن ؟ قالت ان والـدك حين تزوجنـا اشـترط على ألا أذكــر هذه البنت أبـداً في بيتـه ، ولكنـه لم يمنعني أبـداً من أن أذهب فأزورها متى شئت في دار أهلها . استغربت واتصلت عن طريق الـوالـدة بسـرعـة بهذه الأخت التي رأيتهـا تشبـه الوالدة ، لطيفة ناعمة مهـذبـة ، أولادهـا أحبـاء فرحوا بي ، والآن نحن على علاقة مستمرة ومؤنسـة كمن اكتشف كنـزاً . ولكن هذه الحكـاية إنما تدل على طاعة الـوالـدة للوالـد في هذا الأمـر إلى درجـة كتـمان عجيب بل غير معقول استمر أكثر من ثلاثين سنة كاملة .

أليست الـدنيـا ملأى بحـوادث أغـرب من الخيـال ؟ والمؤلفون الـذين يخترعـون من عنـدهم لا يصلون إلى مثـل حبكـات الزمن التي تحدث ، ولكن عيب أكثر مؤلفينا الروائيين إنهم غير متصلين بالحياة ، ولعل أكثرهم اتصالاً بها المرحوم حكمت محسن (كما سيأتي حديثه في حينه وفي الكتاب الثالث حين اتحدث عن الفنانين) .

أسرة والدتي

وما دام الحديث ولو تركز حول الأسرة الصغيرة انما يجول في حقيقته حول صورة الأسرة الشعبية الدمشقية وتقاليدها ، أقول أن أسرة والدتي تستحق ان توصف ولو باقتضاب فأخوها صلاح توفي وهو شاب تاركاً ثلاثة أطفال هم وحيد وماجد ونعمت . وقد رأيت وحيد بعيني وهو يقتل تحت عجلة سيارات شركة (نيرن) الكبيرة التي تسافر إلى العراق . كنا نلعب معاً في شارع بغداد(٢٩ أيار اليوم) في منتصفه في مكان الدخلة التي فيها مسرح القباني اليوم ، ونتبارى في قطع الطريق مسرعين أمام السيارات العابرة . مر بعضنا ، وحاول وحيد أن يلحق بنا فلم تسعفه سرعته، ورأيت ثوبه يلتف على الدولاب، ففررت مسرعاً إلى مكان في بستاننا كأنني اشعر بمسؤوليتي عن هذه الحادثة . وأذكر انني كنت احاول ان اتظاهر بالضحك كمن لا يعلم شيئاً فتحتبس الضحكة في حلقي .

وكانت هذه التجربة من وراء العقدة التي صحبتني طويلاً من مخافة الموت مما اتحدث عنه في مكان آخر من هذه المذكرات تحت عنوان (رابسودية الموت) .

ماجد طرابيشي

أما اخواه ماجد ونعمت فقد عاشا معنا ، كأخوين تماماً ، حتى تزوجت نعمت وانجبت رعيلاً من الأولاد ما شاء الله ، كلهم لطيف

وخلوق وجيـد ، وحتى تخرج ماجـد تبـاعاً من الصنائع فعمل معلماً ثم درس الحقـوق وصـار محاميـاً وتمرن في مكتبي وحل محلي حين ذهبت إلى وزارة الثقـافـة ، ثم صار قاضيـاً مرمـوقاً مجداً صبوراً وهويتحلى بالخلق الفاضل والصبر والروح المرحة ، وما نزال حتى اليوم أخوين بكل معنى الكلمة ، وله علي حقوق كثيرة بقدر ما اسدى إلي من معروف في أيام الشباب .

زكي الطرابيشي (أبو عبده)

وكـان من أسـرة والـدتي اقـربـاء من آل الخطيب ومن آل الشماع وكلهم لطيف وصديق ويزور بعضنا بعضنا الآخر في المناسبات ، ولو أن مشاغل الدنيا تحرمني من أن أكون ودوداً كما أريد .

على أن بين أفـراد هذه الأسـرة من لا استطيـع نسيانهم . اولهم (أم كامل) التي من العجيب أن لها الصوت واللهجة نفسهما اللتين وجدهما أنور البابا لشخصية أم كامل الاذاعية المسرحية.

وبعـدهـا زكي الطـرابيشي أبـوعبـده ، عم الـوالدة . كان هذا الـرجـل لحامـاً ومحله في جانب فرن القـاري الذي هوعلى المصلبة بين زقـاق الصـواف والطـريق المـوصلة إلى القيمـرية والطريق الموصلة إلى حارة الخـمارات والطـريقـين المـوصلتـين إلى ماذنة الشحم والى مكتب عنـبر . ولأنـه كان في هذه الـدكـان جانب مكتب عنـبر الـذي دخلتـه للدراسـة منـذ العـام ١٩٣١ ، فقـد توطدت صلتي به وصارت يومية ،

وكثيراً ما كنت أقصده ظهراً فيصنع لي الصفيحة التي ما ذقت مثلها بعد ذلك ، ويضعها في الفرن المجاور وآكلها متلذذاً .

كان أبـو عبـده إلى ذلـك يتمتـع بمـوهبـة عجيبـة هي موهبـة القصاص الشعبي المسمى بالحكواتي لا أظنه احترفها لأن حرفته كانت معروفة وهو لحام أو (قصاب) كما يقولون في أكثر مدن الشمال ، ولكنه من المؤكد قد عشقها واتقنها بالسماع .

اذكـره حين كان يأتي يسهـر عنـدنـا ونحن صغـار فيقص علينـا قصص الملك الظـاهـر والملك سيف أو ألف ليلة ، ولـه صوت عريض قوي وحلو النبرات ، وقد يقوم في لحظة من اللحظات و (يشوبر) بيديه ليجسـد الحـركات ، ويصرخ بصوت راعد مع القصة حين يوجه البطل ضربة إلى خصمه (دوس ان الله حق يا كريم) ، فنرتعد ونتصور اننا في قلب المعركة . وكانت عيوننا واسماعنا وقلوبنا تنشد إلى صوته وتعبيره العميق ونتمنى الا يتركنا .

الذين يكرهون الملوخية

على أن جانبـاً آخـر من حيـاتـه كان يطرفنا ويمتعنا وهو انه يكره أكلة الملوخيـة والظـاهـر إنهـا الأكلة الـوحيدة التي لها في دمشق كارهون مصنفـون ويتضـايقـون حتى من اسمهـا وقـد يحدث لديهم الغضب وبعضهم يضـرب . والنـاس حين يعـرفـون ان فلانـاً يكـره الملوخيـة يتعمـدون ان يضـايقـوه بذكـر اسمها او حتى بأن يلصقوا اسمها باسمه

فيقـولـوا مثـلاً أبـو عبـده ملوخيـة ، فاذا سمعـه لحق بهم وربـما شتم أو ضرب . وبعضهـم يجعلها دعابة فاذا داعبه الناس بان علقوا له عرقاً منها على ثيـابـه تظـاهـر بالغضب . واحـد هؤلاء وكان اسمه (أبو عادل) ويبيع هريسة اللوز في مدخل شارع بغداد المجاور لمدخل سوق ساروجة كان يتظـاهـر بكـرهـهـا ، فيـداعـبـه وجـهـاء الحـي بأن يدعـوه إلى وليمـة ويقـدمـوا كبـة مقليـة حشـوهـا ملوخيـة ، أو يطبخـونهـا ويقـدمـونها على أنهـا بوراني البقلة (والبـوراني اسم معروف في دمشق ولا أدري ان كان معروفاً في سواها) فيأكلها متظاهراً بأن الحيلة انطلت عليه فاذا قالوا له أكلت ملوخية يقول لهم بل بوراني .

والعم أبـو عبـده كان من هذه الشاكلة التي تتظاهر بالكراهية من أجـل الـدعابة وكنا نحن الصغار نداعبه حين نأتي فنسأله : عمو ، شو اسمها (المهجورة) ؟ فيقول (مهجورة) وبس ! . .

دقة بدقة ، والبادىء أظلم !

ومن القصص الأليمـة والطـريفـة في صدده ، والتي لها مغـزى عميق بوجـه عام ان امـرأة عم الوالدة أم عبد الغني ، زوجة العم الذي تحدثت عنـه ، غضبت على زوجة ابنها عبد الغني فسعت حتى زوجت ابنها من امرأة اخرى لتكيد لكنتها هذه . فأسرت الكنة غضبها وسعت هي الأخـرى بطـرق ناعمـة حتى دبرت لعمها زوجة جديدة وأدخلت ضرة على حماتها ، وهكذا عن طريق الانتقام صار للكنة ضرة في الدار

وللحياة ضرة ، وعاش الجميع كذلك حتى آخر العمر . وأذكر ضرة أم عبده وكانت امرأة خفيفة ظل عاشت مع العم حتى توفي ثم توفيت بعده ، وأذكر ان لها كلمة تخاطبني بها للتدليل هي (قباري) ! . .

وقد توفي بعد العم ابنه المرحوم عبد الغني وبعده ولده سعيد ، الذي تزوج من ابنة خالي نعمت ، والزمان يأكل الناس أكلاً ، رحمهم الله جميعاً .

اديب بدر

كما ان صلتي من ناحية والدتي تجمعني بخالها وهو لبناني من بيروت وكان اسمه اديب بدر ، ولكن للطرافة أقول ان اسمه في الوسط الفني (أبو عيشه) . لا انتقص بذلك من قيمة هذا الرجل ولكن الدعابة هي الدعابة ، ثم لو رحت أتحدث أمام الفنانين القدامى عنه باسمه لما عرفوه ، أما لو قلت (أبو عيشة) فان كل واحد يعرفه .

وكان عازف عود عرفته وهو مسن وأعشى البصر ، وكان يعلم في البيوت ، كما كان سابقاً من الموسيقيين المحترفين . وقد نشأ ابنه عبد الكريم عواداً شديد البراعة جداً بل أبرع من عرفت من عازفي الطريقة القديمة ، وهو لطيف المعشر وكان يقيم في العراق ثم سافر إلى أمريكا ونلتقي بأسرته كلما سمح الوقت وعلى الكثير من المودة .

---

(١) يستحسن شرح معنى كلمة «قباري» ليفهمها القراء غير الدمشقيين.

حياة الفنانين في الفنادق

ومن ذكرياتي الطريفة عنه وعن والده انني زرتهما يوم كانا في أحد الفنادق في دمشق (وهو فندق عدن بلاس) المواجه لسراي الحكومة ، ورأيت كيف يعيش الفنانون في الفنادق حياة ليست باهرة ولا فاخرة ، واذكر أنهم طبخوا ذات يوم أكلة غريبة هي أضراس توم مقلية بالزيت واسموها تومية ، ومن يأكلها لا بد أن يعرف الناس بقدومه من رائحته التي تفوح على بعد خمسين متراً. وأنا لم آكل لأنني اكره رائحة الثوم واتجنبه ما استطعت هو والبصل ، ولو كانا طيبين في المذاق ، ولعل ذلك من ميلي الاجتماعي لأن أكون عشيراً لطيفاً للناس ومن يريد أن يكون كذلك يعنى برائحته ولاسيما رائحة الفم . وللدعابة كنت أتمثل دائماً بالمثل القائل : نظف بيتك لا تعرف من يدوسه ، ونظف فمك لا تعرف من يبوسه ! . . .



الفصل الثاني عشر

طفولة . . كلها طفولة

أبعد ذكرياتي وأنا طفل تعود بي بصورة ضبابية إلى بيتنا في بستان الكركه . اذكر أنه كان خلف الدار نهر وأنني رميت فيه فردة من حذائي الجديد المشترى بالغالي ، فركض وراءها الحاج محمد المغربي ليرجعها ،وخاض في الماء وأنا أضحك ، بينما هويبر بر بلهجته المغربية ويقول : ليش هيك ياخنوني . . . وأذكر أيضاً بصورة ضبابية ، أو لعل أهلي هم الذين حدثوني بعد ذلك بما جرى ، أن عمي لم يسمح لأحد بأن يعاقبني على فعلتي هذه واكتفى بأن قال بطريقته المحببة : تزس أمبرسي (١) ، سيعيِّد بالصندل ! وفعلاً اشتروا لي صندلاً بسيطاً ، وهم يحسبون أنه عقاب ! . . .

وأذكر أيضاً ـ أولعلهم هم حدثوني ـ أنني أعطيت ذات مرة معطفي الجديد إلى شحاذة معها طفل من عمري يلبس أسمالاً ،وأنهم ركضوا فاسترجعوه وأرضوها ببعض المال . وكنت أفرح بهذه القصة وظلت من وراء رغبتي في أن أقاسم على مالي بل أؤثر على نفسي ولقمتي حين كبرت ، وسجلتها في مقال عنوانه : من جيبي لا جيوب الآخرين ! . .

---

(١) ـ شتيمة لطيفة بالتركية .

والـذكـرى الثـالثـة أنهم وضعـوني في مدرسـة حضانة تابعة لدار المعلمات ولم يضعوني في كتّاب . . .

وأذكـر ليلة اشتـد فيهـا اطـلاق الـرصـاص في حينـا أيام الثورة السـوريـة حتى التصقنـا بالأرض خشيـة من أن يدخـل الـرصاص من النـافـذة ووضعـوني وأخي الصغير تحت سرير عمي ، وفي اليوم التالي سافـر أبي بنـا إلى ديـر الـزور حيث كان عمي قد نقـل إليهـا ضابطـاً للدرك ، وسأعود إلى حديث تلك الليلة مع الحديث عن تاريخ الفرنسيين .

ثم أذكـر في ديـر الـزور بيتنـا في (الحـويقـة) إلى جانب النهـر ، المستأجـر من (عثمان بك) وان فيه حديقة كبيرة ، وأنني كنت أخاف العقارب ، وأنهم وضعوني من أجل خاطر عمي في الصف الأول قبل السن التي يقبل فيها الأطفال في المدرسة ، وان المعلم كان شيخاً قاسياً بعـمامـة بيضـاء . . ثم أذكـر بوضـوح أكـبر نوعاً ما أننا نقلنا بعد ذلك بقليل إلى معرة النعمان وفيها وضعوني في الصف الثاني ـ هكذا قبل أن أنهـي الصف الأول ولكن لأن عمي قائـد الـدرك ! ـ وأنني ذات يوم خرجـت من المـدرسـة فوقـفـت اتـفـرج على ما لسـت أدري الآن فتأخـرت ، ورأيت أبي آتيـا من بعيـد وفي خطـواتـه سرعـة وفي وجهه بعض العبـوس فخفت وانكمشت متضائلاً وأن أجمع رأسي بين كتفي كأنني سلحفاة تخبيء نفسها ، وقلت له : بابا ، بس كلمة . . مو أنت أبي ؟ قال نعم . قلت مو أنت جبتني (أي أما أنت جئت بي) ؟ قال وهـو يبتسم نعم . قلت له : كنت جيبني آدمي . . فضحـك وضمني وظل يذكرني بهذه القصة سنوات طوالاً . ثم أذكر أنه ولد لعمي طفل

بكـر اسمـه (زيـاد) وأنـه توفي وجـاء أولاد المـدارس يقـرأون الفاتحة والأنـاشيـد أمـام الـدار وأعطى عمي كلا منهم (أبـو المية) وهو عملة تركية كانت رائجة في ذلك الزمان وهي من الفضة . . وآخر الذكريات ان الـبرد جمد ماء الميـزاب فرأينـاه صبـاحـاً عموداً من الجليد ممتداً من السطح إلى الأرض . . .

الكتّاب

قلت أن أهــلي لم يضعــوني في (الكتّــاب) وإنـــما في مدرسـة للحضـانـة . وحـين كبرت ودخلت بعض الكتاتيب زائراً في مناسبات حمدت الله على أنني لم أعش في جوها البغيض مما سأصفه . ولكنني لم أدرك سر هذا (الانقاذ) إلا حين اعطاني عمي مذكراته التي كتبها وهو في التسعين ، وكان مما رواه فيها قصة دخوله (الكتّاب) وفراره منه بعد اقل من ساعة من دخوله .

فقـد كتب عمي في مذكـراتـه تلك يقول ، وأنقل ما كتبه اليكم بالحـرف : (ولمـا صرت في الرابعة من عمري أخذني والدي بيده ومشينا نحو الكتاب القريب من دارنا فأوصى والدي بي خيراً ، فأشار الشيخ إلى جهـة يجلس بها الصغـار فجلست . بعـد شيء من الـوقت هالني صوت عصـــا وقعت في القــرب مني فخفت أن تصيبني واحـدة مثلهـا فقمت واتجهت نحـو البيت ففـرحت بي والدتي ثم استدركت وسألتني هل انصـرفتم ؟ قلت لا ، بل جئت لوحـدي . قالت يزعـل أبـوك .

فقلت أنا لا أذهب إلى كتّاب فيه عصايات طويلة . وذهبت لفراشي ونمت خوفاً من والدي . ولما أفقت لم يقل لي شيئاً وبعد أيام أخذ بيدي إلى مدرسة يسمونها الشامية وهي مدرسة ابتدائية .

وترون من هذه العبارات كم كان الانطباع عميقاً من الدقائق الأولى .

ولكن عمي بعد أن يشير إلى هذه الحادثة التي طبعت طفولته يعود فيقول (أن هذه الكتاتيب والخجاوات للبنات وللصبيان كثيرة ولولاها لتفشت الأمية بدمشق لقلة المدارس) .

وبالفعل نجد أن (الكتّاب) لعب دوراً كبيراً في تاريخ أمتنا ، ومهما قيل عن تخلفه بالمقارنة مع أساليب التربية الحديثة ، وهو قول حق ، إلا أنه يبقى أحد معالم الثقافة العربية الاسلامية وهو أجدر الأشياء بالحديث عنه . ولا ننسى أنه قد تخرج منه كل السلف الذي ملأ الدنيا ثقافة وفهماً .

وما أقوله (في الكتّاب) ينطبق بالمقدار نفسه وأكثر على (مؤنث الكتّاب) ان صح التعبير أي عن (الخجا) التي تقعد عندها الصغيرات لتعلم القرآن ومبادىء القراءة .

و(الكتّاب) غرفة كبيرة في دار أو في طرف من مسجد ، فيها حصير أو بساط وفي صدرها مكان أعلى يقعد عليه الشيخ ، وقد توجد فيها (اسكملات) المصاحف المصنوعة من الخشب والتي تطوى .

يدير (الكتّاب) معلم وحيد هو شيخ الكتاب ، وغالباً ما يكون قاسياً إذ من يستطيع أن يضبط هؤلاء الاولاد العفاريت إلا واحد يملك القسوة وتحريك العصا والفلق ؟ أما أدوات الشيخ فهي

(الطبشـة) وهي مسطـرة غليظـة من خشب عريض بمقـدار أصـابع (١) ، والفلق وهـو عصـا غليظـة لها حبل مربوط من طرفيها تدخل فيه القدمان فتصبحان مهيئتين للضرب ، وخيزرانات وأخيراً عصا طويلة يستطيـع بها الشيـخ أن يصيب من بعيد أي واحد من الأطفال ولو كان في آخر الغرفة .

وكـان الـولـد متى بلغ في الدار السن التي يحتمل فيها التعلم ، وهي في ما بين الـرابعـة والخـامسـة تقريباً ، أخذه أبوه ـ والطفل يبكي ويحـرن ـ إلى الشيـخ ووضعـه عنـده وهـو يخاطبـه بالعبارة التقليدية : شيخي اللحم لك والعظم لنـا . . أي تستطيـع أن تضربه إلى مادون تكسير العظام .

ولم تكن هذه الجملة صورة بلاغيـة أو كلامـاً تقليـدياً وإنما كانت حقيقـة تؤكـدهـا الممارسـة إذ لا يمضي وقت طويـل حتى يبـدأ الشيخ بترويض هذا الطفل القادم ليخضعه لمشيئته ، وغالباً ما يبدأ من الأيام الأولى فيعمده بقتلة على (دين الكيف) كما يقولون في دمشق وعندها يصبح تلميذاً نجيباً بحق وحقيق .

وفي مذكرات (نعوم البخاش) الحلبي وهو معلم صبيان حديث يومي وكثير عن (الكتّاب) الذي كان يديره ، وكيف كان يرفع الأولاد فلقـاً ، وكيف كان يتقـاضى منهم أجـوره المسماة (خميسية) لأنه يجيبها

---

(١) ـ وظلت الطبشـة مستعملة في المـدارس الـرسميـة والخـاصـة ، وكان الاولاد يرددون أن دم الحـردون (أي الضب) إذا دهنت به الكف فالضـرب بالطبشـة عليها لا يؤلم . ولكن هل للحردون دم ؟! .

كل يوم خميس ، على عادة شيوخ الكتّاب ، والذي لا يدفعها في حينها يأكل قتلة قبل أن يرسل إلى البيت فلا يعود إلا ومعه الخميسية .

أيهما أفضل ؟ !

وللمداعبة أقول إنني أثناء ما كنت أجيب على أسئلة الناس في برنامج (المواطن والقانون) وردني أكثر من مرة هذا السؤال : أليس الضرب ممنوعاً في المدارس ؟ وكانت هذه الأسئلة ترد لمناسبة ان بعض المعلمين مارسوا الضرب على أولاد السائلين .

وكنت أجيب دائماً بأن الضرب ممنوع بالبلاغات الرسمية ، وهو دليل وصول المعلم إلى لحظة عجز عن معاملة تلميذ عنده بأية وسيلة من وسائل الاقناع أو العقلانية لأن هذا الولد مفسود أو عنده ميول عدوانية بسبب عقدة نفسية أو سوء التربية مما نراه حولنا وفي كل الروايات والمسلسلات التي تعالج أحوال الشذوذ النفسي والسلوكي لدى الأولاد الصعبين . وكنت أقول أن المعلم نفسه يصل أحياناً إلى حالة من الغيظ والانفعال أو الشعور بالعجز تجعله لا يضبط سلوكه فيلجأ إلى العنف كوسيلة أخيرة لردع هذا التلميذ الذي عجز عنه أهله فرموه مع عشرات غيره في وجه معلم تقول له البلاغات لا تضرب . وكنت أقول أيضاً انه إذا حصل وانفعل وضرب فالقانون لا يعاقبه لان قانون العقوبات حين بحث في فصل الايذاء اعفى من العقوبة ضروب التأديب التي ينزلها الآباء والمربون بالتلاميذ في حدود ما يبيحه العرف . فإذا رجعنا إلى عرف الكتاتيب فهي إلى مادون كسر العظام كما سبق القول .

وخطـر لي أكثـر من مرة ـ ولكنني لم أقـل ذلـك ـ أن أتساءل : إذا كان هدف التر بية تهيئة الانسان للمحيط ، أليس من الأفضل أن نعود إلى تربيـة الكتـاتيب ، ونجعـل الولد يفطر بكم كف ويتغدى بفلقة ، حتى إذا أكلها في كبره في مناسبة من مناسبات الحياة الكثيرة لم يجد ذلك شيئـاً بالـغ القساوة ؟ وأقولها الآن للمداعبة ، ولكن لا تخلو الدعابة من الجد. ذلك ان العنف معترف به على أنه وسيلة من وسائل التغيير عند من لا يفهمـون بغـير هذه الـوسيلة وعنـدئذ تكون القسوة رحمة. ولكن المسألة مسألة ميزان وعدالة.

وقـد تحدثت عن الضـرب في المـدرسة حين صرت معلماً وجربت المعاناة بنفسي ، وسيأتي حديث ذلك .

وفي الحضـارة انـه إذا وجـد طفل سوي في اسْرة سوية ووضعوه لدى معلم سوي وفي مدرسة ومحيط سويين ، فان الضرب لا يكون أمراً (سوياً) . ولكن ألا يكفي أن يختل أحد هذه الشروط أو أثر من واحد لكي تختلف النتيجة ؟

فكـــروا معي ، ولكن لنتـابـع الآن حديث الكتـاتيب، فالتعليم فيهـا يبدأ بطريقتين : الأولى تحفيظ القرآن على الغائب ، الثانية تعلم تهجي الحروف .

طمبلكا ، فيرينا

فأمـا تعليم القـرآن فيكـون بترديـد كلماتـه مع تنغيم رتيب يعرفه جيلنـــا لأنـــه هو الأسلوب الـــذي يعلم فيـه القـرآن حتى في المـدارس

الـرسميـة ، ولا يفهم الطفـل مما يتعلم حرفـاً أويكـاد ، لأن القـرآن في الأصـل لغـة عاليـة وصعبة وفيها من الصور البلاغية والمجازات ما يعلو على افهام الكبار فضلاً عن الصغار . ومع ذلك تبقى لهذه الطريقة في التعليم فائـدتهـا في البداية لأنها ترسخ حفظ الآيات وهو شيء لا بد منه من أجل الصلاة ، ومتى كبر الولد صار يمكن له أن يفهم معاني الآيات .

ومن القصص البـاسمـة التي تذكـر في هذا الصـدد أن أحـد الديبلوماسيين السوريين في افريقيا السوداء زار مدرسة من المدارس التي فتحهـا العـرب هناك لتعليم القرآن وعندما قارب الصف سمع عجباً . فقد كان ولد يقول والذين بعده يرددون العبارات الأتية :

ان اللا ان اللا ، هاموحي ها موحي ، طمبلكا طمبلكا ، فير ينا فير ينا .

الـدبلومـاسي سأل مستغرباً ما هذا ؟ قالوا له نعلم آية هي (ان الله محيط بالكافرين) فبتقسيمها وتنغيمها صارت كما سبقت الكتابة . . .

القرآن نغماً أم فهماً ؟!

ومـرةً ، ونحن في رمضـان ، خرجت من الدار مدعواً على طعام الافطار ، والعادة ان الضيف في رمضان يأتي في اللحظة الأخيرة حتى لا يربـك أهـل الـدار قبـل أن يدعى إلى المـائدة فما من حديث قبلها ،

وأهل البيت كلهم مشغولون في ترتيباتهم الطعامية . في الطريق فتحت الـراديـو على اذاعة دمشق فسمعت القرآن يرتل ترتيلاً عجبا بصوت آية في الجمال لا مثله عبد الوهاب ولا وديع الصافي ، وبتصرف في النغمات يبلغ أقصى درجات الاعجاز .

كان معجـزة غنـائيـة لا يملك الانسـان الا ان ينصـرف إليها ، ولكنـه لا يملك إلا أن ينصـرف بها عن المعنى . فالقـارىء وهـو الشيخ مصطفى اسـماعيـل كان يقطـع الآيات ويعيدها ويتصرف بنغماتها وكان واضحاً انه في حالة طرب وانسجام عجيبين ، ولكن المعنى كان يفر من أيدينا . هو في الأصل ليس سهلاً كما قلت لأن القرآن الكريم لغة فوق لغـة النـاس وكـلام فوق كلامهم واشـارات وايـماءات وايجاز معجـز مما امتلأت بالحديث عنه كتب الأدب وكتب التفسير ، ومن يريد أن يفهم غير آياته المباشرة الظاهرة يحتاج إلى أن يرجع إلى كتب التفسير هذه ، فماذا يكـون حالـه إذا سمعهـا مرتلة منغمة مقطعة معادة مكررة بصوت يذهل الانسان عن كل ما سواه ؟ ولعلكم سمعتم قصص الطروبين من العـرب الـذين كان واحـدهم إذا سمـع الغنـاء المعجز شق ثيابه او آذى نفسه ذاهلاً عن سلوك الانسان الحكيم ، أفلا يذهل كذلك عن المعاني التي هي في الأصل صعبة ؟ .

ولا اعــترض على أن يتلى القــرآن الكـريم بصـوت مصطفى اسـماعيل . وفنه البديع بل أطلب ذلك واستزيده ، ولكن لأسمع شيئاً جميـلاً في باب النغـمات مقـرونـاً بكـلام بديع الرصف والنطق ، وليس لأنصت إلى المعـاني وأتأمـل فيهـا خاشعاً ومتفهماً . ولذلك أفضل قراءة القرآن مرتلاً للغاية الأخرى . وحين علّمت القرآن في المدرسة الابتدائية

علمتـه بالطـريقـة الفصـاحية الخطابية . أمام التلاميذ قرأت لهم سورة (عبس وتـولى) واضعـاً القصـة في اطارها وهو عتاب من الله لرسوله لأنه اشاح بوجهه عن أعمى جاء يلحف عليه بالسؤال لأن عند الرسول في ذلك الوقت واحداً من سراة العرب يريد ان ينصرف إليه وهذا أحسن لصـالـح الـدعـوة . ولذلك جاءت الآيات تقول : عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى . ومـا يدريـك ؟ لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟ أما من استغنى فانت له تصدّى (أي تتصدى وبه تحفل) . وما عليك الا يزكى (أي لا يؤمن) ؟ وأما من جاءك يعسى ، وهو يخشى ، فانت عنـه تلهّى ، كلا . . . إنهـا تذكـرة ! فمن شاء ذكـره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة . . .

كانت عيـون التلاميذ وأسماعهم وقلوبهم مشدودة إلى القصة وما فيها من عظة وما تنطوي عليه من فكرة ترفع الفقير المعاق المؤمن إلى ما فوق الشريف الغني صاحب المقام الذي لما يدخل الايمان قلبه . وأذكر يومئـذ أن منـاقشـة كبـيرة دارت حول اسـلوبي في تعليم القـرآن فكأنـما رأى فيـه بعض من تأسـرهم العـادات نوعاً من التجديد ، وربما كان معهم الحق وربما لم يكن ، والمسألة لا أطرحها إلا وقد جرني إليها الاستطراد إذ التعلم في الكتاتيب كان يجري على قاعدة التنغيم الرتيبة المملة ، ولكن كان يبقى منـه ان التـلاميـذ يحفظون . في الأساس ماذا كان يعلم شيـوخ الكتـاتيب إلا القـرآن والقراءة والكتابة وقليلاً جداً من الحساب الذي كانوا يسمونه في ايامنا الأولى (الهندي) فيقول واحدهم لقد تعلم الكتابة والقراءة والهندي ، أي الحساب . وهذه مناسبة لأقول ان ارقامنا التي نسميها الآن عربية هي هندية ، وان الأرقام التي نسميها

أجنبيـة هي العـربية ، وحبذا لو تابعنا معظم الدول العربية بالعودة إلى الترقيم الأصلي فله مزايا أكثر بكثير من أرقامنا الحالية ولاسيما في التمييز بين الصفر والنقطة ، وبالنسبة للدلالات الحديثة . . .

(آصب آ ، اللي جزم أل)

أمـا تعليم تهجي الحـروف في الكتاتيب فكان أعجب . يبدأون التهجي بالفـاتحـة واسمعـوا كيف كان الطفـل الصغـير يتعلم كلمـة (الحمـد) . العـريف يقـول والاولاد بعـده يحفظـون على الغـائب : الحـمــدو ، الـف ولام وحـي وميم ودال . آصب آ ، الـلي جزم أل ، حاصب حا الحـا ، أمي جزم أم ، الحم ، درفـع دو ، الحمدو . وترجمة هذه الكلمات : انـه بعـد أن يعـد حروف كلمـة الحمد ، يبدأ بتهجيها فيـقــول آ (نصب) آل (جزم) آل ح (نصب) حا الحـ ، م (جزم) أم ، الحم ، د (ارفع) د ، الحمدو .

أي من أجـل كلمـة كان يقـول اثنـين وعشرين مقطعاً صوتياً بلا معنى . وهذه الطريقة تشبه (الجملية) الحديثة من حيث انها تنتقل من الكلمة إلى تحليل حروفها ، ثم إلى اعادة تركيب الحروف مع تحريكها ولكن مع فارق كبير وبعيد .

ومـع ذلـك كان النـاس يتعلمـون القـراءة ولاسيـما قراءة القرآن والكتابة والحساب (أي الهندي) ومبادىء الدين . وأكثر الناس يمرون بالكتـاب وهم أطفـال ليتعلمـوا القرآن فلا بد من ذلك ، ولكن لم يكن الكثـير ون يجاوزون تعلم القـرآن كنص لازم للصـلاة إلى تعلم القراءة

والكتابة والحساب . ولذلك فمفهوم الأمية في هذا الصدد مرن وغير محدد ، ولا يزال كذلك حتى الآن . ومع تقدم العلوم والمعارف تصبح كل المعلومات التي يحصل عليها الانسان حتى الاعدادية بمعنى ما ، مكافحة للأمية لاغير .

والتعليم في سورية في العشرينات كان يقوم على هذه الكتاتيب أولاً ، وعلى عدد من المدارس بدأ بتزايد بالتدريج ، منها الحكومي والخاص ومنها مدارس الارساليات . واذكر في أواخر العشرينات انه كانت هناك مدرستنا وهي (انموذج عرنوس) وسميت كذلك لأنها في حي عرنوس ولأنها مدرسة انموذجية نظامية ، وكانت هناك مدرسة في المهاجرين ، ومدرسة في البحصة مشهورة وكبيرة جداً وهي من أيام الأتراك . وإلى جانب هذه المدارس الابتدائية القليلة كانت هناك مدارس عربية خاصة منها الكاملية وهي شهيرة في أيامها ، والمحسنية وما تزال موجودة حتى الآن ، والكلية العلمية الوطنية .

كما كانت هناك مدرسة الفرير ويديرها الأخوة المريميون (الفرير ماريست) والمدرسة الاسية الأرثوذكسية في القصاع ، والمدرسة الكاثوليكية في باب شرقي ، ومدرسة الاليانس في حي اليهود وهي لأبناء الطائفة الموسوية ، ومدرسة اللاييك أي العلمانية وهي مدرسة فرنسية ، ومثلها مدارس أخرى للبنات كمدرسة الفرانسيسكان .

ولم يكن التعليم منتشراً في القرى ، ولكن بدأت الحكومة تفتح المدارس . أنا افتتحت مدرسة (الديماس) كما سيأتي الحديث بعد قليل ، وشاكر مصطفى افتتح مدرسة (تلفيتا) وهكذا ، كلما عينت

الحكومة معلمين من حملة الثانوية او دار المعلمين فتحت مدارس جديدة لأن المعلمين كانوا قلة في تلك الأيام .

مدرسة انموذج عرنوس الابتدائية

قلت انني بعد ان انتقل عمي من معرة النعمان إلى دمشق ، وانتقلنا معه بطبيعة الحال ، كان لابد من مدرسة ، وأقرب المدارس كانت مدرسة انموذج عرنوس الابتدائية . وكان مدير المدرسة هو المرحوم الاستاذ سعيد مراد ، وهو رجل طويل القامة جميل الصورة له لحية مائلة الى الحمرة . فلما راجعه أبي قبلني في الصف الثالث (لأني جئت بأوراق من معرة النعمان أنني اكملت الصف الثاني) ولكن وضعني فيه مستمعاً وشرط ألا أدخل الفحص لأنني كنت في السابعة لم اتمها فلا يحق لي أن أدخل الصف الأول . ذلك أنه كان قد تساهل لسبب وهو انه تزوج من معلمة مثقفة متخرجة من دار المعلمات - ومن أول المتخرجات - هي ابنة خالة أبي . ودأبت أنا بعد ذلك على تحريف القصة لتكون طريفة فأقول انه رفض قبولي أولاً ولذلك احتلنا فزوجناه قريبتنا فرضي بادخالي إلى المدرسة . وهكذا كان مهر العلم المبكر عروساً حلوة مثقفة ، وهل يملك كل واحد مثل هذا (الالتماس) أي الواسطة المقنعة ؟ ولا أزال حتى الآن أداعب ابنه الصديق المحامي عبد المنعم مراد فأقول له لولاي أنا لما جئت أنت .

وبالفعل حجبني أهلي أيام الامتحان في آخر السنة فاعدت الصف الثالث ، وفي سنة الاعادة التقيت مع رفاقي الذين عشت عمراً

معهم بعد ذلك ، وكان مديرنا بعد الاستاذ سعيد مراد الاستاذ شريف آقبيق والـد الصـديقـين فيصـل وريـاض ومعلمـونـا هم كامل الروماني وسعيد الريس واديب شاكوج والشيخ محمود العبجي ومصطفى صادق الحـواصـلي وفي الفرنسية المسيوشكري . وحتى أضعكم في صورة تلك الأيام ، من حيث أنا طفل في مدرسة ابتدائية ، انقل لكم مقالة كتبتها في عام /١٩٥٥/ تحت عنوان :

العالم الصغير الكبير

أنا ما رفعت الصوت بالنداء الغضوب المشوب بالسلطة الأبوية ، الا حين بالغت سلمى في العفـرتـة على شاطىء البحـر ، وأطـالت ركضهـا تحت شمس يضـاعف لذعهـا الهـواء النـدي ، وتصـامت عن نداءاتنـا الـرقيقـة ، أمهـا وأنـا . فلما فعلت ، وجـاءت تشدها الطاعة ويثـاقـل قدميهـا التعب ، رأيت في وجههـا انها تحاول أن تكون معقولة لتجـبر ني أن أكـون أنـا أيضاً معقولاً ، ولمحت في عينيها الواسعتين أكثر من معنى لطيف وهي تقول : ـ

ـ بس بدي أسأل امك ، لما كنت صغير ما كنت تعفرت ؟

وضـحـكت برغمي ، وأجبت : بلى والله ، كنت أعفـرت ، كنت كسائر الصغار . لقد صدقتها الجواب فانتصرت علي . على أنني لو تظاهرت بغير ذلك وعادت إلي أمي ، لكانت الفضيحة أكبر ، وبلغ الصغيرة من اخبار الصغير الذي هو اليوم أبوها مالا سبيل إلى ضبها بعده .

كانت ثيابي ، عند الاوبة في المدرسة غيرها عند الذهاب إليها ، سواء في الفرق لونها وشكلها وتماسك خيوطها . ولقد عدت مرة بلا سترتي البيضاء لكثرة ما لطخها التوت الشامي من شجرة تسلقتها في بستان الرئيس ، وعدت مرة بلا حذائي الجديد لأنني خلعته وأنا العب في آخر مرجة الحشيش فسرقوه أوضاع . أما يداي فكانتا لفترة من الزمن مصدراً دائماً لخجلي ، ليس فقط لان المدير كان يرفعهما عليهما القشب ولطخ الحبر ليتفل عليهما ، ولكن لأنني كنت اخفيهما ورائي كلما لمحت يدي معلمي الذي أحبه ، بضتين بيضاوين في حمرة لطيفة . كان عشقي ليدي معلمي أفعل في خجلي من تفلة مديري . وآه لودرى المعلمون والمديرون والكبار كلهم ما في نفوس الأطفال من مشاعر وآه لو نفذوا إلى هذا العالم الصغير الكبير الذي يفتح بالحب والاقناع ، وتتكسر امام اسواره الجبارة ـ لأنها اسوار الطفولة ـ كل الهجمات التي قوامها اعتداد الكبير بأنه فهيم وبأنه كبير .

على أن هذا لم يكن شأني دائماً ، ولكن في مرحلة الأزمة التي يمر كل طفل فيها أكثر من مرة ، أزمة النمو التي تبدل طباعه وتصرفه عن كثير مما كان بالأمس يشغفه اويفعل فيه . وقد جاءني بعد ذلك وقت كنت أتلف فيه يدي لكثرة الغسل بالصابون والحك بحجارة الخفان (١) فلا ينزعج الآباء مما يرون من تبدل حال الأولاد في مراحل النمو الحاد ،

---

(١) ـ حجر أبيض خفيف مفوخر فيه مسا ينفع في تدليك الجلد عند الاستحمام من أجل إزالة البشرة المتسخة او المتهاوتة ، وهو أشد فعلاً من (كيس الحمام) .

وليصبروا عليهم وليأخذوهم بالحكمة والعطف ، وقد فعل أبواي هذا ، فلهما الشكر والمنة .

اللغة الأجنبية

كنت في المدرسة وسطا في كل شيء من حيث الاجتهاد ، ومتساوي القوة في كافة المواد من حيث الاستعداد . على أنني كنت أتميز من اقراني في درس اللغة الفرنسية وكنا في ذلك العهد نتعلمها منذ الصفوف الأولى في المدرسة الابتدائية . إن عامة المربين يشجبون اليوم فكرة تعليم اللغة الأجنبية منذ الصفوف الابتدائية الأولى . مع أن هذه السن بتجربة الناس كلهم هي سن التلقين. والذين يحرصون على تعليم أولادهم اللغات الأجنبية ، يقدمون لهم ـ متى كانوا قادرين ـ مربيات لا يحدثنهم إلا بهذه اللغات . ولست أدري أي ضير في أن يتعلم الطفل مبادىء لغة أخرى ما دامت لغته الأولى يتعلمها في البيت والمدرسة وسائر الدروس .

ولقد تعلمنا نحن اللغة الأجنبية منذ السنين الأولى فما رأيناها الحقت بنا ضرراً وخرجنا بها أقوياء ، ويتعلمها غيرنا اليوم في الصفوف الاعدادية الأولى ، ونراهم عامتهم مقصرين ، وتقصيرهم في اللغة الأجنبية حائل جسيم دون استزادتهم من الثقافة . على أن الحديث في الأمور التي تحتمل الجدل إذا اثير في مقطع عابر ومناسبة مارة ، فانهما أعجز من ان يستنفذاه .

أعود إلى المدرسة الابتدائية لأقول أنني تميزت فيها بتفوقي في

اللغـة الفـرنسيـة ، وكـدت أنال الوسام الوحيد الذي أتيح لي في حياتي المدرسية ، لولا أنني ساعدت رفيقا في الصف أثناء فحصه ، فوشي بي ثان من التـلامـذة احفظها له ـ ذكرى عتب ـ حتى اليوم ، فنال الوسام ثالث لانــه (ملتمس) أي لأهله حظــوة عنـد المعلم أوهكـذا وقـر في ذهني . على أن هذا ما فت في عضدي ، ومشيت في المدرسة الابتدائية لا أبذل جهداً فوق الطاقة ـ والجو في منزلنا جو عادي من حيث الاهتمام بالـدراسـة ـ ولا أقصـر عن السـابقـين كثيراً . وإذا كنت آسف لأنني لم احفـظ علامـاتي أو لم يحفظ سجلاتها أهلي ، فأسفي أكبر لأن شهادتي الابتدائية نفسها مزقها وصورتها الوحيدة من نوعها ، طفل ثقيل لضيف ثقيل .

اعتمد على نفسك

ولهذه المناسبة أذكر أن والدي كان يقول لي حين أسأله عن شيء يتعلق بدراستي (اعتمـد على نفسـك) . ولمـا كبرت ادركت انه حين فعـل ذلـك قوى في نفسي الاعتـماد على الـذات بدون شك ، ولكنهـا كانت طريقة ذكية للتملص من اسئلتي ، فما كانت دراسته الا الابتدائية القديمة ، وما كان بوسعه أن يساعدني لوشاء ، ومثل ذلك أمي .

شيء آخر أحب أن أذكره عن حياة الدراسة الابتدائية ، هو أنني أولعت منـذ أيـامهـا ومـا أزال مولعـاً حتى الآن بأشيـاء ثلاثة : الخط . والـرسم ، والأعـمال الميكـانيكية . وأنني لاعترف لوالدي ـ بالفضل في أنـه كان يغـدق علي الـورق بسخـاء عجيب لاكتب وأمزق ، وربما كان

ذلك بمعدل كلمة أو كلمات في الصفحة الواحدة ، أو بداية صورة فيها ثم لا تعجبني كما انه اشترى لي من علب الميكانو (وهي لعبة تعود الطفل على تركيب الأجهزة والآلات المختلفة) علبتين كبيرتين ، مع أنه في تلك الفترة لم يكن موسعاً عليه في الرزق .

ترى ، أفي الآباء العصريين اليوم ، كثيرون يقتطعون من ثمن السجاير ـ ولا أقول الخبز ! ـ ما يشترون به أوراقاً وألعاباً من النوع التربوي ، تكون لبنة متينة في بناء مستقبل الأطفال ؟ ! .

وعن الفترة ذاتها كتبت ونشرت تحت عنوان :

الملتقون المفترقون

كنت منذ طفولتي اجتماعي النزعة لا أنفرد إلا قليلاً . على أنني حتى حين انفرد لا أخلو إلى نفسي بالمعنى الحرفي للكلمة ، ولكن أجر الآخرين إلى وحدتي . وما أكثر ما أحدثهم وأحرك السنتهم بالكلام ، وما أكثر ما نتناقش ونتعاتب ونتصافى ونحل من مشاكل وما أحلى ما نسرح به معاً وننهض باثقاله من أعمال جسام . ان هذا النوع من أحلام اليقظة كان رفيق عمري والمعين على مصاعب اليوم والأمس ، والدليل الأمين في سفرة المستقبل حتى أبعد أيام المستقبل . بل لقد حملت إلي هذه الأحلام عزاء في موطن وحال قل فيهما مثل هذا العزاء : في زنزانة السجن الموحشة إذ أنا مضرب عن الطعام فقد جئت إلى هذه الزنزانة بمن أحبهم جميعاً وبمن أكرههم جميعاً : الأولين ليكونوا معي رفاقاً

طيبين مكافحين والآخرين لأقول لهم في وجههم رأيا تحول دون وصوله إليهم أسوار عاليات .

واليوم إذ أنا بعيد عن الخلوة والوحدة ، إذ ألوب في دوامة العيش والعمل الملون المنوع الآخذ آخره بأوله كالحلقة الشيطانية ، اليوم أجدني أحن إلى ساعات الوحدة تلك لأحرك فيها عوالم مسحورة تسرني وتنشطني وتفتح عيني بلا غشاوة . ولعلي من هذا الدافع أيضاً أصبحت أحب أن أجلس إلى أوراقي وذكرياتي ، وأحاول ضخ الحياة في كل ما تصرم من أيامي وأيام الصحب في هذه الحياة . على أن أظرف الألاعيب التي حملتها إلى احلام اليقظة كان تلك الرحلات السائرة مسير الأشعة إذا هي انطلقت من نقطة واحدة . فكل ملتقين في مكان ويوم مضى اتتبعهم في كل مكان لأراقب عجيبة الدهر في جمعهم ثم نثرهم كما تشاء نزوات الصدفة ، هذا القانون الذي يستعصي على كل مظاهر القانون .

فالصدفة هي التي تعطينا صداقاتنا . الصدفة هي التي تزوج آباءنا على نحو نأتي نحن ثمرته وحاملين صفاته . الصدفة هي التي تقرر، في كثير من الأحيان، مصائرنا ودراساتنا وزواجنا وحوادثنا العاطفية والظروف نفسها التي نغمض فيها العين اغماضة الراحة الأخيرة.

والصدفة هي التي جعلتني ، مثلاً ، أكون في مدرسة « عرنوس » الابتدائية ويكون رفاقي فيها فلان وفلان ، ولكم عدت إلى الصورة الوحيدة التي لدي من عهد تلك المدرسة لأرى من اجتمع فيها وكيف كانوا ، ثم كيف صاروا وإلى أين ! . .

أين صار هؤلاء الملتقون المفترقون في تلكم الصورة القديمة ،

الصورة التي حبسنا لها انفاسنا جميعا وتسمر فيها الزمان الزئبقي الفرار ؟! . بعضهم رجحت به كفة المنبت العريق والثراء العريض فبلغ من رخاء العيش ما يفيض على مئة غيره ممن كانوا يرجحونه لو كان الميزان غير الميزان ، ولو كانت الكفاءة مقياس المكاسب . وبعضهم ذهبوا بدداً وتفرقوا مغمورين ولو نافعين ، منسيين ولو مجدين .

هو ذا كبيرنا ، الأسمر البشرة الذي لورأيتم الصورة لرأيتموه حامل العلم من جهة اليمين ، إنه اليوم في موسيقا الشرطة ، أما حامل العلم من جهة اليسار فلم أعد أذكر من هو ولا أعرف أين صار . والذي مات ، والذي صار كاتباً في معمل السراس (١) ، والذي برع في الكهرباء مثل براعته في الشعر المصنوع المحلى ، والذي صار أديبا من أدباء الشام المعروفين ، والذي جن ، واستاذ الأمراض العقلية في معهد الطب ، كل أولئك كانوا هنا متجاورين لا يعرفون إلى أين هم صائرون ، ومن الخير ألا يعرفوا كي لا ينقطع سبيل السعي بالناس .

بطاقة الاحتفال الراقص

اليست قصتنا يومذاك ، كقصة الذين التقوا ـ في شريط سينمائي ـ وسط حلبة الرقص في حفلة صغيرة، فوقعوا جميعاً على بطاقة الدعوة ، ثم تتبعهم واحدهم بعد عشرين عاماً فاذا الشباب شيوخ ، وإذا المرحون تعساء ، وإذا المغمورون تقذفهم ألاعيب القدر إلى

---

(١) نوع من الغراء النباتي يحل بالماء ويتسعمله الحذاؤن .

موضع القمة ، وإذا المحبون مفترقون ، والكارهون أزواج ؟! . .

وكيس البر يد الذي ضاع

أوليست هذه الصورة القديمة القافزة من منسى الذكريات ، ككيس البر يد الذي ضاع خمسين عاماً ، ثم وجدوه ووزعوا رسائله على الباقين على قيد الحياة ، أوعلى من ورثهم من الأحياء؟ رسالة لو وصلت لاسعدت قلبين قطعا الأيام في ذبول الهجر ، ورسالة لو وصلت لفضحت سراً وهدمت بيتاً وقوضت سعادة أسرة ، وثالثة لو دق بها السّاعي باب صاحبها لانهار ، وأخرى لو بلغت موردها لكانت سبيلاً إلى أوسع الثراء . ترى ، لو عرف اصحاب هذه الصورة ـ نعود إليها والى الافتراض كرة أخرى ـ لو عرفوا إلى أين هم صائرون أما كانوا بدّلوا ؟ أولعلهم لو عرفوا لأربكهم المصير ، فتثاقلت أقدامهم ، ووقفوا يرقبون المجهول الذي لم يعد مجهولاً .

لماذا ذكرتكم بهاتين القصتين حملتهما إلينا السينما شريطين باعثين على أعمق التفكير ؟ لأن في حياة كل من الناس ، لو تأمل ، عظات كثيرات ، وأشياء لو تحرك بها القلم الصادق المجنح لكانت أكثر من أدب رفيع .

الشرطي الذي ركل الطفل

في عام ١٩٥٤ أيضاً ولمناسبة يوم الاطفال العالمي كتبت هذا المقال وأرى أنه تفيد اعادته لانه جزء مفيد من هذه الذكريات . كان عنوانه (الشرطي الذي ركل الطفل) وقد قلت فيه :

نحن الآن سبعة أخوة ، ولكن أبانا أنجب عشرة ، أين ذهب الثلاثة ؟ كانوا ثلاث بنات قضين وهن بعد براعم لم تتفتح . وقبل اسبوع واحد فقط من هذا اليوم ، تحدث أبي بفجيعة الأب الحارة عن طفلته (مطيعة) التي ماتت بنت سنتين منذ اثنين وعشرين عاماً . أليس عجيباً أنه لم ينسها ولا خفت في قلبه الأسى عليها رغم الزمن الطويل الطويل ، ورغم الأولاد السبعة الباقين وقد ملأوا حياته تعباً وهموماً ومسرات ؟! . .

ليس أبي وأمي وحدهما في هذا الأسف على صغيرات لم يكبرن ، ولعلي ان اكون أكثر الماً . فلوبقينا عشرة ، أما كانت أجنحة كل منا أقوى في مغالبة الرياح الهوجاء وحياة كل منا أحفل بالسعادة مع التسعة الآخرين ؟ .

على أن شقاء الطفولة لا يقف عند حد الموت يختطف الزهرات ، تضيع فلا تضوع . الطفولة تشقى وهي حية لأن الكبار لا يحترمونها . كان عمري لا يجاوز العشر سنين حين ضربني شرطي فظ بجزمته على مقعدي ، وشتمني . وماذا اجترحت ؟ كنت العب في شارع بغداد على مقربة من المكان الذي فيه الآن معهد الحرية ، فتضايق من حركتي ، من ركضي وقفزي ودويي حتى كأنني نحلة في يوم صيف .

على أنني انتقمت منه على طريقة الصغار : فلقد حفظت رقمه ولا أزال أحفظه حتى الآن ، وحقدت عليه قدر ما يمكن لطفل ان يحقد .

وقد جاء يوم قابلت الشرطي الضارب فيه وأنا قادر عليه ، وعاتبته وهو غير ذاكر لما فعل . أيذكر ركلة تافهة في قفا طفل صغير ؟ مثلها ألوف . ولا حمد ربي أن لم تكن مع الركلة بضع صفعات وعدد من الكفوف . مفروض فيه وفي حرفته ألا يذكر ، ولكن طفلاً غيضوا في وجهه ضحكة وأرسلوا مكانها دمعة غيظ وغضبة عجز ، لايمكن أن ينسى . ولقد استحييت منذ كبرت أن أضرب طفلاً . أن أضرب رجل شديداً عديد اهون عندي - إذا احتاج الأمر - من عركة اذن لطفل صغير . فالرجل يستطيع أن يدافع ، وإلا فلا كرامة في نفسه ، أما الصغير فانك لن تتركه إلا واحداً من اثنين ينموان ويستفحلان مع الأيام : خانع أو حقود .

إن لدي الآن طفلتين(١) فاذا اختلفنا امهما وأنا ، فعلى أي السبل أفعل في اسعادهما الآن وفي المستقبل . ومثلنا كثيرون على ما يبدو في شأن هذه المناقشة الابدية . ترى أي السبيلين أقرب إلى أن ينفع الطفل : أن تترك له حبله على غاربه وهو طفل ، فيسعد اليوم وقد يكون في غده رخواً مائعاً ابن دلال لا أبن حياة ، أم تشد له براغيه وتسيره على صراط - لا تسير عليه أنت ولا تستطيع السير عليه ، ليكون في مقبلات الأيام كأنما صب في قالب ؟ .

---

(١) سلمى وحنان ، ولم تكن الثالثة صفاء قد ولدت .

من يقول لا ومن يقول نعم

على رسلنـا . كأن ليس في الـوسـع الجمـع بين الحالين ، وكأن سعـادة الطفـولـة تنـافي توجيههـا . كأن الحسنى لا تنفع مع الصغار ، وتنجـع فيهم ضروب القسـوة ! . . ولكن الـذنب ليس ذنبهم إذا نحن احببناهم حب الضعفاء ، فاعتادوا على ضعفنا واستمرأوه . أفليس في وسعنـا أن نحبهم حب الأقـوياء ، حب من يقولون « نعم » ألف مرة ، ويعرفون أن يقولوا « لا » حين تقتضيها المرة ؟ .

أحب أولادي وسأحبهم قدر ما أحبني أبـــواي ، وقـدر ما تحبـون أولادكم جميعـاً ، أوستحبـون . انهم شاهد حي على طفولتنا ، نحب فيهم ذواتنا حين كنا أقل هموماً ، ونحب فيهم أنهم يصعدون فيما نحن ننحدر ، وأنهم سيبقون ويغرسون على ترابنا غصن ريحان ، يوم نزول .

غير أن الحب لا يكفي ، أن علينـــا واجب الكفـــاح من أجـــل الحيلولـة بين الأطفـال وبـين المـوت أيا كان سببه : حربا تأكل الأخضر واليـابس ، أومرضـاً يستشري بين الصغار الناعمين أوفقراً يكمن وراء الهـزال والضمـور وضعف المقـاومـة . أن علينـا ، واجب السعي لكي يسعـد الأطفـال فوق ان يسلمـوا . فالطفولة بلا سعادة هرم مبكر ، ولا سعـــادة إذا لم نوفـــر لهم أسبـــاب العلم ، إذا لم نحـترمهم كأنهم كبـار ونعاملهم معاملة الانسان المكتمل كيلا تكون الطفولة في أعينهم نقيصة يتطلولون وينتفشون ليغادروها قبل أن يغادروها .

وأحب ، في قلب ذكـريـاتي ، أن استقبـل أنا أيضاً يوم الاطفال

العــالمي على طريقتي ! أستقبله بقلبي الــذي لا يزال والله طفــلاً ، وبجهدي كي لا يختطف القدر من أطفالي وأطفال الناس أحداً ، كي لا يركل شرطي فظ ولدي أو ولد أحد الناس بجزمته ، كي تكون الطفولة فوق أنها أسعد مراحل العمر ، تمهيداً حسناً معافى لحياة كلها سعادة .

خطاط بالفرنسية

وأعود من هذه الاستطرادات التي جرتنا اليها المناسبة فأقول أنني منـذ الصف الثـالث والرابع الابتدائيين هويت مع الخط العربي الكتابة بالفرنسية ، ومما ساعدني على ذلك أن استاذنا الذي كنا نسميه (المسيو شكـري) وهـو رجـل لطيف وقـدير وصارم كان كلما ارتكب احدنا ذنباً كلفـه بكتـابـة خمسين سطراً جزاء قبل الانصراف مساء وكانوا يسمون ذلك التــوقيف . فكنت احتيــاطـاً للجـزاءات المقبلة المؤكـدة ـ لأنني كنت أعفـرت ـ وحتى لا أنحبس عن مغـادرة المـدرسة عند الانصراف أكتب سلفاً (ولقدام) كما نقول في الشام مئات الأسطر من أول سطر في كتاب الصف الرابع وهذا السطر يقول Les eleves sont dans la classe ، أي التلاميذ موجودون في الصف فكان هذا مدعاة لاتقان الخط ، كما تعلمت الكتــابــة بالحـروف القوطيـة التي تشبـه بالعـربيـة الحـروف الكوفية ، وأشهر من يكتب بها الألمان ، واتقنت زخرفتها فيها بعد أيما اتقان .

أدوات الكتابة المدرسية

على أنني كنت بالخط العربي أكثر اهتماماً وتعلقاً ، ولابد أولاً من أن أقول أن أدوات الكتابة في تلك الأيام ـ أواخر العشرينات ـ كانت في الدرجة الأولى قصب الغزار الذي نتعلم قطعة أو (قطّه) كما هو الاصطلاح لنكتب به الخط الرقعي والنسخي والثلث ، وكان في كل مدرسة معلم خط . وكانت توجد مع قلم القصب المسكة والريشة فالمسكة هي ذنب القلم والريشة هي الرأس الحديدي الذي له نمر مختلفة حسب عرض الخط المطلوب . أما الحبر فنشتري مسحوقه من المكتبة ونضيف اليه الماء . وفي وقت ماصرنا نشتري أزرق المتيلين من الصيدلية لنصنع منه الحبر ، ولا يخفى مقدار ما تتسخ الأيدي في صناعة الحبر وفي استعماله فكانت أيدينا كأيدي الصباغين ، وقبلنا كان التلامذة يحملون المقلمة وفيها الحبر ومعه قطنة تسمى (ليقه) وهي بحجم كبير نوعاً .

ثم دخل القلم الطراش أو الستيلوغراف وهو الستيلو الذي نعرفه هذه الأيام ، وكان من أجناسه المشهورة واترمان وبليكان ، كما كانت توجد أقلام بريشة من زجاج . وكانت هذه الأقلام فتحا وأصبح أولاد الميسورون يشترونها ويتباهون بها ولكن المعلمين يكافحونها لأنها في نظرهم تفسد الخط الذي لا يجود إلا بالريشة العربي أو الريشة الفرنسي ، ويرفضون كل وظيفة مكتوبة بالستيلو حتى غلبهم شيوعها واهمال الخط أيضاً .

شرعت في كتابه مصحف

وكانت الدفاتر بسيطة ومواعين الورق من ماركة (ليكم) رخيصة الثمن ، وقد هويت الكتابة والتأنق فيها حتى أنني وفرت من خرجيتي ربع مجيدي (١) وأعطيته لواحد في صفنا شاطر في الخط أسود اللون اسمه عبد الله فخري ، وأصبح فيما بعد خطاط الشرطة وقلت لوالدي انني أريد أن اكتب مصحفاً . فسر والدي جداً وبدأ يشتري لي مواعين (ليكم) واحداً بعد آخر ، وأنا أكتب وأمزق اذ لايعجبني ما أكتب ، ولم أجاوز الايات الأولى من سورة البقرة ولكن هواية الخط كانت قد نشأت عندي . وفيما بعد تابعت هذه الهواية فكنت إذا سرت في سوق الحميدية فعيناي على اللوحات أتأمل خطها وأحاول في البيت أن أقلده .

أشهر الخطاطين في دمشق

وبالمناسبة فان أشهر الخطاطين في أيامنا كان (ممدوح) الخطاط الذي كان قوياً جداً في الخط الثلث وكان استاذه كبير الخطاطين الأتراك المعروف باسم (رسا) وقد رأيت نماذج من خطه الجميل وخط استاذه . ثم بعد ممدوح جاء بدوي الديراني وكان محله في شارع جانبي في آخر سوق الحميدية قبل المسكية اسمه سوق البوص أو لعله (البورص) ،

---

(١) عملة فضية تركية ظلت في التعامل حتى آخر العشرينات وسيأتي ذكر هذه العملات تفصيلاً .

وكنت أقف طويلاً جداً أمام محله أتأمل في طريقة كتابته ، وقد برع أكثر من سواه بالخط الفارسي . وكان هناك خطاط اسمه موسى الشلبي وهو من القدامى ، والخطاط الفنان الظريف حلمي حباب . وهذا الأخير كان خفيف ظل كثير الاتصال بالناس وبالدوائر الرسمية وأصبح خبيراً في الخط أمام المحاكم ، وكنت أتردد عليه وأقف طويلاً أمامه وهو يكتب ونحن صديقان ولو كان أكبر مني سناً .

وسأعود إلى حديث الخط والخطاطين عند الحديث مستقبلاً عن علاقتي بالفنون الجميلة .

غراند أوتيل دو « تلفيتا »

حين أذكر لاولادي ولاحفادي قصة حياتنا في تلك الأيام ، هذه الحياة التي كانت بسيطة عموماً يستغربون . مرة كنت وزوجتي نحدثهم عن أننا حدث أن ذهبنا كلانا مع عائلتينا ـ كل عائلة على حدة ـ للاصطياف أياماً في تلفيتا ، فسألت واحدة من البنات : في أي أوتيل نزلتم ؟ ضحكت وقلت لها : في الغراند أوتيل دو تلفيتا . . ثم أضفت موضحاً ان الاصطياف كان يعني أن نذهب فنستأجر غرفة عند فلاحين ـ وقد نكون ضيوفاً عليهم مقابل زياراتهم ونومهم عندنا حين يأتون إلى المدينة ـ وتشرب الحليب من ثدي المعزاة .

اصطيافي في فندق بلودان الكبير عام ١٩٣١

ومما أذكره أيضاً أنني بعد أن قضيت في بلودان سنوات كثيرة مصطافاً ابتداء من عام /١٩٥٤/ ، كنت أقول أنني بدأت الاصطياف في فندق بلودان الكبير منذ عام ١٩٣١ ، وحجزت فيه جناحاً بل تنقلت بين أجنحة كثيرة فيستغرب السامعون الذي يعرفون أنني نشأت في عائلة بسيطة درويشة ، أويظنون أنني أمزح أويقول بعضهم لعله كان من أهل النعمة ثم حط به الزمان ، ثم أفسر لهم الأمر قائلاً أن والدي تعهد تركيب المنجور في الفندق وكلما ركب الأبواب والنوافذ في غرفة أمكن أن يسكنها وكنت أنا وأخي برهان معه ، وتنقلنا في الأجنحة وقضينا شهرين لطيفين ثم استأجر أبي للعائلة بيتاً على طريق أبوزاد لدى آل نموره (لايزال موجوداً حتى الآن) وجاء بوالدتي ومعنا فراشان ولحافان ، وقد سافرنا إلى الزبداني بالقطار ثم أخذنا دابة لتحميل الاشياء البسيطة التي معنا وصعدنا إلى بلودان من طريق (القدومية) المختصر مشياً على الأقدام يتقدمنا الحمار حاملاً الأمتعة . وكان هذا يسمى سيراناً فاخراً ، ويشكل امتيازاً باهراً بالنسبة للآخرين . أما مصيبة الاصطياف فهي أن العائلة وما ضم اللحام تأتي عندئذ لتزور وتصطاف وينام الجميع رؤوساً ورجلين ويصبح البيت كأنه القاووش فتتعب ربة البيت ولكن الجميع (ينبسطون) . ولم نعد إلى الاصطياف مرة أخرى فقد (تربينا) من كثرة الضيوف والتعب . كما جرب عمي الاصطياف مرة في الزبداني فلم يبق أحد من عمود النسب إلى الدرجة العشرين من القرابة أو الصحبة إلا جاء فأقام وأكل ونام . بقينا بعد

ذلــك لا نصطــاف حتى عام ١٩٥٤ ، حيث رجعنــا إلى بلودان واستأنفنـا ـ وبسـرور وترحاب ـ قصة الضيافة حتى أن رجاء الشربجي من ظرفـائنـا الكبـار ركّب علي اشـاعـة تقـول ـ لتشجيـع الهجـوم على داري ـ أن عنـدي عقـدة السفر برلك ولذلك ففي برادي دائماً كذا كيلو من اللحم وكمية من الخضار والحشائش وان الزوار يأتون الينا (انتجاعاً للكلأ) ! ...

أقـول هذا بعـد أن (بطلت) أنـا أيضـاً الاصطيـاف ، لا بخلا لاسمـح الله وإنـما تعبـاً من الـذهاب والاياب صباحاً ومساء لارتباطي اليومي بعملي وبالناس .

معلمونا في الابتدائي

وأعــود من جديــد بعـد الاستطـراد إلى دراستي الابتـدائيـة .

كان مديـرنـا المـرحـوم شريف آقبيق ومعنـا ولـداه فيصـل (الـذي صار فيما بعد مديراً للعمل في دمشق وهو متخرج من الحقوق) ورياض الذي كان بعـدنـا في الصف . والاستاذ شريف كان رجلاً صارماً ، ويخيل إلي أنـه كان عسكـريـاً سابقاً ، وكنا نهابه . وقد ظلت صلتي به مستمرة فيما بعد وتوليت عدداً من الدعاوي المتعلقة بافراد اسرته ، وظلت الصداقة تجمعني بولديه .

وكــان معلمنـــا في الصف الثـالث المـرحـوم مصطفى صادق الحواصلي ، وهو اسمر نحيل طويل وعصبي وصارم . ومعلمنا في الرابع

أديب شاكوج ، وكان شركسياً أبيض البشرة ، وأذكر أنني عشقت يديه الجميلتين وحاولت أن أجعل يديّ مثلهما ، وقد صار فيما بعد رئيساً للمعيدين في التجهيز ولي معه قصة ستأتي حين فررت من النافذة .

كامل الروماني

أما معلمنا في الصف الخامس فهو المرحوم كامل الروماني . وقد كان رجلاً جميل الصورة جداً ، وأنيقاً جداً ، ومعلماً بارعاً أحببناه وشعرنا حياله بالهيبة في الوقت نفسه، وما يزال صوته الجميل في أذني. ان صورة المعلم البهية ترافق الطفل كل عمره ولذلك يتشدد علماء التربية في اختيار المعلم ليكون محبوباً وليكون قدوة ، ومن أبرز شروطه أن يكون جميلاً قدر الامكان سوياً ، ذكياً ، قادراً على فتح القلوب بالمحبة . وقد كان كل معلمينا كذلك ولاسيما كامل الروماني . وهو أيضاً بعد أن علم في الابتدائي تقلب في مناصب عالية فكان مديراً عاماً لمعرض دمشق ثم مديراً عاماً لمشفى المواساة ، وتوليت دعوى أقامها على المؤسسة حين صرت محامياً ، فاتصلت بذلك علاقة التلمذة بعلاقة الصداقة . وقد اشعرني بتقدمه أنه لم يبق في صورته القديمة معلماً يجاوزه تلامذته حين يكبرون ، ولكنه هو الآخر ظل يتقدم معهم بل ويظل سابقاً ، وكان هذا درساً لي حين احترفت التعليم ثم تركته وظللت أسعى أن أتقدم حتى لا يسبقني تلامذتي ، أولا يسبقوني كثيراً على الأقل .

وبوجه عام فان بعض التلاميذ المتفوقين يسبقون معلميهم

ولذلك سميت المعلم جسراً في قصيدة كتبتها لمناسبة عيد المعلم فقلت :

مد للأجيـــال جســـراً   تعـــبر الأجيـــال فوقـــه
فهـــي تعـــلو وهـــو يبـــقـــى   صابـــراً خلف المـــشـــقـــه

وكان من معلمينا الاستاذ سعيد الريس ، وهذا أيضاً تقدم وصار محاميـاً وحـين انتسبت إلى المحـامـاة وجـدتـه سابقاً لي فيها ، وقد تولى الوكالة عن الدولة مدة طويلة . وقد الهب خيال التلاميذ ومشاعرهم فيما بعـد حين سمعـوا بعـد سنـوات ، انـه اشترك مع أخيه الصحفي منير الـريس في ضرب وزيـر المعـارف حسني الـبرازي انتقـامـاً لاقـدام آل الـبرازي بتحـريض من الوزير على ضرب نجيب الريس ، وكان هذا شيئاً كبيراً في تلك الأيام وصارت لمعلمنا في أذهاننا صورة أقرب إلى البطولة .

وكـان استـاذ الـديانة الشيخ محمود السعدي العبجي ، وهو والد الصديق الدائم الاستاذ عادل السعدي الذي كان أبن صفنا وصار فيما بعـد من الـوزراء المـرموقين في حقل الاقتصاد والمال . وما يزال الاستاذ عادل يحتـل مركـزاً كبـيراً فيهـا وتجمعنـا صداقـة حلوة ودعـابة دائمة .
والاستـاذ الشيـخ محمـود باعتبـاره كان يسكن سوق ساروجـة قربنا كان صديق والدي وكنا نلتقيه كثيراً ونأنس بحديثه ونسترشد بعلمه .
إذن فكـانت أسرة المعلمين في مدرسة انموذج عرنوس أسرة ممتازة ، ولذلك كان تعليمنا فيها جيداً ، والولد متى أحب معلمه استفاد منه مضاعفاً .

رفاقي في المدرسة الابتدائية

شاكر مصطفى

في هذه المــذكــرات ترونني أذكــر شاكــر مصطفى في كثـير من المناسبات المتعلقة بطفولتي وشبابي ، فاذا أردتم التفسير فهاهو : كنت وشــاكـر من السن نفسهـا تماماً وكـان هو من حي الصـالحيـة ونحن سكنـا في حارة المقـدم (بين الجسـر الأبيض والصالحية في دار بقدونس) لمدة سنة قبـل ١٩٣١ حيث انتقلنـا إلى بيتنـا في حينـا القـديم الـدائم في بستان الكركة . وهذا الجوار جعلنا ندخل مدرسة ابتدائية واحدة هي مدرسة عرنوس .

أمضينـا معـاً سنـوات التعليم الابتـدائي ، صفنا واحد وطريقنا واحدة . ونجحنا معا في الشهادة الابتدائية ، وكنا في مكتب عنبر معاً ، في الصف والشعبــة نفسهــا ، عرفنــا الاســاتــذة عينهم وكـان أصـدقـاؤ نـا مشـتركـين وأخصهم بالـذكـر المرحومان مظهر وصفي وتيسير الشايب وغيرهما من الرفاق الأحباء وفي عام ١٩٣٨ تقدمنا معاً ، بعد القسم الأول من البكـالـوريـا للتعيـين كمعلمـين ، وعيّنّا معاً وبقرار واحد في الفــرات ، واستنكف هو ورجعت أنــا بعــد عشـرين يومـا فقـط إلى دمشق ، وأمضينـــا سويـة سنـة الفلسفـة ، وأخـذنـا القسم الثـاني من البكالوريا معاً في وقت واحد .

ثم جرى تعييني مؤقتـاً في قريـة الـديـماس المجاوة لميسلون على طريق بيروت وعـين شاكـر مثـلي ولكن في قريـة تلفيتـا بين قريتي منـين

وصيـدنـايـا . وقـرب آخر السنة عندما اقترب عيد أول أيار جاء والدي فأنـذرني بأن دارنـا في دمشق (كبستهـا) الشـرطة لاعتقالي فذهبت من فوري إلى دمر بسيارة عابرة ، ومن دمر إلى قرية منين عن طريق الجبل مشياً على الأقدام .

ونمت الليلة الأولى عنـد زميـل لي معهم في قريـة منين، واسترحت من تعـبـي ، وفي صبـاح الـيـوم الـتـالي قصـدت إلـى (تـلفـيتـا) حيث كان شاكـر مصطفى معلماً . ولكنني كنت قد غيرت أحـلاسي وهيئتي (في الشام نقول غير حلاّسه) وصار اسمي الشيخ علي . وقضيت أياماً لدى شاكـر اختفي عنـده عن انظـار السلطـة مدعيـاً انني شيـخ من أصدقائه ، ثم تركت تلفيتا وذهبت إلى التل حيث نزلت عند صديقي معلم القـريـة الأستـاذ عبـد القـادر حتيتـاني (وسيأتي حديثه مسهبا في القسم الخـاص بجمعيـة انعـاش القـريـة) فآواني هو أيضـاً رغم أنه لا يشاركني أفكاري شأنه في ذلك شأن من تقدم ذكرهم من الزملاء الذين كانـوا يتصـرفـون بالتعـاطف والصـداقـة ولانـنـا جميعاً ضد المستعمرين والسلطة ولكن كل واحد له أفكاره المستقلة .

وأذكـر أنـه في اليـوم التـالي لتركي تلفيتا ومنزل شاكر مصطفى ، جاءت دوريـة كبـيرة من الـدرك يتقدمها الكولونيل هرانت بك لتكبس القـريـة ، ولم تجدني ، وسجلت على شاكر نقطة في ذلك الوقت في نظر السلطات . ولكنه كان شجاعاً فلم يأبه .

وفي العـام التـالي دخلت وشـاكـر مصطفى معـاً دار المعلمـين ، وقضينـا معـاً السنتـين في هذا المعهـد ، وتقـاسمنـا معاً المرتبتين الأولى والثانية عند التخرج ، وتشيطنّا معا على الاساتذة . ولما تخرجنا اختارتنا

وزارة التربية لنتقاسم معاً صفا في مدرسة التطبيقات ، وندرس معاً في دار المعلمين العليا . وأوفدتنا الوزارة كلينا إلى مصر في العام التالي ، ولكنه ذهب هو فدرس التاريخ ثم بلغ مكانته العالية في الأدب والتاريخ والتوجيه القومي ، واخترت أنا أن أبقى في دمشق أدرس الحقوق وأعمل في المجالات الأخرى .

وكنا نشترك في مستوى دخلنا ، ومستوى ملابسنا ، وفي الهوايات كالأدب والرسم والشعر فهو رغم عدم مجاهرته بذلك رسام مبدع يرسم بالزيت وبالفحم ، وشاعر رقيق وله أشعار أحفظها ولا يقرّ بها ، وكان لنا أصدقاء مشتركون . وما يزال حتى اليوم يرعاني وأرعاه على البعد ، وحين يأتي إلى دمشق لا يملك إلا أن يتفقد أحوالي وحين ذهبت إلى الكويت كان لي نعم الأخ ، بل كان يعتبر والدي كوالده وكذلك أنا وأخوتنا نراهم أخوة مشتركين .

وأني فخور ومعتز بأنه سبقني في كثير ، وترك آثاراً باقية وسيوفق أن شاء الله في كثير جداً من مشروعات التأليف التي يعمل فيها الآن ، وأنني معه عشنا الوقت نفسه بمصاعبه ومزاياه ، بنجاحاته وفشله ، وأنه يصدق فينا قول من قال : رب أخ لك لم تلده أمك.

فيصل الصباغ

وكان من رفاقي في المدرسة الابتدائية فيصل الصباغ الذي أعرف اسرته وكانت تقيم في شارع نوري باشا ، وأعرف جده وكان رجل علم وهيبة ، وأعرف شقيقته الدكتورة ليلى الصباغ التي بلغت أعلى المراكز

التي تبلغها المرأة بذكائها وسلوكها الكريم المترفع ولها سمعة عطرة في كل مجال . وقد نجحت وفيصل وشاكر سوية إلى التجهيز ولكنني رسبت في السادس ـ ولذلك حديث سيأتي .

ونجح فيصل ومعه لطفي اللبابيدي وصار بيننا على الدوام صف يتقدمني به . ثم دخل مع لطفي كلية الطب ، واختص بالأمراض العصبية في حين اختص اللبابيدي بالجراحة ثم توفي منذ سنوات ، وصار فيصل استاذاً في كلية الطب مرموقاً وهو معلم الأكثرية من الأطباء الشباب النابهين في هذا الفرع .

ويمتاز فيصل بدمشقيته فهو من المعتقين في الصفات الشامية ، وحديثه حين يسترخي ويداعب حديث الشامي العتيق ، كما انه يحب الدعابة أو (الأنكلة) كما نسميها في دمشق ، ويحفظ القصص الضاحكة ويحسن روايتها وهو بذلك واحد من ظرفائنا وهو يفتخر بقوامه الممتلىء ويسخر من الريجيم ويحب ـ وأنا مثله ـ اللقمة الطيبة والجلسة الحلوة ، ونلتقي كثيراً وياليتنا نلتقي أكثر فليس مثل هذه الجلسات ما تطيب به الحياة .

بكري المرادي

ومن رفاق هذه المرحلة الابتدائية الذين استمرت الصداقة معهم العمر كله وما زالت إلى الآن، بكري المرادي . كان أكثرنا شيطنة في المدرسة وما أزال اذكر انه تعلق بالترام والترام يسير مسرعاً فسقط على الأرض وانكسر فكه واسنانه وغاب عن المدرسة أياماً ثم عاد وقد ربطوا

له فكيـه بشـريـط حتى ينـدمل ، ولكن كان يأكل من فتحة في فمه فيها سن مكسـورة ، وكنـا نضحـك حين نراه يشـتري القضـامـة النـاعمة ويضعها في ورقة يلفها مثل القمع ويدخل طرفها من فوهة السن حتى لا يحرم منهـا . ولكن هذا الاغـلاق المؤقت لفمه اعطاه فيما يبدو الرغبة في ان يفتحه فيما بعد على عرضه فلا يغلقه أبداً - وأقول هذا دعابة - فصار من خطبـاء المظـاهـرات المفـوهـين الـذين لا يسكتـون ، وكـان صوتـه العـريض يسمـع من مكـان بعيـد . وقد احترف المعارضة ، واحترف الصحـافـة وأصـدر جريـدة باسم (الشـام) ثم أغلقت مع سواها أيام الوحدة ، وكانت بيني وبينه مداعبات صحفية . وأخيراً حط ترحاله في التجارة وإدارة بعض الأعمال، وتوكلت عنه وعن اسرته في دعاوٍ وما نزال نلتقي على الصداقة والود ونتذاكر أجمل أيام الماضي .

محمد النحاس

ومن الاصـدقـاء القدامى في المدرسة الابتدائية محمد النحاس ، أبـوزهـير ، وقـد عمـل موظفـاً في المصـالـح العقارية وفي نفس الوقت احترف عزف العود وهو في ذلك من البارعين وضممته إلى الفرقة حين اسسنـا فرقـة موسيقيـة في وزارة الثقافة ، وعادت الحياة والصداقة تؤكد روابطنا وذكرياتنا الحميمة . وهو ظريف ، إذا رأيته لا تملك نفسك من الابتسـام قبـل أن يفتـح فمـه بحـرف ، وقد ظهر في بعض المسلسلات التلفزيونية في ثياب عربية فأضحك الثكالى . وذات يوم رفعته فلقاً في تونس حين تأخـر وجـاءني (يتحنـدلْ) وباسما أيضاً وعلى البيعة ، وهو

يعـرف أنني كنت أحـرص على النظام وأنذرت المتأخرين بفلق . وحتى لا تنكســر كلمتي طلبت من شبــاب الـدبكـة أن يبطحـوه ففعلوا وهـو يضحك ويظنها مزحة ونقرته كم خيزرانة وضربته بضع ضربات بالخيزرانة على قدميه لا هي قوية فتصل إلى التعذيب ولا هي خفيفة فلا تؤلم وما بين الضحك والجد نالها وامتنع عن التأخر وما نزال نضحك من هذه الذكريات حتى الآن، لان صلتي به مستمرة ودائمة.

حيدر صندوق وحسني صندوق

وكـان من رفـاقي في الابتدائية حيدر صندوق وحسني صندوق . الأول ، وقد توفي منذ سنتين ، ترك بعد الصف السادس المدرسة وعمل في التجـارة ولـه محل في سوق العصـرونية لا بد أن أزوره كلما نزلت إلى السـوق لاسلم على صاحبـه الصـديق القـديم وأرى ابتسـامته الملأى بالمحبة والوداد . والثاني حسني كان طويلاً حلو الوجه له خال على خده يحب الشعـر ويجيـده وشـاركنـا في الرسم وهو الذي سأكتب عنه أنه كان يرسم الشـاربـين تحت الفم في حديث سيأتي عن نصـير شورى. ولكن القـدر عاجله وكان عاملاً ممتازاً ومقتدراً في شركة الكهرباء، رحمه الله.

من ذكريات مدرسة عرنوس أيضاً

ومن ذكـريـات هذه المـدرسـة أننـا كنا نؤخذ ـ تلامذة الصفوف العليـا ـ إلى المسجـد في بعض أوقـات الصـلاة لنتعلم الـوضوء وصلاة

الجماعة، وأنهم أخذونا مرة في «سيران إلى دمر وسقط أحد التلاميذ في بردى ولكن أنقذوه ، وأن أحد الاساتذة كان ينام في الصف فيقول ـ التلاميذ : (دبلت) ويمطونها ناعمة حتى يرفع رأسه فـ «يقمطونها»، وأنني نجحت في الشهادة الابتدائية بدرجة جيد، وأن فحص الشهادة الابتدائية كان نصفه شفهياً.

وفي العام التالي دخلنا إلى الثانوية الوحيدة في دمشق ومقرها في مكتب عنبر ، ولما دخلنا الصف الأول وكنت وشاكر مصطفى وفيصل الصباغ معاً ، كان عمر الواحد منا لا يجاوز الحادية عشرة بل هو دونها ، فكنا أول وجبة صغار في هذه المدرسة الكبيرة.

ولدنات . . . .

على أن حياتنا ونحن أطفال كانت مليئة بـ «الولدنة»، كما ألفنا عصابة في حارتنا مؤلفة من سبعة أولاد وكنت أنا (وزير الخارجية) في هذه العصابة ، وكنا نتحاجر مع عصابة في حارة الورد المجاورة لحينا .

ومرة تغالبت أنا وواحد من أبناء الحارة فغلبته ، وصرت أفرك رأسه بالتراب ولكن خفت العاقبة فطلبت من الذين حولنا أن يصالحونا ، فلم يفعلوا ، فلما نهض ضربني بحجر على رأسي ففجني .

محاولة فرار مشتركة

ومرة قررنا أن نجرب أجنحتنا الصغيرة، فجمعنا «زوادة» من الخبز والجبن وانطلقنا جميعاً إلى طريق القصاع ثم جوبر ، وكان في نيتنا أن

(١) يستحسن شرح لفظة «يقطمونها» العامية لمن لا يفهمها من غير الدمشقيين.

نذهب إلى القرى فنعمل ونأكل ثم نرحل حتى نتفرج على الدنيا . . . وعندما صار الوقت بعد العصر وكنا في مشارف بساتين جوبر وبدأ نقيق الضفـادع وصـوت زيـز الحقول ، شعرت برجلي تتثاقلان ، وهمتي تفتر و(نـقًـرت) على حيـاة العـائلة ودفـء المنـزل . ولكن دعونا من التتمة فسأعود إلى حديثها مرة أخرى مفصلاً عند الكلام عن شوق السفر والرحلات .

وكـانت لنـا «سيـارين» مما تحدثت عنـه في باب رمضـان والعيـد، وأمور اخرى تتسم كلها بالطفولة .



صل الثالث عشر

معلومات عامة

المواقيت في العشرينات

كان المـرحوم والدي يحمل ساعة جيب ينظر فيها كلما أراد التأكد من مواقيت الصـلاة ، ولكنهـا كانت تشـير إلى السـاعة العربية ! ذلك أن التوقيت في العشرينات كان يتم غالباً بالتاريخ الهجري والشهر القمري والساعة العربية لا بالتوقيت الميلادي والساعة الزوالية . ولايضاح ذلك أقـول أن العـرب بدأوا تاريخاً جديداً من يوم الهجرة إلى المدينة المنورة ، وهـذا اليـوم يقابل في التاريخ الميلادي يوم /١٦/ تموز /٦٢٢/ ميلادية وفق ما يقـولـه تقويم معجم المنجد . ولذلك فلأول وهلة يفترض أنك إذا أردت تحويل سنة هجرية إلى ما يقابلها من سنة ميلاذية أن تضيف إليها الرقم /٦٢٢/ . ولكن لما كانت السنة الهجرية سنة قمرية تتألف من /٣٥٤/ يومـاً أو٣٥٥ ، أي تنقص أحـد عشـر يوماً وربع اليوم عن السنـة الشمسيـة في كل سنـة ، ففي كل /٣٣/ سنة ينقص الفرق بين التقـويمـين الهجـري والميـلادي سنـة . فنحن الآن في عام /١٩٨٣/ ميـلادي الـذي يقـابله /١٤٠٣/هجـري ، والفـرق نزل إذن إلى /٥٨٠/ سنة . وهنأك جداول موجودة في معجم المنجد يرجع إليها في

معرفة كل سنة هجرية وما يقابلها من سنة ميلادية وبالعكس . ولكن ما هو سر الفرق بين التوقيتين الشمسي والقمري وما هي أنواع المواقيت ؟ لا بأس بأن نورد ذلك للفائدة ولمعرفة كيف كان الناس يوقتون الزمان في العشرينات ، وقد أخذت لكم هذه المعلومات من مصادر علمية موثوقة .

التوقيت الشمسي

فالتوقيت الشمسي يقوم على الدورة الظاهرية للشمس حول الأرض ، وهذه السنة الشمسية مدتها /٣٦٥/ يوما و٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٤٦ ثانية .

يمكن للتبسيط أن نقول إذن أن السنة الشمسية تعادل /٣٦٥/ يوما وربع اليوم ، وفي كل أربعِ سنوات يضاف إلى الأيام الـ ٣٦٥ يوم جديد فتصبح السنة ٣٦٦ يوماً وتسمى سنة (كبيسة) ويكون هذا اليوم الاضافي هو /٢٩/ شباط لأن شباط السنوات الثلاث التالية يكون ٢٨ يوما فقط .

ومن أجل استدراك الفرق الذي هو /١١/ دقيقة و١٤ ثانية في كل سنة عن ربع اليوم الكامل يضاف إلى التقويم الميلادي سنة كل ٤٠٠ عام . وعلى هذا فان السنة الغريغورية (نسبة إلى البطرك غريغوار الثالث عشر) اضافت إلى السنة الجوليانية (نسبة إلى الامبراطور جوليان الروماني) عشرة أيام لاستدراك الفرق عن الفترة الماضية . ولذلك أصدر البطرك غريغوار أمره في مدينة روما عام ١٥٨٢

بان يوم الخميس (٤) تشـــرين الأول من تلك السنـة يتلوه مبـاشـرة يوم الجمعـة (١٥) تشـرين الأول أي باضـافـة الايـام العشـرة . ولـذلـك فمفروض أنه بعد ذلك يجري في كل /٤٠٠/ عام اضافة يوم كامل إلى التقويم ولا أعلم لماذا لم يجر ذلك عام ١٩٨٢ .

وقـد اعـترفت الـدول تباعاً بالتقويم الغريغوري ، ولكن روسيا واليونان ظلتا اطول من غيرهما على التقويم القديم ، فروسيا اعترفت به عام ١٩١٨ واليونان عام ١٩٢٣ والآن أصبح عالمياً .

وبـالمنـاسبة فهذا تفسير ان الثورة البلشفية التي يحتفل بها عادة في /٦/ تشـرين الثـاني تسمى ثورة أكتـوبـر (تشـرين الأول) لأنها جرت فعــلاً في /٢٤/ تشـرين الأول على التقـويم القـديم المـوافق لـ /٦/ تشرين الثاني في التقويم الجديد .

التوقيت الشمسي القمري

وهنـــاك توقيت شمسي قمـــري معـاً وهـو التـوقيت العـبر ي ، ويستخـدمـه اليهـود من أجـل تعيـين الأيام الدينية اليهودية . والأشهر اليهودية هي إما /٢٩/ يوما وإما /٣٠/ ولكن السنة يمكن أن تضم إما إثنى عشر شهراً وإما ثلاثة عشر . ولذلك فالسنة تكون إما من ٣٥٥ أو ٣٥٤ أو ٣٥٥ يوماً ، ولكن في السنوات الأطول ذات الثلاثة عشر شهراً تكون أيامها ٣٨٣ أو ٣٨٤ أو ٣٨٥ . ولهذا التعاقب نظام معين يتم كل /١٩/ سنة ، إذ في كل /١٩/ سنة يأتي رأس السنة العبر ية مع رأس السنة الشمسية ، ولذلك فالأعياد اليهودية كالفصح والغفران تأتي مثل

الأعياد الاسلامية في أيام مختلفة سنة بعد سنة بالنسبة للتوقيت الميلادي .

التوقيت القمري الصرف

أمـا التـوقيت القمـري الصرف وهو الهجري الاسلامي فالأشهر فيه هي إما /٢٩/ يوما وإما /٣٠/ والسنة /٣٥٤/ أو/٣٥٥/ يوما ، ولذلك فيأتي رأس السنة الهجرية في كل سنة مختلفاً عن السنة الأخرى إذا حسبنـاه بالتـوقيت الميلادي . ورمضان والأعياد تأتي دائرة على كل فصول السنة من ربيع وصيف وشتاء وخريف .

التوقيت السوري

إن سوريـا تعتمـد التـوقيتـين الهجـري والميلادي بقانون أوجب التأريـخ بهما معـاً ويبـدأ بالهجـري . ولكن للحقيقـة والـواقع أقول ان التـوقيت الهجـري صار شبـه مهجـور في الحيـاة اليومية إلا عندما يتعلق الأمر برمضان من أجل الصوم وبالأعياد . وعندنا نمشي على القاعدة التي تقـول : صومـوا لرؤ يتـه وافطروا لرؤ يته ، فرؤ ية القمر بالعين هي المعتمدة وقد سبق بحث ذلك عند الحديث عن رمضان .

ولكن هنـاك توقيتـاً آخـر في القـانـون هو انه كلما ورد النص على توقيت مدته شهر في أي نص قانوني اعتبر الشهر ثلاثين يوماً ، وكلما ورد النص على سنـة اعتـبرت من اليوم إلى نهاية اليوم الذي قبله من العام

المقبــل في التـاريـخ الميـلادي ، وعلى ذلـك يتم حسـاب مدد الحبس والتقادم وغير ذلك ممايتعلق بالمهل والمواعيد .

تقاويم أخرى

وللطرافة وبالمناسبة فان التقاويم المستخدمة في العالم الآن عديدة منهــا الصيني والهنـــدي والفـارسي والكمبـودي والـلاوسي والكـوري والأنـدونيسي والأرمني والمـالغاشي عدا عن القبطي واليهودي والميلادي والهجـري ، وربـما كانت هنـاك تقـاويم أخـرى أقل أهمية . كما كانت الثـورة الفـرنسيـة أحـدثت تقـويـماً جديـداً وقسمت الأشهـر بالتساوي وأطلقت عليهــا اسـماء جديـدة ، ثم أهملت . والـروس بعـد الثـورة البلشفية حاولوا تغيير الأسبوع إلى خمسة أيام ثم عدلوا عن ذلك .

الساعة (العربية)

إذن فقـد كان النـاس في العشرينات ووعيت ذلك بوضوح ، كما قلت يقيسـون النهـار بالسـاعـة العـربيـة ، وأسـاسها أن المغرب يكون السـاعـة /١٢/ تمامـاً . ومن بعده تبدأ ساعات الليل من الواحدة إلى الثـانيـة وهكـذا . وكـان من مألوف الحديث أن يقول الناس إننا سهرنا البـارحـة إلى السـاعـة/٦/ أي نصف الليل تقريباً ، وفي النهار تحسب السـاعـات كذلـك فالسـاعـة الـواحدة تكون حوالي الصباح وهكذا . والمسالـة اعتبـارية إذ أن التوقيت الزوالي يقوم على افتراض ان منتصف

الليـل هو ساعـة الصفـر وربـما كان التـوقيت العربي أصح لأن الساعة /١٢/ زواليــة تأتي في أوقــات مختلفــة ، فهي في الشتــاء تأتي بعـد الغيـاب بأكثـر من سبـع ساعات ونصف وفي الصيف تأتي بعد الغياب بأقل من خمس ساعات .

إذن كان النـاس يوقتـون بالمغـرب ويعتـبر ونـه الساعة /١٢/ أو الساعة صفر ، ولكن الطريف أن غياب الشمس لا يأتي في موعد محدد بل يتقدم ويتأخر بالنسبة للساعة الزوالية ففي أول الشتاء يأتي الغياب في السـاعـة /٤,٢٥/ زواليـة وفي أو الصيف يأتي الغيـاب في السـاعة ٧,١٠ زواليـة . وفي كل يوم من أيـام الشتـاء والـربيـع يتأخـر الغياب بمقدار دقيقة تقريباً إذ الفرق بين أقصر نهار (أول الشتاء) وأطول نهار (أول الـصـيف) هو /١٦٥/ دقيقــة توزع على أيـــام الفصلين وهي /١٨٢/ يومـا . وقـد أخـذت أحد التقاويم فوجدت الغياب يتدرج في أحد عشر يوماً كما يلي :

بالنسبة للساعة الزوالية : ٦,٤٨ - ٦,٤٩ - ٦,٤٩ - ٦,٥٠ - ٦,٥٠ - ٦,٥١ - ٦,٥٢ - ٦,٥٣ - ٦,٥٣ - ٦,٥٤ .

ولـذلـك فعنـدما كان يرفع المؤذن عقيرته بالاذان ينظر الناس في ساعاتهم ويضبطونها وكنا نشهد ذلك .

يوم واحد في تقاويم مختلفة

أخـذت من التقـويم العربي الهاشمي ورقة هي ورقة يوم الأحد /٢١/ شوال ١٤٠٣ هجرية الموافق ٣١ تموز ١٩٨٣ ميلادية . في هذه

الورقة أيضاً أن النهار نفسه هو ١٨ تموز شرقي (وكما سبق الذكر الفرق ١٣ يوما عن تموز الغربي) وهو أيضاً /٢٣/ آب من سنة ٥٧٤٣ العبرية . أما المواقيت فيه فهي كما يلي :

	فجر	شمس	ظهر	عصر	مغرب	عشاء
الساعة العربية :	٨,٢١	١٠,٤	٥,٢	٨,٤٣	١٢	١,٢٧
الساعة الزوالية :	٣,٤	٤,٤٧	١١,٤٥	٣,٢٧	٦,٤٣	٨,١٠

وأظن أن المقارنة تكفي لاعطاء الصورة الواضحة عن تعدد المواقيت ، ونحن نستعمل منها الثلاثة ، كما أن التوقيت العبري لعيد الفصح هو الذي يحدد تاريخ عيد الفصح لدى الطوائف المسيحية الشرقية اذ تستند الى الفصح اليهودي لتعيين يوم الاحتفال بالفصح المسيحي .

ثم عدل الناس منذ الثلاثينات عن استخدام التوقيت العربي والساعة العربية نهائياً والجيل الجديد لا يعرف عنها شيئاً كما لمست من الاحاديث .

الساعات المستعملة

قلت ان الناس كانوا في العشرينات يحملون الساعات المسماة بساعات الجيب التي لها سلسلة تحملها تسمى (كستك) ، وكان من علامات التأنق أن يضع الانسان الساعة في جيب صدريته الأيسر ويمد كستكها راسما نصف قوس انحناؤه إلى الأسفل حتى يصل إلى الجيب

الأيمن وقـد عادت موضـة ساعـات الجيب الآن ككل شيء صار عتيقاً فصارت له قيمة ، إلا بني آدم فما كلهم إذا كبروا تزداد قيمتهم .

أما الساعات التي تحمل في اليد فبدأت فيها أذكر في الثلاثينات ، وكانت أول ساعة حملتها ساعة يد اشتراها لي عمي مكافأة على قصيدة شعر كتبتها وأنا أبن ثلاث عشرة في عيد ميلاد ابنه ، وكان ثمنها نصف ليرة عثـمانيـة ومـا أزال اذكـرهـا إلى الآن، ولاسيـما أنني بذلـك بدأت سيرة (التكسب بالشعر) وحديثها ورد سابقاً وسيأتي مفصلاً .

الساعات الانتيكة

وبهذه المناسبة فمن الفكاهات التي تتصل بالساعات أن أحدهم دخـل على ساعـاتي فقـال له أرجـو أن تختـار لي ساعـة انتيكـة على ذوقـك. قال السـاعـاتي عندي واحدة على كيفك ولكن يجب أن تتعود عليها . سأله كيف ؟ قال الساعاتي : إذا فرضنا أن عقرب الساعات كان على الـرقم /١/ وعقـرب الـدقـائق على الرقـم /٢/ ودقت ثلاث دقات تكون الساعة /٥/ ونصف ! . .

أي تحتاج إلى جدول لوغاريتما . . . .

السنة الشرقية

ولكن أطـرف وأظـرف ما في المـوضـوع أن السنـة الشرقية ـ وهي السنـة الشمسيـة على التـوقيت القـديم الـذي كان مستعمـلاً أيضاً في روسيـا واليـونـان أقـرب إلى الصحـة فيـما يتعلق بالطقس وتقلباته ومن

المشهور عندنا أن الشتاء ينقسم إلى قسمين المربعانية وهي أربعون يوماً والخمسينيـة وهي خمسـون . فالمـربعـانيـة تبدأ من أول فصل الشتاء في /٢١/ كانون الأول وتنتهي في نهاية كانون الثاني .

ومن المعـروف أن بردهـا يكون قاسياً ، وفي الأمثال : بين كانون وكانون عند صاحبك لا تكون (أي لا تذهب حتى إلى بيت صديقك من البرد) . ولكن هذا ينطبق لا على التقويم الميلادي الحالي بل على الشرقي الذي يتأخر عنه ثلاثة عشر يوماً تقريباً .

أمـا الخمسينيـة فتعلن عن نفسها برياح باردة في الخارج ، ولكن مع ذلـك يكـون الجـو أطـرى ، ومن الأمثـال الشائعة أنه في الخمسينية تكـون (الـدروة أحسن من فروة) أي يكـون البرد في الأماكن المحمية أقـل من الـبرد في الخـارج . وتبـدأ الخمسينية مع أول شباط ، ولذلك يقول المثل (شباط بشبط وبيلبط وروايح الصيف فيه) تفاؤ لا بأن البرد سيخف وهي حقيقة تبدأ بالظهور بالتدريج .

والخمسينيـة تنقسم إلى أربعـة (سعـود) كل منهـا اثنا عشر يوما ونصف . الأول (سعـد الدابح) ويكون البرد فيه أقسى ولذلك يقول المثل (سعد الدابح ما بيخلي على الباب كلب نابح) . وبعده (سعد بلع) ويقول المثل عنه ان السماء تمطر والأرض تبلع . ثم يأتي السعد الثالث وهـو (سعـد السعـود) حيث يقـول الناس : تدب المي (أي الماء) في العود (أي في جذوع النبات) ويدفأ كل مبر ود . أما السعد الرابع فهو (سعـد الخبـايـا) الـذي تتفتل فيه الصبايا . وأفضل فيه المعنى الظاهر على معنى آخـر هو أن الصبـايـا تعني سائـر المخلوقـات الصغيرة التي تستيقظ مع الربيع من حشرات وهوام وغيرها . . .

ثم بين آخر سعد بلع وأول سعد السعود أي آخر شباط وأول آذار ، سبعة أيام تسمى المستقرضات ، فثلاثة من شباط وأربعة من آذار وتكون باردة جداً . وفي الأمثال الشامية الشائعة أن (آذار يقول لشباط : ثلاثة منك وأربعة مني نخلي دولاب العجوز يغني) ويعني أنها تنشط للغزل . ولكن شباط يجيبه : (يا أبن عمي ٤ منك و٣ مني نخلي العجوز تشعل دولاباً) أي تحرقه من شدة البرد لتتدفأ وهذا غاية التضحية (وتشـ... ورا بابا) وأظن المعنى وضح لعجزها عن الخروج حتى لحاجة ضرورية من شدة البرد . وفي الأمثال أيضاً : (هوا الخمسان بيشقق القمصان) .

ومن الأمثلة الطقسية أيضاً قول الناس (خبي فحماتك الكبار لعمك آذار)،وحديثهم عن (عقارب نيسان) إشارة إلى أيام باردة جداً تأتي فيه ولاسيما أن الناس يكونون اطمأنوا إلى الدفء فيخففون الثياب ويوقفون المدافىء واشعال النار فيفاجئهم البرد مرة أخرى . وكذلك قول الناس (بيضل - أي يبقى - البرد قايم ما دام النصراني صايم) والنصارى يفطرون من صيامهم الكبير في عيد الفصح في الأحد الأول من نيسان .

ومن ذلك أيضاً أن الدمشقيين كانوا لا يثبتون الضمان للفواكه إلا إذا مر عيد الخضر لاحتمال أن يأتي البرد فيصيب الصقيع الفواكه . وأذكر مرة أن الحرارة نزلت إلى ما تحت الصفر بعدة درجات في أول أيار والأيام التالية له، وكان من جراء ذلك ان اقيمت دعاوٍ كثيرة حول ضمان الفواكه وتعهدات المتعهدين بتقديمها للحكومة وهل يعتبر هذا ظرفاً طارئاً غير مرتقب أم لا .

ومن الملاحظات الطقسية أيضاً قولهم عن تموز أنه تغلي فيه الميه (أي الماء) في الكوز والظاهر أن دمي أيضاً فار في كوزي فتزوجت في /٢٩/ تموز . . .

أما آب ، فيسمى في عرف الدمشقيين (آب اللهاب) إلا أنه متى انتصف قال الدمشقيون : إذا انتصف آب الصيف عاب ، وفعلاً تبدأ الطراوة في الجو .

وعن الخريف تقول الأمثال الطقسية ان ايلول ذنبه مبلول ، أي لا بد أن يأتي المطر في آخره وقد تأكد لي أن قول الناس صحيح حين يقولون : بين تشرين وتشرين (صيفن ثاني) أي صيف جديد لأن الحرارة تشتد وتعلو من جديد بعد أن يكون البرد بدأ .

وآخر ما أذكره عن الطقس والأمثال المتعلقة به أن عيد الصليب في أواخر أيلول (٢٧ منه) يكون اشعاراً ببدء التموين ، لاكتمال موسم الخصب والجني ، وأغلب الفلاحين يخطبون ويجهزون في أيلول ويتزوجون على عيد الصليب ، حيث (يكنّ) العروسان إلى جانب (الكانون) ويدفع البرد الناس إلى مزيد من الاقتراب . . .

مناخ دمشق

ثم لا أجد الحديث يكتمل إلا إذا تحدثت عن مناخ دمشق العام . أن دمشق تقوم على أطراف الصحراء بين جبال جرداء ، من الشرق مفتوحة أمام رياح البادية ومن الغرب يمنع عنها قاسيون بلل البحر وهواءه الندي ، فهي إذن تقوم في طبيعة قاسية صحراوية قارية ،

أي حارة في النهار صيفاً وباردة في الليل . . . ولكن بردى وغوطتها لطفاً من ذلـك كثـيراً ، ثم جئنـا نحن المتأخرين بحضارتنا نقتل بردى ، ثم نُسيّر في شوارع دمشق ومحيطها عشرات ألوف السيارات التي تحوص بلا انقطاع لأنها لا تجد مكاناً للوقوف فتنفق المزيد من البنزين ، وأهم شيء في هذا اننـا نضـع في دمشق في عز الصيف عشـرات ألـوف المـدافىء والشـوديـيرات التي ترفع حرارة الجو درجات كثيرة حتى أصبحت الحياة فيهـا لا تطـاق، وحتى صارت نسبـة التلّوث فيهـا خطـيرة وتجـاوز الخط الأحمر المقبول في المدن .

معدل أمطارها السنوي لا يزيد على /٢١٥/ مليمترا . ربيعها وخـريفهـا قصيران فنكاد ننتقل مباشرة ومن الناحية الطقسية من الشتاء إلى الصيف ومن الصيف إلى الشتاء . تصل درجات الحرارة فيها صيفاً إلى ٤٠ في بعض الأحيان ، وفي الظل طبعاً ، وهبطت الحرارة فيها إلى ما دون ست درجات تحت الصفر في إحدى السنوات .

والفـرق الحـراري واسـع بين أقصى الحـرارة وأقصى الـبرودة، وهـذا ما يتصف به المناخ الوسيط بين الصحراوي القاري والمناخ المتوسطي مع أيام صقيع قد تصل إلى عشرين في بعض السنين . ومناطق الصالحية والمهاجرين والمزة أقل حرارة من سواها وأحسن للسكن .

ولمـا كانت الشمس تشـرق في دمشق معظم أيـام السنة ، ويقول الـدكتـور صفـوح خير ان الشمس تسطـع في دمشق ٣٥٠٠ ساعـة في السنـة أي ما يعـادل ٦,٩ ساعـات في كل يوم ، ولـذلـك فان الفرصة مهيئـة فيهـا لاستغـلال الطاقة الشمسية كوقود ، وقد بدأ ذلك أخيراً ، ولعله يخفف إذا اتسع من نشرة الحرارة عن طريق الاحتراق .

الأوزان والمكاييل والمقاييس

١ ـ الأوزان

وكانت الأوزان والمكاييل والمقاييس والعملات في العشرينات غيرها اليوم . فلما ترك الأتراك بلدنا واستقلت سورية ظلت الأوزان هي الرطل ويعادل اثنتي عشرة أوقية ، والرطل الشامي ثمانمئة درهم ، فتكون الأوقية ٦٧ درهماً تقريباً ، أما الرطل الحلبي ومثله الحمصي والحموي وسواه فهو ألف درهم .

ثم هناك القنطار وهو مئة رطل دمشقي ، وبالمقايسة مع الكيلوغرامات فان الرطل الدمشقي يعادل /٢٥٠٠/ غرام أي كيلوين ونصف ، وصارت الأوقية /٢٠٠/ غرام ، والدرهم يعادل ثلاثة غرامات تقريباً .

وقد ظل الرطل ونصف الرطل على فم الناس عند الشراء مدة طويلة حتى بعد ادخال النظام العشري أي نظام الكيلوغرامات ، ولكن الكيلوغرام حل محله نهائياً الآن ولم تبق منه إلا الذكرى والتسمية . ومما يذكر أن التحول من الرطل إلى الكيلوغرام لقي معارضة عامة ومظاهرات في بعض الأحيان إذ اعتبر كأنه مسس بالتقاليد الوطنية .

٢ ـ المكاييل

والمكاييل في بلادنا ، في العشرينات وما بعدها كانت للحبوب . أولها المد ويعادل عشرين كيلوغرام حنطة ، ونصف المد ويسميه الناس صاعا ، ثم ربع المد والثمنية أي ثمن المد وفي دمشق يحرفون لفظها فيقولون تبنية حتى اني في صغري كنت أظن اسمها جاء من التبن لا من الثمن .

ولم يكن هناك مقياس خاص للسوائل لانها تباع بالوزن ، وهذا أفضل لاختلاف الوزن النوعي فيها . اما الان فصار الليتر معروفاً .

٣ ـ الأطوال

وأما الأطوال فكان مقياس الطول المعروف هو الذراع ، ويعادل سبعين سنتمتراً . والناس تضيف إليه ـ ولكن دون تحديد وعلى سبيل التقريب ـ مقاييس اصطلاحية مختلفة مثل كبسة الابهام والاصبعين والثلاث أصابع أو الأربع ، والكف ، والفتر والشبر ، وليس هذا غريباً فالانكليز حتى اليوم يستخدمون البوصة وهي تعني الابهام أي ما يعادل كبسة الابهام (٢,٥ سنتمتر) والقدم وهي تعادل /٣٣/ سنتمتراً ، والظاهر أن قدم الانكليزي فحلة ! . .

المساحات

وبالنسبة للمساحات كانت المساحة الصغرى الرائجة في العقارات هي القصبة وهي سبعة أذرع في سبعة ، أي /٤٩/ ذراعاً

مربعاً وتعادل اليوم أربعة وعشرين متراً مربعاً إلا ربع المتر .

أما المساحات الكبرى فتقاس ببذار المد وبالفدان . ففي الأرض السليخ التي لا تنتج كثيراً كانت المساحة تقريبية وإذا سألت فلاحاً ماهو الفدان يقول لك بذار (مد) من القمح أما في الأراضي الغالية كأرض الغوطة فالفدان الروماني المستعمل هو / ٢٤٠ / قصبة أي ٥٧٠٠ متراً مربعاً ويعادل ست دونمات ، والدونم ٩٥٠ متراً مربعاً تقريباً إلا أن الناس الآن صاروا يعتبرون الدونم ألف متر ولكن يكتبون ذلك حتى يتأكد المفهوم فيقولون اشترينا كذا دونم أرض باعتبار الدونم ألف متر مربع .

العملات

تسمى الدراهم في دمشق (المصاري) وذلك منذ مئات سنين ومن أيام الحكم المصري بدليل انها وردت أساساً للتسعير في كتاب البديري الحلاق . وفي العشرينات ترك الأتراك لنا الليرة (١) العثمانية الذهب التي اشتهرت في لغة العامة بالعصملية أي (العثمانية) مع تحريف في اللفظ . وأذكر ان قيمتها كانت حتى ١٩٣٦ خمس ليرات سورية ونصف وهي اليوم تزيد على ٥٥٠ ليرة ، فبهذا التقدير يكون هبوط قيمة العملة الورقية السورية بالنسبة للذهب قد بلغ تماماً مئة

---

(١) ـ الليرة مترجمة عن الفرنسية (LIVRE) كانت مستعملة في فرنسا واستبدل بها الفرنك كما هي مستعملة في انكلترا ومصر وتركيا وسورية .

ضعف في أقل من خمسين عاماً وهو مثل هبوط الفرنك فبعد الحرب العالمية الثانية ابتكروا الفرنك الثقيل وهو ما يعادل مئة فرنك قديم ثم هبطت قيمة الفرنك بعد ذلك مرات . وكانت الليرة الذهبية العثمانية ولا تزال أقل وزناً وثمناً من الليرة الانكليزية الذهب وكذلك فالليرة العثمانية التجارية أقل ثمناً من الليرة الرشادية أي التي صكت أيام السلطان رشاد.

وتركوا لنا العملة الفضية وهي الريال المجيدي ولكن اسمه الشائع هو المجيدي فقط ، نسبة للسلطان عبد المجيد فيما اعتقد . واجزاؤه هي نصف المجيدي وربع المجيدي ثم ابو المية وابو الخمسين وكان الأول يسمى البرغوت الكبير والثاني البرغوت الصغير . ولما كان الريال المجيدي خمسة وعشرين قرشاً (جاءت كلمة قرش من كلمة GROSHEN غروش وهو واحد من مئة من الشلن النمساوي ، وكانت العملة النمسوية من العملات المتداولة أيام الأتراك) وكانت عملتنا السورية تستعمل كلمة (غرش) تبعاً لذلك مكتوبة بالغين لانها تلفظ كالجيم المصرية ثم صارت تكتب بالقاف (قرش) وكان القرش أربعين بارة ، فان نصف المجيدي يعادل ١٢,٥ قرشا أو ٥٠٠ بارة .

وأبو المية مئة بارة وأبو الخمسين خمسون بارة . وكانت هناك قطعة عملة بخمسة قروش أي ما يعادل أبو الميتين وتسمى بيشلي ولم ألحقها أنها لأنها كانت سحبت من التداول منذ نهاية عهد الأتراك .

والظاهر أن الفرنسيين لما دخلوا سورية بعد اعلان استقلالها بوقت قصير كانت العملات الموجودة بين أيدي الناس هي الذهبية والفضية المشار إليها ، فلم يسحبوها وإنما أوجدوا إلى جانبها الليرة

السـوريـة وتعـادل عشـرين فرنكـاً أومئـة قرش ، والفـرنـك خمسه قروش ونصف القرش يسمى (نكلة) لأنه مصنوع من قطعة من النيكل المثقوب .

وظلت العملتان معاً وتتعادلان وتتقلب اسعارهما حتى سحبت العملة الفضية من التداول في أول الثلاثينات ، فلم تعد لها قيمة ابرائية شرائيـة ولكن ظلت لها قيمتهـا كمعـدن فضي وهي أغلى من قيمتهـا الأصليـة ، وظلت الليرة الـذهبيـة العثـمانيـة هي الأسـاس في التعـامـل في العقـارات والتجـارة الكبـيرة حتى صدرت قرارات ابتـداء من النصف الثـاني من الثـلاثينـات بمنـع التعـامـل بالـذهب واعتبـار العقـود المحـررة بالـذهب باطلة ، فعـادت العملة الـذهبية إلى قيمتها كمعدن وتراجع استعمالها كنقد حتى زال تماماً .

القيم الشرائية

وحتـى أعطيكـم فكـرة عن الأسعـار أقـول أنني في عام ١٩٣١/ حين بدأت أنـزل إلى مكتب عنبر وآخـذ مصروفي واشتري بنفسي واعرف قيمـة العمـلات ، كان والـدي يعطيني فرنكا كل يوم . وكان الرغيفان المـرقـدان بقـرش واحـد ، أي كيلو الخبز بنصف فرنك . وأوقية اللحم بثـلاثـة قروش والمشـويـة بأربعـة . وكنا نشتري مجلة الرسالة او الرواية بنحـو فرنـك واحـد ، ونـركب الـترام بقرش وفي الـدرجـة الأولى بقـرشـين . أي أننـا بفـرنـك واحـد كنا نتغدى ونتحلى ونركب الترام ويزيد معنا . ومرة وكنا عشرة طلاب نريد ان نودع صديقاً لنا دفع كل منا نصف ليرة

(عام ١٩٣٥ أو ١٩٣٦) فأكلنا صفيحة ونمورة وبطيخاً وزاد من الطعام كثير .

فاذا اعتبرنا اللحم قياساً فان كيلو اللحم كان بعشرين قرشاً في أول الثلاثينات فقد صار بخمسين ليرة في الثمانينات (١) ، أي ارتفع سعره ٢٥٠ ضعفاً . ولو كان البديري حياً ووصف الحال لقال ان العباد ضجت من ارتفاع الأسعار والعياذ بالله ، وربنا يجيرنا مما هو أعظم .

وسائل النقل في العشرينات

كانت السيارات منتشرة في العشرينات كوسيلة نقل بين المدن ، وقد سافرنا بها من دمشق إلى دير الزور عام ١٩٢٥ ، بينما القطار يشاركها في النقل بين دمشق وبيروت . وأول السيارات التي عرفناها كانت من النوع المسمى (أبو دعسة) وهي سيارات قوية صار لها قيمة الآن كتاريخ وتوضع في المتاحف ، ومن دلائل قوتها أنها كانت تنقل المسافرين إلى بغداد عن طريق الصحراء .

وشركة (نيرن) ثم بعض الشركات المحلية من سورية وعراقية (أذكر منها انكرلي ؟!) كانت تخدم الطريق إلى العراق (وواحدة من سيارات نرن شهدتها تدعس قريباً لي كما سبق حديث ذلك فتعقدت

---

(١) ـ محمد كرد علي كتب في الجزء الثاني من مذكراته من عام ١٩٣١ أن ثمن الخروف الذي حال عليه الحول كان يسوي في قضاء القامشلي (١٥٠) قرشاً وفي عين ديوار ليرة سورية واحدة فقط .

منهـا ومن المـوت) . ولكن الحـج لم يكن يتم إلا عن طريق البحـر لأن السيـارات كانت لا تستطيـع السـير في الصحـراء قبـل شق الطـرقـات مؤخـراً ويعتـبر السفـر فيهـا مغامرة . وفي طفولتي كان بعض الناس ما يزالون يحاولون الحج على الجمال وعلى الاقدام لأن الثواب على قدر المشقة .

أحمد شرف

وكـان قريبنـا أحمد شرف الملقب (بالدكتور) لأنه يلبس عوينات ولـه طول وجمـال وهيبـة أحد أقدم السائقين في هذا القطر الذين سافروا على جميـع الخطـوط الخـارجية وملكوا أولى السيارات وكان كلما عتقت سيـارة رمـاهـا في جنينة في بستان الكركة فصارت للأطفال يركبونها رغم الغبار ليجربوا خيالهم في هذه الفروسية الجديدة . أنا إذن مدين له بأول انفعالاتي كطفل وراء مقود سيارة حقيقية ولو (مهرمشة) . أما السائق الثـاني الـذي لا أنسـاه فهـو جار آخـر لنـا اسمه حنين غانم وكان يعامل السيـارة كمعشـوقـة يحبهـا ولم يكن أجمـل من سيارته ولا أنظف ولا أكثر عناية بها بين كل السائقين .

التاكسيات

وكـان في دمشق نحـو عشـرين سيـارة تاكسي يركبهـا الأكـابر ، وأحياناً يأخذها أحدهم (سكارسه) أي منفرداً إلى بير وت ليسهر هناك أو يكمـل السهـرة . وكنا نعرف سائقيها باسمائهم ووجوههم وظل الأمر

كذلــك حتى أواخـر الاربعينـات ، وفي مطلع الخمسينـات بدأ العـدد يتزايد ، أما الآن فسترك يا ساتر من عدد السيارات المخيف في دمشق .

عربات الخيل

وكـانت عربـات الخيل وسيلة النقل الأكثر رواجاً داخل المدينة ، وهـذه العـربات يجرها زوج خيل ، والعربجي يقعد على مقعده العالي ووراءه الـركـاب على المقعـد الصدراني الكبير والمقعد الخلفي الصغير المـقــابــل له ، وإذا كان عددهـم كبــيراً ركـب أحــدهم إلى جانب العربجي . وكان الأولاد الصغار مولعين بالتعلق وراء العربات ، ولكن الأولاد الآخـرين ينبهـون العربجي بقولهم (ريورو) فـ «يلطّ» أي يضرب الولد المتعلق من الخلف بالكرباج الطويل الذي يحمله، وليس منا من لم يأكلها في صغره.

أمـا الـترام فقد سبق حديثه وكان أحسن شيء في دمشق كوسيلة نقـل شعبيـة ورخيصـة ونظيفـة لا تلوث الجو ، وأكرر هنا الأسف العام على ذهابها . . .

السيارات الخاصة

ولابد هنا من أن يسأل ابن الجيل الحالي ، ألم تكن هناك سيارات خاصة ؟ والجواب كانت توجد بعضها كما توجد بعض العربات الخاصة وبعضه بحصان واحد ، ولكن هذه وتلك كانت قليلة جداً جداً حتى لا يكــاد يشعــر أحــد بأنهــا موجــودة ، وهي مقصــورة على الأغنيــاء والــوجهــاء

ومن علامـات الثـراء والاقبـال على المسـرات معـاً . لأن التجار الذين كانـوا يدركـون قيمـة القـرش كانـوا لا ينفقـون أمـوالهم على مثل هذه الكماليات بل يمشون ويركبون الترام كالآخرين ونادراً ما ملك أحدهم سيارة .

أما الآن . . فنادراً بين التجار من لا يملك سيارة، وكذلك كثر السائقون الفتيـان الـذين يجربـون الانفعالات من خلال السرعة الهائلة ويشكلون خطراً على انفسهم وعلى سائر الناس .

الطب العربي

لا ريب في أن دمشق كعـاصمـة عرفت أطباء كثيرين ممن تخرجوا من كليات الطب في استانبول ولبنان ومن كلية الطب في دمشق ، ولكن الطب العـربي كان حتى الثـلاثينـات هو السـائـد ، ولا تزال آثار ذلـك حتى اليوم . وليس غريباً فالحكمة الشعبية (والحكمة هنا بمعنييها أي العقل والطب) نشأت عن تجارب آلاف السنين .

في عام ١٩٥٠ اضطـررت من أجـل الـعـيش إلـى ترجمـة كتـب إلـى العربية لصالح احدى دور النشر في لبنان وكان بينها كتاب للعالم الروسي بوغـو مولتـز صاحب المصـل الشهـير المعـروف بمصل اعادة الشباب . وحتى لا أترك الأمر في نطاق الخرافة أقول أن مصل بوغو مولتز ماهو إلا مصـل دم الحصـان فقط لا غير ، ويعطى للانسان بالوريد فيحدث في الجسم صدمة منشطة للخلايا حين يأتيها جسم غريب ولكن نقي وغير جرثومي ، فيتنشط الجسم كله من جديد . هذا هو المبدأ بكل بساطة .

ولكن بوغـو مولتـز علمني في فصـل من كتـابـه (الـذي ترجمتـه بعنـوان عش ١٥٠ عاماً) قيمة الطب الشعبي او الحكمة العربية . قال ان الانسان مثـل الشجـرة ، ولـذلك فيجب حتى لا يمرض أن يدفىء رجليه ويبرد رأسـه فإذا أصـاب الـواحـد برد فأحسن دواء له هو تغطيسة ماء ساخن لقـدميه . وكانت هذه الوصفة مصداق الطب الشعبي الدمشقي الذي يعتمد التغطيسة .

وأبرز ملامح الطب الشعبي أنه في أمراض الهضم يعتمد الحمية ويعتمد المسهلات الطبيعية لا الكيماوية ومنها زيت الخروع .

حكاية باسمة

وعـلى ذكـر زيـت الخـروع يروى أن سيـدة مودرن من نوع (السنـوب) التي ينـط من القفـة إلى آذانهـا أخـذت طفلهـا إلى طبيب، ففحصـه وقـال لها بسيطـة يا مدام . معه إمساك ، وتعطينه ملعقة زيت خروع . شهقت الست استغـرابـاً وقـالت له : حكيم ، ألا ترى أن الخـروع (كتـير ديمـوديـه) أي تجاوزه الزمان والموضة ؟ أجابها الحكيم ساخراً : وهل تحسبين يا مدام أن الاطفال والامساك شيء (كثير مودرن ؟) .

الجراح الكحال

وصـديقي القـديم الدائم الشامي الظريف الباسم دائماً الدكتور مصطفى نشأت الجـراح الكحـال كان ابن صفي في التجهيـز ، وكـان

اسمه مصطفى الجراح ، ثم كبر ودخل الطب فاختار من اسمه الطويل نشأة الكحال ، فهل من يعرف أن هذا هو ذاك ؟

أما لماذا كان اسمه الجراح والكحال فلأن اسرته كان تتعاطى هذا النوع من الطب العربي فالجراح يفتح الجروح ويضمدها ويجري العمليات البسيطة ويخرج الشعرة والزجاج من العين ويداوي العيون بنجاح . ولذلك نشأ (نشأة) جراحية كحالية وصار طبيباً موفقاً إنما في التوليد والنسائيات ، وقديماً قيل (ودليل على اللبيب اختياره) !

وقد روى لي حكاية مخيفة ومضحكة في الوقت نفسه . فقد كان الناس إذا اضطروا للشرب خارج المدينة من الغدران أو برك تجميع المياه وذلك في البر ية والقرى وقبل أن ينعم الله علينا بماء شرب أفضل ، ربما شرب أحدهم دون أن يحس ماء فيه علقات صغيرة لا ترى . والعلقة إذا علقت بحنجرة الانسان أو بلعومه بدأت تمص دمه وبدأ ينزف من فمه وإذا استمر الحال ربما قتلته خنقاً ، وما من سبيل إلى اخراجها في ذلك الوقت . وجاء واحد معه علقة متضخمة من كثرة ما شربت من دمه وعالقة ببلعومه حيث لا تطولها الملاقط ، وكان نشأة حاضراً . فقال له عمه الذي تولى القضية انظر ما سأفعل الآن . جاء بماء أركيلة مشبع بطعم التبغ فأعطاه للرجل المصاب وقال له تغرغر به ففعل . فلما وصل الماء إلى العلقة خرجت كبيرة سمينة بفعل السعال الحاد الذي قذفها وبفعل طعم ماء التبغ الذي أرهقها . وقال لي الدكتور نشأة أنه بعد ذلك استفاد من هذه التجربة حين عرضت حالة مماثلة تماماً اثناء وجوده في منطقة نائية من الجزيرة والسؤ ال الآن هو : هل توجد مثل هذه الوصفة في كل حوليات الطب وكتبه ؟

حلاق وقالع أضراس

وكـان من المعـروف ان مثل هذه الأمور يقوم بها الحلاق الذي هو في الـوقت نفسـه كحـال وجـراح وطبيب اسنـان ، ومن ذلـك المثـل (نكـون عم نحلق نصـير نقلع الأضـراس) . وكانت أساليب هؤلاء الحلاقين بدائيـة ولكنهـا مكـرسـة بالتجـربـة ، وعند الحلافين القدامى كان يباع العلق الذي يوضع على الجسد في حالات الاحتقان فيمص الدم حتى يرتـوى ويقـع ويكـون له أثـر الفصـاد والحجـامة في الشفاء من الضغط المـرتفـع ، كما كان الحلاقون يقومون أيضاً بالفصاد والحجامه أي بنضح الدم الزائد عن طريق المشارط ، ويقومون بالمداواة عن طريق كاسات الهواء .

كاسات الهوا

وهـــذه الأخيرة تفيـد في حالات الالتهـاب الـرئـوي ، فيؤتى بكؤوس مثـل كؤوس الشـاي ، وتحرق ورقة فتوضع في الكأس ويطب على ظهـر المـريض ، فالهـواء الـذي يحترق يقـل فيـسحب الجلد وما تحته إلى ما ضمن الكأس (أي يشفطه) ، ويظل كذلك حتى يبرد الكأس فيسقــط من نفســه على فراش المـــريض ، وتعـاد العمليـة بعـدد من الكؤوس مرات عديدة ويكون من آثارها ازالة الاحتقان . وقد تداويت أنـا بكـاسـات الهـوا ولكن لم أتـداوَ بالعلق ولا بالحجامة ففي أيامنا كان الطب بدأ يخترع الأدويـــة الكيـــاوية . ومن صور الطب العـربي ان والـدتي كانت بارعـة في عمـل شراب اسمـه الهنـدي شعيري أذكر انه يغلى فيـه عدد من المـواد التي تشـترى من عنـد العطـار منها الحصلبان

وجـوزة الطيب وحبـة الـبركـة والهندي شعيري وما لست أذكر أيضاً ، ويـوضـع له سكـر كثـير ، فيـصـبـح شراباً ينـقـي الـدم ويضـد ما يعرض للجلد من طفح وسواه ، وكنا نشربه دائماً بالبيت . كما يستخدم النـاس كثـيراً من اللزقـات المعمـولـة من النشـاء ومن بزر الكتـان وبزر القطونة وغيرها وتفيد بالتأكيد في إزالة الاحتقانات والمعالجة الناجحة .

العطار طبيب

وكـان العطـارون وأشهـرهم في دمشق برو العطار ومحله في سوق الخيـل ودركـل ومحله قرب البـزورية أطباء بمعنى أنهم يصفون العقاقير اللازمة لكل حالة ، وعندهم مئات الأصناف من العطارة . وقد عرفت قيمتهـا منهم في السنـة المـاضية لما قرأت قصة الطب العربي وعرفت ان جماعـة كانت تسمى بالعشابين كانت تذهب فتجمع الأعشاب وتصفها وتصنفهـا وتعـرف خواصهـا وتجـربهـا ، وهي التي كانت لها أبـوة الدواء الحـديث ، ومن هؤلاء واحـد قرأت عنه ملياً اسمه (ابن البيطار) كان علّامة في فنه .

وعـرفت الآن لماذا بدأ في العـالم اتجـاه نحـو الأدويـة العشبيـة والطبيعيـة وعـدم الاعتماد على الأدوية الكيماوية ، وفي هذا عودة لطيفة موفقة عن مبالغات التداوي الكيماوي الى لطف (الحكمة) الشعبية .

المجبر والمطهر

ومن المظاهر التي تذكر عن تأثير الطب الشعبي الثقة التي ما يزال الناس يمنحونها لمجبر العظام الشعبي وللمطهر ، وكثير ون حتى الآن ، (حتى الآن !) يفضلون أن يذهبوا إلى المجبر على أن يذهبوا إلى جراح العظام .: وهذا خطأ ، ولكنه اعتقاد راسخ بين الناس ، وأنا أراه ضد الحضارة .

كما يسود الشيء نفسه في أمر المطهر إذ يرون أنه أشطر من الطبيب في ذلك بسبب المران.. وقد يكون ذلك صحيحاً في بعض الأحيان ولكنه ليس صحيحاً دائماً .

حكاية باسمة

ومن الحكايات الباسمة أن أحدهم دخل في حمص إلى دكان فيها ساعات كثيرة معلقة . قال لصاحب المحل : بكم هذه الساعة ؟ وأشار إلى واحدة منها ، فأجابه الرجل : ليست للبيع . قال الزبون وهذه ؟ : قال صاحب المحل : ولا هذه . قال فأيها للبيع ؟ أجاب ولا واحدة . أنا لست ساعاتياً ، أنا مطهر أولاد . قال له الرجل مستغرباً : فلماذا تعلق هذه الساعات ؟ أجاب المطهر الحمصي : ماذا تريد أن أعلق لك إذن ؟

الخرافات الشعبية

والناس من طبيعتهم الولع بالخرافة . حتى المتقدمون والمتحضرون لهم أساطيرهم وخرافاتهم التي يسمونها فولكلور ويسيغونها في المسرح أو في القصص الخيالية التي تعطى للأطفال . ولكن هناك فرقاً بين أن تقدم الخرافة كخيال ، وأن تقدمها كحقيقة مؤثرة على السلوك .

ومن تأثير الخرافة على الناس أن اصبح بعض الدجالين يتعيشون منها . نعرف كثيرين ممن سيطروا على عقول من حولهم حتى وصل الأمر بهم إلى أخذ أموالهم وأحياناً الى تطليق نسائهم أو أخذهن بلا طلاق ! . .

وأمام المشعوذ الذي يكحل عينيه ليكون أقوى تأثيراً ويطيل لحيته ويثقل حبات مسبحته ويكثر من البر برة وتغريب العيون والنطق بالمعميات وإحاطة نفسه بمن يؤكدون هذه الصفات ترى السذج والبسطاء مبهورين مسلوبي الارادة ، والنساء بوجه خاص ياتين طالبات (حجاباً) للمحبة ، أو لمداواة العقم والحمل إذا كانت المرأة عاقراً ، او لدفع الأبالسة والجن الذين يتلبسون الأنس ويدخلون فيهم على اعتبارهم (أخوة) لهم. رأيت الكثيرين من هؤلاء المشعوذين بعيني ، وكشفت دجلهم وأساليبهم ولكن الذين كانوا ضحايا لهم كانوا أكثر دفاعاً عنهم منهم عن أنفسهم . ومما يروي أن الحجاب يجب ألا يفتح حتى لا تحدث كارثة لمن يفتحه . وقد فتحت حجباً كثيرة فوجدت سخافات من حروف وطلاسم وكلمات بلا معنى . ومما يحكى أن واحدة

أخـذت حجـاباً ثم تحرك الفضول في نفسها ففتحته فرأت مكتوباً فيه ، وكـان اسمهـا عزيـزة : نحنا كتبنا ، من شان سببنا (أي لنعيش) وإن طابت عزيزة وإلا لدنبنا . . .

وقـد تكـون الحكـايـة تركيبـة ، ولكن الخـرافـات تركيبة أكبر . ومفـروض أن العلم يكـافحهـا ولكن وجـدنا أحيانا ان بعض المتعلمين جداً يؤمنون بهذه الخرافات والأباطيل . ورأيت محامياً يزعم أنه تقدمي وذكي يشتغل بتحضير الأرواح . . .

على كل حال أنـا هنـا راويـة لا منـاقش ولـو كنت أعطيت رأيي بشيء من الحــدة . ولكن أشــير إلى ان الخــرافــة في دمشق عاشت وعششت زمناً طويلاً ، وأنها كانت تطفو على السطح في العشرينات ، وأن أكثـر ما يدفـع إليهـا هو الخـوف والمـرض ، بقطـع النظر عن درجة التعلم ، لأن الجهـل هو الجهـل بحقـائق الحياة السليمة وليس بالقراءة والكتابة فقط .

ولكن الدجل تراجع أمام انكشاف كثير من قصصه ومنها قصة طه أبـو الـورد الذي فتك باعراض الكثيرات من النساء الساذجات وانتهى به الأمر إلى القلعة ، ولكنه لم يخلع فيها آلة الدجل وظل يحاول الاصطياد .

الخرافات الشعبية وحكمتها

ومـع ذلـك فبعض الخـرافـات الـشـعـبـيـة لطيـفـة ولهـا حكمتهـا ومـن الخـرافـات الـشـائـعـة أنـه لا يجب ترك المقص مفتـوحـاً حتى لا

(يتخـانق) أهـل البيت أي يمسك كل واحد بخناق الآخر في شجار ، وكـذلـك إذا تركت الشحـاطـة مقلوبـة فإن الشجـار يحمى في الـدار ، وكـذلـك إذا هز أحـدهـم برجله . ومثـل ذلـك أن يناول أحد الصابون لآخر من يد إلى يد فإنهما سيختلفان ، وكذلك أخيراً إذا أكل واحد من رغيف الآخر فيقول له : أخذت من خبزتي طلعت من نقمتي . وتفسير ذلـك أن المقص المفتـوح يمكن أن يجرح ، والشحـاطة المقلوبة منظرها بشـع ، وهـز الرجل يثير العصبية والصابون قد تقع منزلقة من اليد إلى الأرض، وانظف للرغيف أن يكـون بيـد واحـدة كيـما يعـرف الانسـان ما أكل ، فهذه الضرورات الذوقية جعلت في شكل ممنوعات خرافية .

ومن الخـرافـات الشعبيـة المتعلقـة بالأيام انه لا يجوز الغسيل يوم الاثنين ويوم الجمعة ويفضل يوم الأربعاء ، وأفسر ذلك بان يوم الجمعة للراحـة فالـغسـيـل يشـغـل المـرأة و(يكـركب) البيت وقيـل أن يوم الاثنـين وهو يوم مولد النبي يجب ألا يتم فيه عمل يفسد طبيعته كعيد ويقال أن من تغسل يوم الاثنين غسيلها لا ينقى وأصحابه ما تبقى .

ومن تقـاليـد الطعام عدم ترك بقاياه في الصحن وهذا من التدبير ولـذلـك كانوا يقولون ان الشيطان يلعق الصحن بعدنا فيجب ألا نترك له شيئـاً وقـد سبق ذكر ذلك . ويقولون أيضاً أن ترك الأواني بلا تنظيف سريع يفقر أهل البيت وأن الصحن يظل يصرخ حتى ينظفوه ، وتفسير ذلـك الحث على سرعـة التنظيف لاسيـما مع وجـود الذباب والحشرات وروائح بقايا الطعام . ومن تقاليد الطعام أخيراً ألا يأكلوا السمك واللبن .

أمـا اعطـاء الـفـقـير حسنـة فيكـون من الأشيـاء التي نحبهـا لا التي نكـرههـا عمـلاً بالقـول تصدقوا بما تحبون . وكان الناس قديما يشعلون

شمـــوعـــاً للأوليـاء ، وفي صغـري كنت أرى الشمـوع توقـد في سوق ساروجـة من نافـذة تطـل على ضريـح ولي اسمـه الشيخ عثمان ، وكنا نتـولـدن أحيـانـاً فنأخـذ بعض هذه الشموع لنلعب بها على اعتبار أننا والشيخ عثمان أصحاب (خوش بوش) أي خلطاء لا فرق بيننا كما يعني التعبير الشامي .

ومن الخـرافـات الشعبيـة انـه إذا ركبت فردة حذاء على أخـرى فأمـام صاحبهـا سفـر ، وإذا حكـه انفــه فسيبكي ، وإذا حكتــه كفـه اليمنى فسيقبض دراهم وإذا حكتـه اليسـرى فسيـدفـع ، وإذا حكـه حاجبـاه يسلم على مســافـر ، وإذا رفت عينـه اليمنى فسيسمع خبراً حسنا وإن رفت الشمال كان الخبر سيئاً .

وكـذلـك فانـه تمنـع الكناسة بعد خروج الميت من الدار حتى لا (يقش) غيره وراءه . وفي العصـريـة التي تقام للتعزية بين النساءَ عند الوفاة تجلس قريبات المتوفى صامتات وتدخل كل واحدة من المعزيات أو كل ثلاث معـاً على الأكثـر ، فيـقــرأن صامتــات ٣ مرات سورة (قــل هو الله أحــد) ويخـرجن بلا كلام ، وتقف القـريبات للمعزية أو المعزيات عند الـدخـول والخـروج . وإذا جاءت قريبـة لتنام عند أهل المتوفى في اليوم الأول للوفاة وجب ان تنام ثلاثة أيام ، وإذا جاء المعزي من الرجال في اليـوم الأول وجب أن يعـود ثلاثـة أيـام ، وربما كان ذلك حتى يقصروا اليوم الأول على الأهل الأقربين الذين يفترض فيهم الحضور في الأيام الثلاثة .

ولا يجـوز قص الثيـاب يوم الثلاثاء إذ يقول المثل (الثلاثا وراثه)

ويحسن ذلك يوم الخميس حيث يقول المثل : يوم الخميس فصل لمحبوبك قميص .

ولا تجوز عيادة المريض يوم الأربعاء ويتشاءمون منه وربما كان أصل ذلك اختيار يوم يرتاح فيه المريض وأهله من زيارة من يعودونه ، ولذلك يغسلون غسيلهم يوم الأربعاء .

ولا يجوز قص الأظافر ولا الشعر ليلاً ، وربما كان ذلك حتى يتبين موقع الظفر والشعر الذي يسقط لينظف ويزاح والليل يمنع ذلك .

ومن المكروهات اخراج النحاس والصابون بالليل من المنازل ، واشعال /٣/ سيكارات بعود كبر يت واحد (والظاهر حتى لاتحترق يد حامل عود الكبر يت من بخله) وكذلك يكره شاربو الأركيلة ان يشعل أحدهم سيكارته من الأركيلة (وذلك لأن الجمرة تكون مركزة بصعوبة فتاتي السيكارة وتزيحها) .

ويتشاءم الناس من كسر المرآة ، وإذا سافر عزيز فلا يكنسون وراءه ولكن يسفحون قليلاً من الماء ليعود بسرعة . ويطلبون منه عندما يصل إلى الباب ان يعود لحظة فيعود ليكتب (أن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ثم يخرج تفاؤ لا بسرعة العودة . ويقولون ان السفر في شهر (صفر) غير محمود لأن المسافر فيه يطول غيابه .

وإذا سكن الناس بيتاً جديداً او دخلوا محلاً تجارياً جديداً حملوا معهم ثلاثة أشياء تدخل قبل غيرها وهي المرآة وزريعة خضراء ومصحف ، تفاؤ لا مفهوم السبب . ومن يشرب فنجان قهوته بسرعة يكون يحب زوجته والظاهر انه يستطيب قهوتها إن كانت منها ، ويسرع

في شربها إن كان عند الغير ليعود إلى بيته . وكذلك الأمر مع الزوجة التي تسرع في شرب قوتها. . .

وإذا استطالوا زيارة ضيف ثقيل شبكوا دبوساً في المقشة (أي ليقشوه) ، وإذا خرج بعد طول مقام كسروا وراءه جرة .

ومن تكنس مكاناً وتترك آخر يقولون لها ستتزوجين من أقرع . وكانت زوجتي فعلت ذلك وهي صغيرة فقالت لها جدتها أنها ستتزوج أقرع ، وفعلاً تزوجتني وأنا أصلع ، ومن حظي .

مواكب المشايخ والاذكار

ومن المعروف أن تقام حلقات أذكار في بعض الزوايا العائدة للمشايخ من الطرق الرفاعية والرشيدية والقادرية والنقشبندية والدندراوية والشاذلية والمولوية والبدوية . وقد كان جدي قادرياً رشيدياً في الوقت نفسه، وكان أبي مثله ثم اتبع الطريقة النقشبندية وحضرت الكثير من حلقاتها وتكون بان يجلس المريدون خاشعين صامتين فترة يتأملون في الحياة والموت ، ثم يقرأون بعض الاذكار . وكنت أتردد مع صديقي مصطفى العشا على التكية المولوية حيث كان خاله الشيخ شمس الدين هو شيخ المولوية ، ورأيتهم وهم يدورون لابسين الثياب الخاصة بهم وهي محزومة من الخصر فضفاضة من الاطراف فاذا داروا واليدان على الصدر صارت حولهم منفتحة كأنها مظلة ، وكانوا يبدأون أولا بسير وقور يتقدمون فيه من الشيخ لابسين الطرابيش الطويلة جدا المسماه (كولاه) فينحني المريد برأسه أمام الشيخ ويبادله هذا الانحناء

فيما يعزف الناي والقانون بشرف المولويخانه وعليه يفتلون وما أزال أعرف هذا (البشـرف) ذا الـوزن البطيء الجليـل والنغم الشجي وأعـزفـه على العـود . كما رأيتهم في / ٢٧ / رمضـان في جولتهم الليليـة في بعض البيوت التقليدية كبيت أبي الشامات وبيت الحضره .ثم المسجد الاموي .

وحضـرت ذكـرا ولكن نسيت المنـاسبـة ، وهـو يشبـه مارأيناه من الاذكار المصرية في السينما .

أمـا المـواكب فحضـرت صدفة خميس المشايخ في حمص ردا على مواكب النصارى في أحد الشعانين أي أنه مناسبة خلقتها مناسبة ولذلك فينتظـرون تعيـين أحـد الشعـانـين ليعينـوه . أمـا موسم مشايخ دمشق فيجري في قرية برزة في يوم من أيام الجمعة .

ففي برزه مقـام يقـال أنـه مقام ابراهيم الخليل (وسيدنا ابراهيم أقـام كما يبـدو في مئـة مقـام !) وكـان هذا المقـام منخفضاً وبـابـه صغـيراً ، والتحـدي الـذي يقـوم به بعض المشـايـخ هو أن يدخلوا من هذا الباب الضيق راكبـين الفـرس ، فيأتي المـوكب كما في حمص تتقـدمـه الاعلام والـرايات الصوفية ومعها ضاربو الدفوف والصنوج المسماة بالخليليات ، والـنــاس من حولهـا يذكــرون ، حتى تصـل الى المقــام بين آلاف المتفـرجـين . فينطلق الشيـخ ليـدخـل من البـاب الضيق بسـرعـة مع فرسـه ، وقد فعلها أحدهم فانحشر في الباب وخلصوه بصعوبة ونسب ذلك الى ضعف ايـمانـه لا الى عرض أكتافه وضيق الباب ثم الغى خميس مشايخ دمشق (الذي كان يجري يوم الجمعة) بأمر من الحكومة مثلما ألغي خميس مشايخ حمص .

وهنـــا تحضـــرني فكـاهـة عن يوم أربعـاء حمص حيث يقـال ان الحـماصنـة يعيدون الاربعاء . فقد سئل أحد الحماصنة لماذا تعيدون يوم الاربعـاء ، فقـال لأن (الاربعة الجاي تحكم جمعه) وكذلك (خميس) مشايخ دمشق فانه يحكم يوم جمعه فتأمل ! . .

وإلى تتمة الحديث في الجزئين الثاني والثالث إن شاء الله .



الفهرس

الإهداء ٥
الشكر ٧
مقدمة ٩
تقسيم الكتاب ١٥

الفصل الأول ١٧

من هو تيمورلنك ١٧
موقعة حلب ١٩
حماة وحمص ٢٠
تيمور أمام دمشق ٢١
هرب السلطان ٢٢
قصة الغدر ٢٣
كيف ابيحت دمشق ٢٤
معجزة دمشق ٢٧

الفصل الثاني ٢٩

قصة الصديق القديم ٢٩

دمشق ابنة بردى ٣٠
عين الفيجة ٣١
الأبن والأب ٣١
مؤسسة مياه عين الفيجة ٣٢
المناهل العامة ٣٤
توسيع قناة الفيجة ٣٦
الوادي بدأ يسكن ٣٧
مشروع سد ضخم لبردى ٣٨
الوادي والنزهات ٣٨
الشاذروان ومقهى (خود عليك) ٣٩
دير مران ٤١
الربوة و (اذكريني دائماً) ٤٢
متنزهات الربوة ٤٣
معلومات عامة عن بردى والوادي ٤٤

الفصل الثالث ٤٧

المدينة قبة السيار ٤٧
كرسي الداية ٤٨
تبديل في شكل الطبيعة ٤٨
نهر يزيد والسباحة ٤٩

(ساحة الجريد) ٤٥
حي المهاجرين والترمواي ٥١
جادات حي المهاجرين ٥٣
الفواخير والسكة والمدارس ٥٥
سوق الجمعة ـ اوقاف عجيبة ٥٦
جامع الحنابلة ٥٧
طرفة لاندري مدى صحتها ٥٨
(الكونة) أو معارك المقاليع ٥٩
البساتين تتراجع أمام كتل الإسمنت ٦٠

الفصل الرابع ٦٣

بستان الكركة ٦٣
بوابة الصالحية ٦٤
جمعية الرفق بالحيوان لاالانسان ٦٥
الدكتور قره كوزيان ٦٦
الأطباء القدامى ٧٦
اتبع الخريطة ٦٨
يوم (دبني) السنغالي ٦٩
مدينة المتنزهات ٧٠
أنور كامل ٧٢
قصة السبع بحرات ٧٥

الجبل والغوطة ٧٦
الجنود السنغاليون ٧٦
جنود المستعمرات ٧٧
سورية علمت الفتناميين الجرأة ٧٨
الدك في بساتين الغوطة ٧٩

الفصل الخامس ٨١

حياة الأحياء في دمشق ٨١
سر تعرج الأزقة ٨٢
تعانق البيوت ٨٣
كشاشو الحمام ٨٤
الأحياء وطابعها الخاص ٨٦
الأحياء والمهن ٨٧
العائلات والمهن ٨٨
اسماء العائلات ٩٠
تخصص الأسواق ٩٠
ابرز اسماء الأحياء ٩٢
رحلة في الأحياء ٩٢
المدينة (أثمان) ٩٤
اختيارية المحلة والوجهاء ٩٤
لانحلف « لا صادقون ولا كاذبون » ٩٥

محاكم تلك الايام ٩٥
طنبورة ابو سمو ٩٨
اسر تحتل القضاء ٩٨
قصور العدل ٩٩
التعاضد في الحي ١٠٠
احتفالات الحي ١٠١
أبي لاعب سيف ١٠٢
خصومات الأحياء ١٠٣
قتل النفس حرام ١٠٣
الزكرتية ١٠٥
حادثة رهيبة ١٠٨
الحي وحدة انتخابية ١١٠
التضامن بين الأحياء ١١١
الفنادق والضيوف ١١١

الفصل السادس ١١٣

البيت الدمشقي ١١٣
أشجار البيت الشامي والازهار ١١٣
هندسة البيت الشامي ١١٦
بيت المونة ١١٨
الليوان والقاعة ١١٩

الحيوانات المنزلية ١٢٢

الفصل السابع ١٢٥

حياة البيت الشعبي حتى الثلاثينات ١٢٥
الأثاث ١٢٥
كيف نتناول الطعام ١٢٧
الإضاءة بمصابيح الكاز ١٢٨
منقل الفحم ١٢٩
الليل والقنديل ١٣٠
الملابس ١٣٠
مدافىء الخشب والفحم الحجري ١٣١
مفارقة عجيبة ١٣٢
الطرابيش والأحذية ١٣٣
لباس الشباب الشعبيين ١٣٤
ملابس النساء ١٣٥
ثياب الصغار الجاهزة ١٣٦
الثياب تشترى في العيد ١٣٧
الطعام النظيف ١٣٩
عمتي رقيه ١٤٠

الفصل الثامن ١٤٣

حديث الموائد ! ١٤٣

أنواع البرك والمعجنات ١٤٨
اللحوم ١٤٨
الفتوش ١٤٩
البسماشكات والقبوات وفتة المكدوس وشيخ المحشي والمقلوبة ١٥٠
الستي زبقي والحراق إصبعه والرشتايه ١٥١
تسقية ١٥٢
حكاية باسمة ١٥٢
من مآكل الصباح ١٥٣
الحلويات الدمشقية ١٥٣
أنواع الحلويات بالحليب ١٥٥
حلويات أخرى ١٥٧
قحاطة الحلويات ١٥٧
مآكلنا والمآكل الوافدة ١٥٨
فهد أبو الزنكه ١٥٩
الأشربة ١٦٠
التمر هندي والعيران والليموناده والصليبة ١٦٢
العرق سوس ١٦٢
نداءات الباعة ١٦٤
صوره ضاحكة ١٦٥
يارب ما أكثر خلقك ١٦٦
« يلي بدو يصالح حماته » ١٦٦

من تقاليد الطعام الشامية ١٦٧
اشباع العين قبل الفم ١٦٨
حكاية الطبيب ورديشان ١٦٨
الولائم في المناسبات ١٧٠
ولائم الافراح ١٧٠
.. وولائم الاتراح ١٧١
السيارين ١٧٢
سيارين دمشقية ١٧٣

الفصل التاسع ١٧٧

المناسبات الأجتماعية والأعياد ١٧٧
الخطوبة ١٧٨
السمسار والخاطبات ١٧٩
(فحص) المخطوبة ١٨٠
الاستخارة ١٨٠
(فصيلة) النقد ١٨١
تلبيس الخاتم ١٨٢
العقد ١٨٢
التلبيسة ١٨٣
حفلة الزفاف في دار العروس ١٨٥
تعليمات للعروسين ١٨٦

هدايا الزفاف ١٨٨
الولادة ١٨٨
الختان ١٩٠
احتفالات المولد النبوي ١٩١
رجب شعبان ورمضان ١٩٢
اثبات الشهر واثبات العيد ١٩٣
تكريزة رمضان ١٩٤
كل شيء لحاله ١٩٤
السحور والمسحر ١٩٦
قصص باسمة ١٩٧
ساعة الافطار ١٩٨
المساكبة ٢٠٠
صيام الأطفال ويوم زوغلت ٢٠٠
حلويات رمضان ٢٠١
صلات التراويح والأعتكاف ٢٠١
سهرات رمضان ٢٠٢
ليلة/ ٢٧/ رمضان ٢٠٢
الاسواق والاستعداد للعيد ٢٠٣
عيد الفطر ٢٠٣
حلوى العيد ٢٠٤
طبيخ العيد ٢٠٥
جولات عيد الفطر ٢٠٦

عيد الاضحى ٢٠٨
أعياد الصغار ومباهجها ٢٠٨
يوم شربنا (خروفاً) برمته ٢٠٩
العاب الأعياد ٢١١
السينما ٢١٢
أول السينما الناطقة ٢١٤
كركوز ٢١٥
الكلام الفلتان ٢١٥
أعياد المسيحيين ٢١٧

الفصل العاشر ٢٢٣

الحمامات ٢٢٣
قدر الفول ٢٢٤
السخن والبارد ٢٢٤
البراني ٢٢٥
الوسطاني ٢٢٦
المفرك والمصوبن ٢٢٧
إزالة الشعر ٢٢٧
نعيماً، وإلى الوسطاني ٢٢٨
دور الحمام الديني ٢٢٩
الحمام سيران ٢٣١

الحمام والغناء ٢٣٢
الحمام والنمورة ٢٣٢
حمام النساء ٢٣٣
حمام النفساء ٢٣٤
حمام العروس ٢٣٤
مناشف العرس ٢٣٥
قصة فكهة ٢٣٥
بعض تفاصيل الحمام الداخلية ٢٣٦
حمامات خاصة ٢٣٧
حمام الهنا ٢٣٧

الفصل الحادي عشر ٢٣٩

أنا والأسرة، مولدي زماناً ومكاناً ٢٣٩
العائلة ٢٤١
ديوان سليم قصاب حسن ٢٤٢
جدي محمد رشيد ٢٤٤
رجولة هدّارة ٢٤٤
جدتي زاهدة ٢٤٦
أبي ٢٤٨
التشدد والخلاص منه ٢٥٢
ابراهيم قصاب حسن ٢٥٤

الصبيان والبنات ٢٥٤
حرب جناق قلعة ٢٥٥
أبو لبادة وكلمة (عباية) ٢٥٦
إتقان اللغات ٢٥٧
هل كانت قصة حب ٢٥٧
مصطفى كمال ٢٥٨
عمر من المناصب الإدارية العالية ٢٥٨
سعد الدين أجيراً ٢٥٩
التنظمي الحرفي القديم ٢٦٠
الحرب العالمية الاولى ٢٦٠
دية الطرابيشي ٢٦٢
الكنة وإبنة الاحما ٢٦٣
ظروف عمل منزلي صعبة ٢٦٤
موقف تربوي موحد ٢٦٥
إشاعة زواج ٢٦٦
الزواج من أكثر من واحدة ٢٦٧
من دهنها سقيناها ٢٦٩
أختي من أمي ٢٧٠
أسرة والدتي ٢٧٢
ماجد طرابيشي ٢٧٢
زكي الطرابيشي (أبو عبده) ٢٧٣
الذين يكرهون الملوخية ٢٧٤

دقه بدقه، والبادىء أظلم! ٢٧٥
أديب بدر ٢٧٦
حياة الفنانين في الفنادق ٢٧٧

الفصل الثاني عشر ٢٧٩

طفولة .. كلها طفولة ٢٧٩
الكتّاب ٢٨١
أيهما أفضل ٢٨٤
طمبلكا، فيرينا ٢٨٥
القرآن نغماً أم فهماً ٢٨٦
(آصب آ، اللي جزم أل) ٢٨٩
مدرسة آنموذج عرنوس الابتدائية ٢٩١
اللغة الاجنبية ٢٩٤
إعتمد على نفسك ٢٩٥
الملتقون والمفترقون ٢٩٦
بطاقة الإحتفال الراقص ٢٩٨
وكيس البر يد الذي ضاع ٢٩٩
الشرطي الذي ركل الطفل ٣٠٠
من يقول لا ومن يقول نعم ٣٠٢
خطاط بالفرنسية ٣٠٣
أدوات الكتابة المدرسية ٣٠٤

شرعت في كتابة مصحف ٣٠٥
أشهر الخطاطين في دمشق ٣٠٥
غراند أوتيل دو « تلفيتا » ٣٠٦
إصطيافي في فندق بلودان عام ١٩٣١ .... ٣٠٧
معلمونا في الإبتدائي ٣٠٨
كامل الروماني ٣٠٩
رفاقي في المدرسة الابتدائية ٣١١
شاكر مصطفى ٣١١
فيصل الصباغ ٣١٣
بكري المرادي ٣١٤
محمد النحاس ٣١٥
حيدر صندوق وحسني صندوق ٣١٦
من ذكريات مدرسة عرنوس أيضاً ٣١٦
ولدنات ٣١٧
محاولة فرار مشتركة ٣١٧
الفصل الثالث عشر ٣١٩
معلومات عامة ٣١٩
المواقيت في العشرينات ٣١٩
التوقيت الشمسي ٣٢٠
التوقيت الشمسي القمري ٣٢١
التوقيت القمري الصرف ٣٢٢
التوقيت السوري ٣٢٢

تقاويم أخرى ٣٢٣
الساعة (العربية) ٣٢٣
يوم واحد في تقاويم مختلفة ٣٢٤
الساعات المستعملة ٣٢٥
الساعات الأنتيكة ٣٢٦
السنة الشرقية ٣٢٦
مناخ دمشق ٣٢٩
الأوزان والمكاييل والمقاييس ٣٣١
١ ـ الأوزان ٣٣١
٢ ـ المكاييل ٣٣٢
٣ ـ الأطوال ٣٣٢
المساحات ٣٣٢
العملات ٣٣٣
القيم الشرائية ٣٣٦
وسائل النقل في العشرينات ٣٣٦
أحمد شرف ٣٣٧
التكسيات ٣٣٧
عربات الخيل ٣٣٨
السيارات الخاصة ٣٣٨
الطب العربي ٣٣٩
حكاية باسمة ٣٤٠
الجراح الكحال ٣٤٠

حلاق وقالع الاضراس	٣٤٢
كاسات الهوى	٣٤٢
العطار طبيب	٣٤٣
المجبر والمطهر	٣٤٤
حكاية باسمة	٣٤٤
الخرافات الشعبية	٣٤٥
الخرافات الشعبية وحكمتها	٣٤٦
مواكب المشايخ والاذكار	٣٥٠

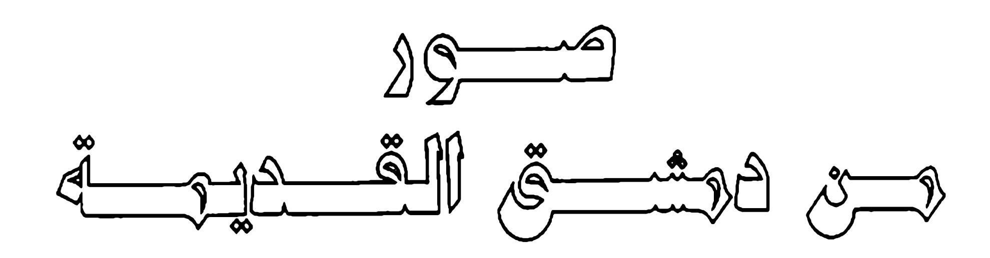
حديث دمشقي: ١٨٨٤ ــ ١٩٨٣ / نجاة قصاب حسن. ــ ط. ١.
دمشق: دار طلاس، ١٩٨٧. ــ ٣٦٨ ص. ؛ ٢٠ سم. ــ (المذكرات ؛ ١).

١ ــ ٩٥٦١,٠٩٠ ٣٩٠ ق ص ا ح ٢ ــ ٩٥٦,١١١ ق ص ا ح
٣ ــ ٩٢٠ : قصاب حسن، نجاة ق ٤ ــ العنوان ٥ ــ قصاب حسن
٦ ــ السلسلة

مكتبة الأسد

رقم الايداع ــ ٧٧٨ / ٩ / ١٩٨٧

رقم الاصدار ٢٩٨


صور
من دمشق القديمة

باب توما قبل تفريغ الساحة حول الباب

ساحة المرجة (الشهداء) ــ ويبدو فيها قصر البلدية الذي أعلن منه استقلال سورية عام ١٩٢٠ وإلى اليمين أول فندق حديث بني في أوائل الثلاثينيات في ساحة المرجة



منظر لساحة المرجة ويبدو طرف بناية العابد (المنزل)

ساحة المرجة (الشهداء) مدخل سوق علي باشا ـــ المنظر أخذ في العشرينيات

XII DAMAS. — PLACE SOUK ALI-PACHA

ساحة المرجة ـــ الطرف الشرقي وإلى اليسار مدخل سوق علي باشا

ضفة بردى صورة مأخوذة من فندق فكتوريا (بناية الخجا الآن)

La Caserne



القشلة الحميدية ــ الآن تشغلها كلية الحقوق وكليات أخرى

سراي الحكومة سابقاً على ضفة بردى ــ الآن وزارة الداخلية وكان النهر مغطى

Damas (Syrie) — Fleuve Barada
et le Palais du Gouvernement

الدرويشيـة





بردى المقابلة لسراي
ـمة (وزارة الداخلية
) ولا يزال المسجد
داً



شارع النصر

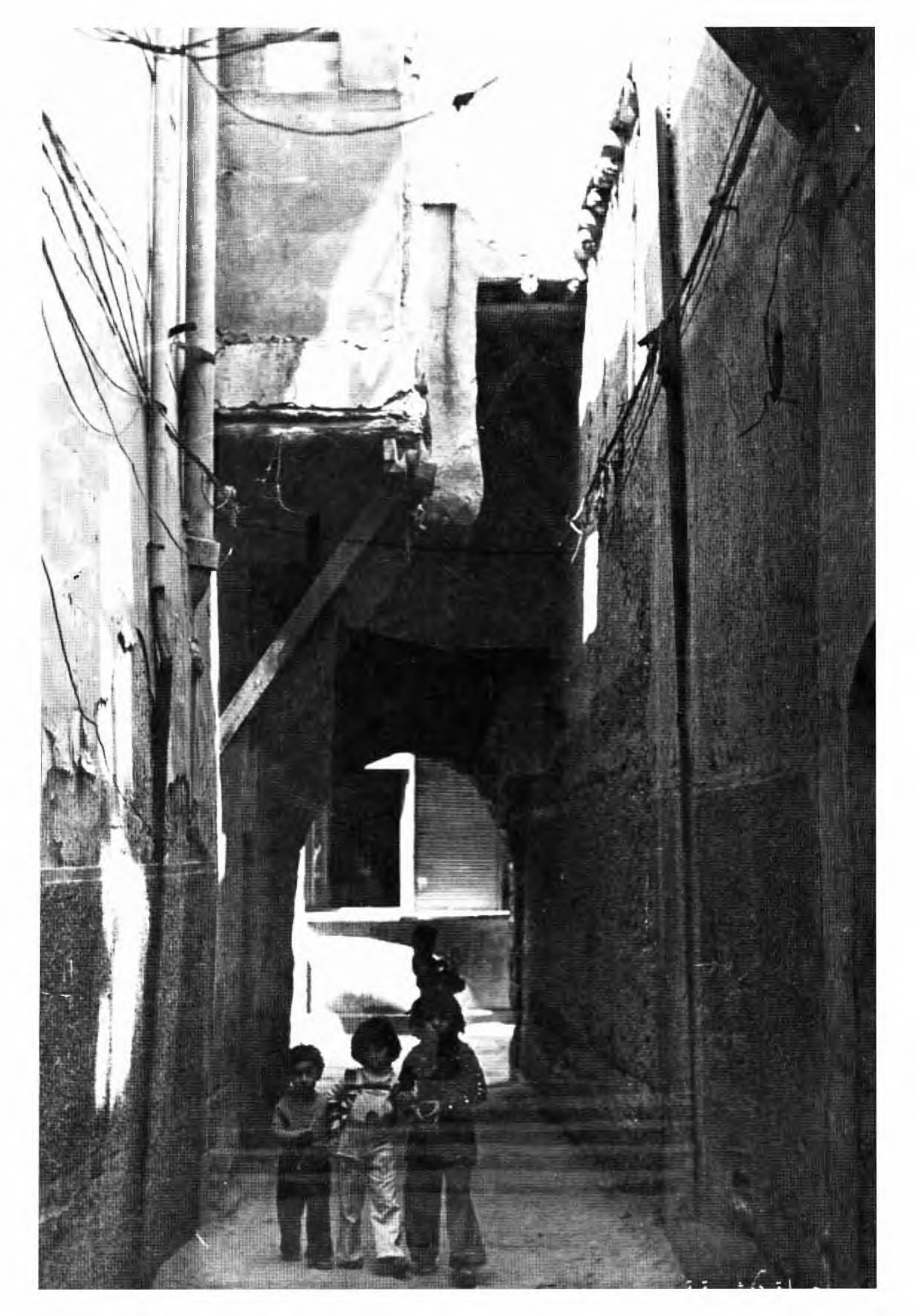
XX DAMAS — Rue Salhieh Place Arnousse

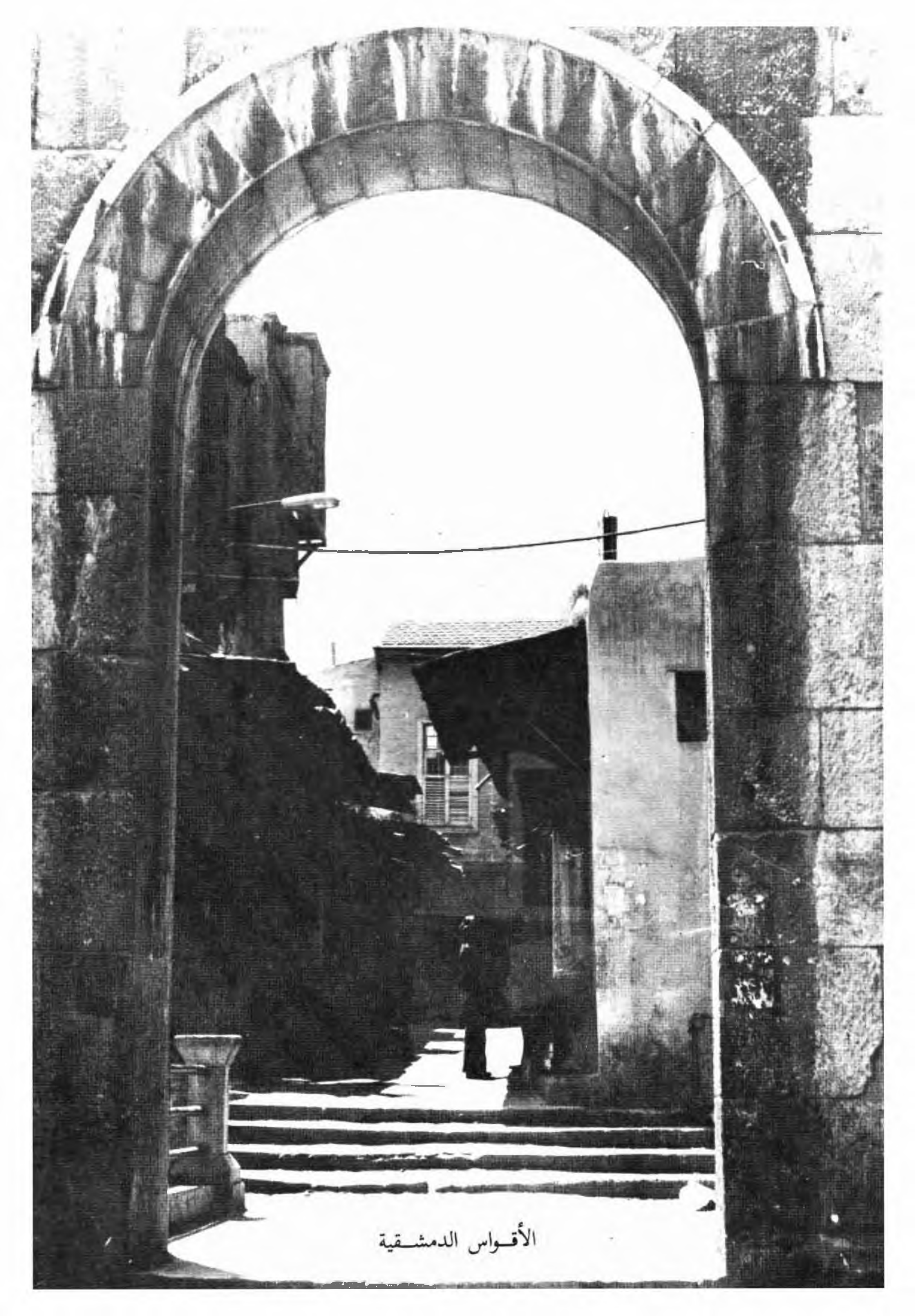
جادة الصالحية ــ ساحة عرنوس ــ (بعض البيوت مازالت حتى الآن)

سوق الحميدية في زحمة الشراء

من حارات دمشق

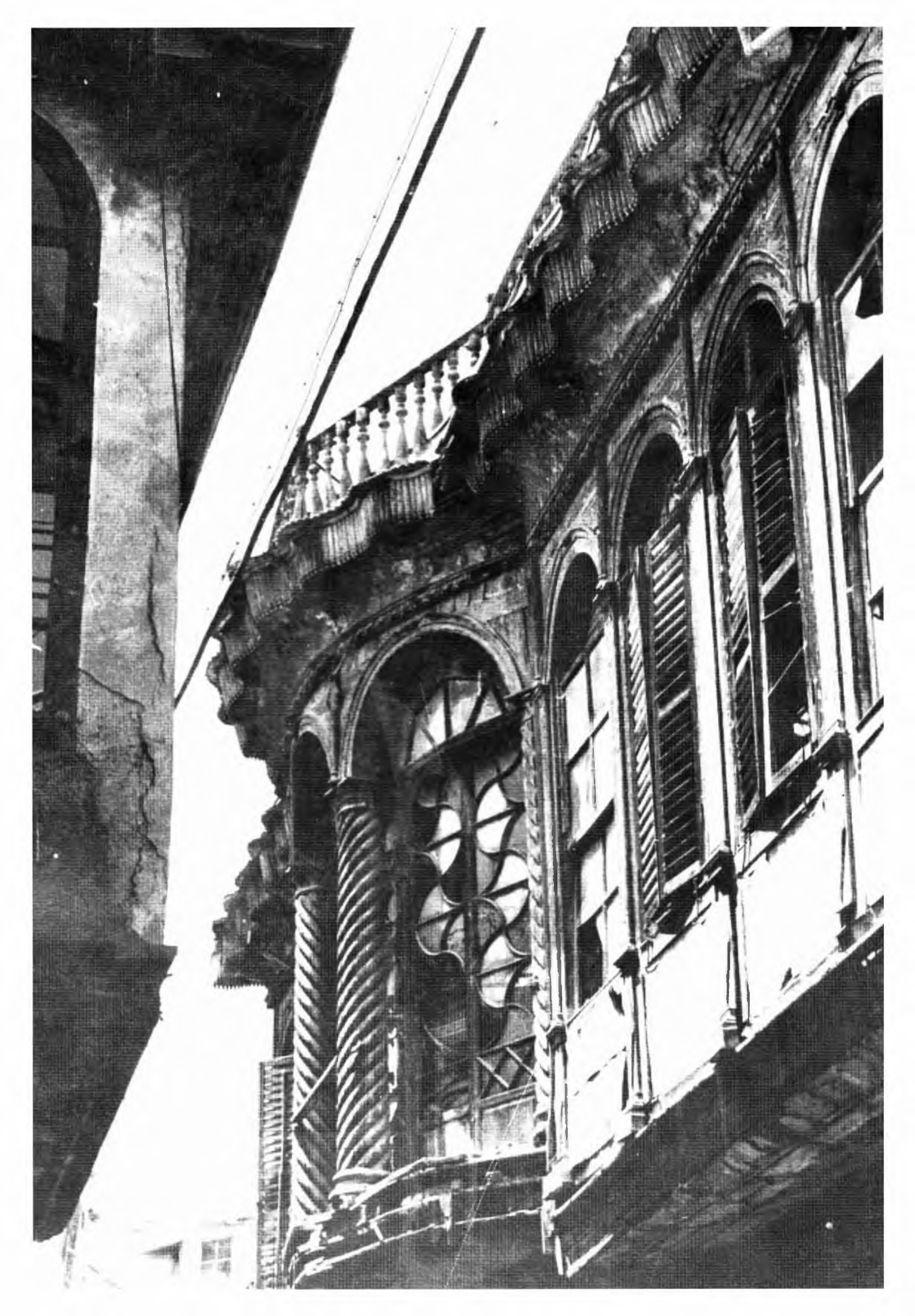
حارة السيباط والأقواس المتلاحقة





الأقـواس الدمشـقية







منزل في حي القنوات

من الفنــون الشعبيـة

الحكواتي



معلم الحمام





مشهد من كراكوز



شخصيات كراكوز

المصـوبن

حمـام دمشقي

خراط دمشقي



في هذه الصورة النادرة يبدو المرحوم فخري البارودي في منزله في طريق الربوة (هدم فيما بعد) وعلى يمينه المحامي الأستاذ رياض العابد ثم الفنان المرحوم حكمت محسن وشخص ثالث لا أذكر اسمه ، وعلى يساره المرحوم حسني تللو ثم نجاة قصاب حسن (يتحادثان) ثم الفنان المرحوم سعيد فرحات ويقف خلفه مباشرة الفنان تيسير السعدي ثم الفنانان المرحومان صبري عياد وفهد كعيكاتي ثم الفنان عدنان قريش .

- ذكريات جميلة ، طريفة ، فيها جمع وتنسيق جيدان للعادات والتقاليد الشعبية في النصف الأول من هذا القرن وما قبله . تشكل اضافة ثمينة جديرة بالترحيب والتقدير .

- الأسلوب طريف ، سلس ، متين في غير تقعر ، واللغة مشرقة ، وفيها تشويق كبير وحسن انتقال .

- الحكايات والنوادر أعطت نكهة خاصة محببة . لم أضحك ضحكاً معافى ، قلبياً ، عالياً مثلما ضحكت في بعض الصفحات .

- هذا ما يدعونه الظرف الجميل في تقديم المعلومات على شكل قصص .

حنا مينه

مطابع الف باء - الأديب
دمشق